اليهود ومعرفتهم

مُذكّرات
صَاحِب الأمبراطوريّة التجاريّة
في بريطانيا

ماركس أند سبنسر

تأليف: ماركوس سيف




ماركس أند سبنسر

ماركس أند سبنسر

مذكرات رئيس محلات
ماركس أند سبنسر

تأليف:

ماركوس سيف

ترجمة: ا. ع.

دار الندا ـ بيروت

مقدمة الطبعة العربية

عندما يتردد على مسامع المرء اسم «ماركس اند سبنسر» أو «سانت مايكل»، سرعان ما يخطر على البال تلك «الامبراطورية» الاقتصادية التجارية التسويقية الهائلة الذائعة الصيت في أنحاء مختلفة من العالم، والمنتشرة فروعها وامتداداتها في زوايا عديدة من المعمورة. وهذا صحيح. ولكن ليست هذه القصة كلها.

وعندما يقع بين يدي القارىء مذكرات ماركوس سيف رئيس هذه المؤسسة الواسعة الانتشار، سرعان ما يتبادر إلى الذهن أن «هذا الدماغ الاقتصادي» يحكي قصة ولادة هذه الشركة العملاقة، أو قصة جدّيه (لأبيه وأمه) افرايم سيف ومايكل ماركس المهاجريْن اليهوديين البولنديين اللذين هربا في أعقاب المذابح الكبرى في روسيا في أواخر سنة ١٨٨٠ الى المانيا ومن ثم إلى انجلترا. أو قصة ولادة الشركة الأم مع تاجر يهودي آخر توم سبنسر في سنة ١٨٩٤، أو ولادة الشركة الحالية في منتصف العشرينات «ماركس اند سبنسر - سانت مايكل»، وهذا صحيح أيضاً وللقصة جانب مثير آخر.

وهكذا عندما يجري الحديث عن شركة «ماركس اند سبنسر» اليهودية وعلاقتها باسرائيل، ربما يظن المرء أن هذه العلاقة تقتصر على «تنفيع» اسرائيل بالاستيراد منها بضائع بقيمة مئة مليون دولار في السنة. وعندما يتداول الناس في أمور هذه المؤسسة يسود الانطباع أنها تعود إلى عائلة أو عائلتين يهوديتين بريطانيتين ثريتين وحسب. وبما أننا غير عنصريين ولا نناصب أحداً «العداء للسامية»، لأننا نحن أنفسنا ساميون، فان الكثير من مواطنينا العرب يؤمّون مؤسسة «ماركس اند سبنسر» ويبتاعون فيها كل ما غلى ثمنه وارتفعت قيمته ومن أقدر منّا على ذلك. والكثيرون قد لا يعرفون الجانب الآخر.

والحقيقة أن القصة كما يرويها ماركوس سيف منذ بداية نشوء هذه المؤسسة المتشعبة انها هي قصة شيقة بلا شك. وهي مليئة بالأحداث والنوادر والحكايات المثيرة ودور المال في خلق النفوذ والسلطان وقدرته على التأثير في السياسات والمسارات التاريخية. انها قصة مقدرة الانسان على بناء

صرح اقتصادي من لا شيء او مبيع خردوات: كل شيء ببنس واحد! أو: «لا تسأل عن السعر» (عنوان هذا الكتاب)، إنه قصة الجد الذي كان يشتري القصاصات من الخيّاطين لفصل الصوف عن القنّب وألياف الكتاب عن القطن وإعادة تصنيعها في مانشستر وبداية تأسيس شركة «سيف ويومنت المحدودة». أو قصة الجنيهات الخمس التي استدانها مايكل ماركس جدّه (لأمّه) من صاحب متجر كبير يدعى اسحاق ديوهيرست، صاحب مؤسسة ديوهيرست، لتشكل نواة العملاق «ماركس اند سبنسر».

والحقيقة أيضاً أنها قصة الناس الذين يعرفون كيف يكوّنون المال وكيف يشغّلونه ويسخرونه لتحقيق النفوذ والسلطان والتحكم في البلاد والعباد. إنها قصة رأس المال اليهودي في مختلف أنحاء العالم. ذلك المال الذي أسهم في اقامة إسرائيل على حساب الأرض العربية في فلسطين، واستخدام هذا المال لضرب العرب ومحاربتهم بجميع أنواع الأسلحة. والعرب لم يفتقروا إلى المال في أي يوم من الأيام من أجل حماية أنفسهم والتصدي للأخطار المحدقة بهم وبأوطانهم. وربما لم يفعلوا ذلك.

هذا جانب ضئيل من قصة «ماركس اند سبنسر» تلك الشركة الصهيونية «الأخطبوط» والتي أسهمت في اقامة اسرائيل على أرض فلسطين. أجل صهيونية بشهادة ماركوس سيف نفسه في مذكراته. وبعض فصول هذا الكتاب يحكي قصة علاقة «ماركس اند سبنسر» ومؤسسيها وعائلة سيف بالذات بالحركة الصهيونية منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وحتى يومنا هذا. ويشهد سيف عن والده يسرائيل سيف وخاله سيمون ماركس أنهما «كانا صهيونيين من تلامذة حاييم وايزمن وأعوانه الذين اشتركوا مع آخرين في اخراج دولة اسرائيل إلى الوجود». ويتابع سرد علاقة أبناء عائلته بقادة الحركة الصهيونية مثل الدكتور حاييم وايزمن وسيليج بروديتسكي وناحوم سوكولو. «وقد عرفتُ هؤلاء تمام المعرفة وتعلّمتُ منهم الكثير عن الصهيونية». إلى أن يقول: «كنت في شبابي أشد وعياً بكوني صهيونيا عن كوني يهودياً». ويمضي في الحديث عن العلاقة بين والده ووايزمن، وكيف أن هذا الأول أخذ الثاني إلى مقابلة جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا آنذاك وأقنعه بإصدار «وعد بلفور» في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧، «وارساء دعائم الوطن القومي» اليهودي.

وكان والده عضواً في المنظمة الصهيونية وذهب إلى فلسطين كعضو في لجنة لتقديم توصياتها حول كيفية تنفيذ «إعلان بلفور». واصطحبه وايزمن كـ «مساعد خاص» إلى مؤتمر السلام في فرساي في سنة ١٩١٩ الذي عين الانتداب البريطاني في فلسطين. واصطحبه أيضاً إلى مؤتمر «سان ريمو» في ابريل ١٩٢٠ الذي ثبّت إعلان بلفور والانتداب. وكان والده يسرائيل سيف يذهب إلى فلسطين كـ «ممثل خاص لوايزمن».

حتى أن والدة ماركوس، ريبيكا سيف، كانت نشيطة في الحركة الصهيونية وأنشأت مع فيرا زوجة وايزمن المنظمة الصهيونية النسائية (WIZO) في سنة ١٩٢٠. وتوفيت والدته في سنة ١٩٦٦ في اسرائيل ودفنت في تل موند في قطعة الأرض التي اشترتها العائلة عام ١٩٣٠ بثمن باهظ اذ «كان

والداي يريدان مكاناً ينزلان فيه في فلسطين». وفي سنة ١٩٧١ دشّن في صفد، شمالي فلسطين، مستشفى «ريبيكا سيف» تخليدا لذكرى أمه.

وهكذا يمضي ماركوس سيف في الحديث عن نشاط أفراد أسرته في الحقل الصهيوني. «إشترك أبي وسيمون [خاله] وزوج خالتي هاري ساكر وهربرت سايد بوتام كاتب المقالات الشهير في «مانشستر غارديان» في تأسيس مجلة «فلسطين» لسان حال لجنة فلسطين البريطانية، وذلك لإيصال آراء الصهاينة البريطانيين إلى الحكومة». ولعل أكبر إسهام لعائلة سيف قدمته إلى إسرائيل يتمثل في إنشاء معهد وايزمن للعلوم. وهنا يفيض صاحب المذكرات في سرد التفاصيل حول إنشاء هذا المعهد في رحوفوت ودور أسرته في تطويره ورعايته. فبعد وفاة شقيقه دانيال بفترة قصيرة بحث والده مع الدكتور وايزمن فكرة تخليد ذكراه، فاقترح وايزمن إنشاء معهد للبحوث العلمية في فلسطين الذي عرف في البداية «معهد سيف» أو (زيف بالعبرية) ليصبح بعد ذلك «معهد وايزمن». ثم انشاء «مؤسسة وايزمن في بريطانيا» والتي كان يترأسها ماركوس سيف نفسه حتى سنة ١٩٨٣ وخلفه نجله دافيد في هذا المنصب. ويروج كاتب المذكرات لأغراض المعهد «السلمية» اذ يقول: «وأعتقد أنه لو تحسنت العلاقات بين اليهود وجيرانهم العرب، فإن معهد وايزمن سوف يشكل واحداً من الجسور التي يسير السلام من خلالها». وفي سنة ١٩٨٥ وافقت مارغريت تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية الحالية على تأسيس قسم للكيمياء يحمل اسمها في المعهد. وفي مايو ١٩٨٦ قامت تاتشر بزيارة اسرائيل «وقد كنت بصحبتها في عدة مناسبات وأسعدني أن أقيم مأدبة غداء لتكريمها في معهد وايزمن».

إن مذكرات ماركوس سيف تشكل نموذجاً حياً لحجوم دعم يهود العالم للدولة العبرية وأبعاده. عائلة واحدة في بريطانيا فعلت كل هذا. ولكن هناك الآلاف من أمثال هذه العائلات والمؤسسات اليهودية في العالم تمد اسرائيل بوسائل الدعم. وهنا يُسهب صاحب المذكرات في سرد التفاصيل عن دوره هو في مساعدة اسرائيل وتقديم الدعم لها في جميع المجالات سواء على صعيد شركة «ماركس اند سبنسر» أو على الصعيد الشخصي.

وشركته لم تبخل على اسرائيل بأي شيء: التنمية الاقتصادية وتقديم المشورة والخبرة التكنولوجية واستيراد الملابس شبه المصنّعة واستيراد الحمضيات والخضروات وتدريب المهاجرين الجدد وتأهيلهم الخ . . .

وهكذا تمضي السنون وتواصل اسرائيل شن حروبها على البلدان العربية. وفي كل حرب وفي كل أزمة كانت تمر بها اسرائيل كان ماركوس سيف ومؤسسته يقفان الى جانب اسرائيل ويساعدانها سواء بالتأثير على القادة البريطانيين او بتوفير وسائل الدعم المالي والاقتصادي وجمع الأموال من أثرياء اليهود في مختلف أنحاء العالم. ويكشف سيف النقاب عن علاقته بعائلة شيكوريل المصرية اليهودية. ويتابع الحديث عن دوره في كل حرب ويقحم في هذا الحديث بمغالطات تاريخية مُردّدا الادعاءات والافتراءات الصهيونية نفسها.

خلال حرب ١٩٤٨ كان ماركوس يتنقل بين فلسطين وبريطانيا بناء على دعوة بن غوريون لتقديم المشورة العسكرية واقناع الانجليز بإكمال الجلاء بسرعة عن فلسطين. ثم يعود إلى لندن لاقناع القادة البريطانيين بالاعتراف بالدولة العبرية. وقلما تجد سياسيا أو مسؤولا بريطانيا خلال مختلف العهود والفترات لم يقم معهم صلات سخّرها لخدمة اسرائيل. «منذ عودتي إلى انجلترا في عام ١٩٥١ واظبت على زيارة اسرائيل ثلاث مرات في العام وفي ذهني ثلاثة أغراض: أولا، مساعدة أعضاء الحكومتين البريطانية والاسرائيلية على تبادل الرسائل عبر القنوات غير الرسمية. ثانيا، محاولة تقديم العون لاسرائيل في حقل التنمية الاقتصادية. وثالثا، لانخراطي بشكل أنشط في شؤون معهد وايزمن للعلوم». وعندما طلب منه بن غوريون، بعد تعيينه مستشارا له لشؤون «النقل والامداد»، أن يستقر في اسرائيل بصفة دائمة رفض ذلك. وعندما سأله بن غوريون عن السبب قال له: «أعتقد بأن بإمكاني افادة اسرائيل أكثر من خلال إلمامي المستمر بما يحدث هنا [في بريطانيا] ومحاولة شرح التطورات لزعمائنا في بريطانيا».

وعلى الرغم من اعترافاته بدور بريطانيا في انشاء اسرائيل ودوره هو شخصيا في التأثير في الزعماء البريطانيين للتحيز لها ومساعدتها ضاربا عرض الحائط المصالح البريطانية في البلدان العربية، فإنه لا يتردد في تكرار المغالطات الصهيونية نفسها كقوله «موقف بريطانيا كان متساهلا مع العرب في سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ . . . في حين أنها ضَيّقت على اليهود بكل السبل الممكنة. . .» ولكنه كان دائما يحاول التأثير على السياسة الخارجية البريطانية تجاه قضية فلسطين «بعض المسؤولين في وزارة الخارجية حسبوا أن دولة اسرائيل الجديدة ستكون مصدراً للازعاج والقلاقل في الشرق الأوسط». وهنا كان لابد له إلا أن يتصدى لهذه «الهواجس» البريطانية. وأراد سيف أن يبرهن على أن المزاعم الصهيونية والاسرائيلية معدة في مطبخ واحد. فمن المغالطات التي يحاول الترويج لها في هذه المذكرات أنه يحمّل الدول العربية المسؤولية عن قضية اللاجئين «رفضت الحكومات العربية حتى أن تحاول توطين اللاجئين الفلسطينيين واستيعابهم».

كان لصاحب المذكرات دور في كل حرب شنتها اسرائيل على الدول العربية وفي كل مرة يبرر لجوء اسرائيل إلى استخدام القوة العسكرية. ففي سنة ١٩٥٦ بسبب «الهجمات الارهابية العربية». وفي سنة ١٩٦٧ لأن «عبد الناصر أعلن أنه عازم على إلقاء إسرائيل في البحر». ويبرر خطة احتلال اسرائيل للضفة الغربية - تلك الخطة المعدة قبل سنة ١٩٦٧ بعشر سنوات وأكثر - لأن الملك حسين تدخل في الحرب.

ثم يحكي عن دوره في حرب ١٩٧٣ وتنسيق نشاطاته مع هنري كيسنجر. وهنا لابد للمرء أن يتوقف لحظة عند مسعى الحركة الصهيونية إلى تسخير «التكنولوجيا والخبرة الاسرائيليتين» ورأس المال اليهودي من اجل التغلغل والهيمنة الاقتصاديين في الوطن العربي. وفي هذا السياق لا يخفي سيف اتصالاته مع أنور السادات وزياراته له في القاهرة. وقبل توقيع اتفاق السلام بين مصر واسرائيل ألقى خطاباً في لندن من بين ما قاله فيه: «لو تم توقيع سلام فإن «ماركس اند سبنسر»

ستكون على استعداد لمساعدة المصريين في تنمية صناعة المنسوجات والأغذية استنادا الى خبرتنا في اسرائيل على مدى العشرين عاماً الماضية . . . وشرحتُ كيف يمكن للدروس التي تعلمتْها اسرائيل وطبقتْها في المجالين الصناعي والزراعي أن تكون مفيدة للمصريين». ثم يقول: «تمكنتْ ماركس اند سبنسر من تقديم بعض المشورة المفيدة لمصر وهي تركز كثيرا على ما تعلمناه من اسرائيل».

يريد أن يقدم إلى مصر ما تعلمه في اسرائيل، ولا نعرف ماذا قدم إلى مصر. ولكن كيف يتعلم من اسرائيل وهو نفسه يقول «وتمكّنا من منح اسرائيل بعض المعلومات القيمة عن التطورات التكنولوجية. وكانت المؤسسة تشتري في الوقت ذاته كميات متزايدة من المنتجات الاسرائيلية، وعلى رأسها المنتجات الزراعية، رغم أن سياسة الشركة كانت ولا تزال تصر على المنتجات البريطانية». ولكن لماذا اسرائيل؟ لا نعرف وهو لم يعطنا الجواب.

ان مذكرات رئيس مؤسسة «ماركس اند سبنسر» انما هي سجل حافل يغرق المرء من خلاله في عالم السياسة والاقتصاد والتجارة والعلاقات العامة وشجونها وخفاياها. وربما ان هذه المذكرات قد لا تعني الكثير لأي قارىء أجنبي، سوى ما تضمنته من براعة السرد ومتعة الأسلوب. ولكنها تعني بالنسبة إلى القارىء العربي الكثير الكثير. فهو لابد إلّا أن يجد فيها بعض الدروس والعبر. وأولها أن الذين جاءوا من بولونيا والمانيا قبل قرن من الزمن واستقروا في انجلترا او الولايات المتحدة يحاربوننا نحن معشر العرب بالمال والنفوذ. كما أن الذين جاءوا من تلك البلاد والأصقاع من وايزمن وبن جوريون وبيغن وبيرس وشمير قاتلونا في عقر دارنا وتحالفوا ضدنا مع القوى الخارجية يهودية وصهيونية وغيرها. وحتى الآن يصعب على الانسان العربي أن يفهم لماذا أن شخصاً ميسوراً مثل ماركوس سيف الذي لا تربطه بوطننا وأرضنا أية رابطة ولا أية صلة، والدليل على ذلك ما يسلسله هو لأجداده المتحدرين من بولونيا وروسيا، يناصبنا العداء ويقدم الدعم بكل أشكاله الى الذين جاءوا من وراء البحار لكي يحتلوا بلدنا ويقتلعوننا من أرض آبائنا وأجدادنا. لماذا؟ فهل يريد «وطنا قومياً»؟ ولماذا لم يذهب إليه بعد قيامه؟ أو هل هو بحاجة إليه وهو على هذا المقدار من المال والنفوذ في وطنه بريطانيا؟ أم لأنه تربطه بهؤلاء الناس رابطة الدين. ولكن لو كانت رابطة الدين ـ والدين لله ـ هي التي تتحكم بالعلاقات بين الشعوب، ولو كانت رابطة الدين هي المسوّغ لمصادرة الأوطان والأملاك، ولو كانت هي المبرر للقتل وسفك الدماء وقمع الذين يثورون على جلاديهم ومحتليهم، لسادت الفوضى وشريعة الغاب، ولكانت ستحل بالبشرية كوارث وحروب أهلية أضعاف أضعاف التي نشهدها الآن.

ويصعب علينا بالمقدار نفسه أن نفهم ما الذي يجعل قادمين آخرين من بولونيا وغيرها أمثال جابوتنسكي وخليفته مناحيم بيغن وأتباعه يتسحاق شمير وشارون وارنس وبن جوريون وبيرس ورابين يحقدون علينا هذا الحقد الدفين ويوجهون رصاصهم إلى صدور أطفالنا ونسائنا وشبابنا. ما الذي جلبهم من بولونيا والمانيا أو روسيا وغيرهم. وأي ذنب اقترفناه نحن بحقهم في تلك البلاد. وأية

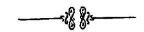
مسؤولية لنا عن المذابح التي ارتكبت ضدهم على مر العصور والدهور. بل على العكس هم الذين نعموا بالحرية والمعاملة الحسنة في ظل الحكم العربي على مر العهود والأزمان.

ولا يستطيع المرء أن يفهم كيف تسمح لمثل هؤلاء الناس، دول تدعي الحضارة والدفاع عن حقوق الانسان بحرية العمل في أراضيها، وحرية العبث بمصالحها وحرية التحرك في عواصمها وبالولاء المزدوج لغيرها. كيف تسمح هذه الدول لهؤلاء الناس بالعبث بمصالحها علما بأن هذه الدول «المتحضرة» تدرك أن هؤلاء الناس يشكلون خطرا على مصالحها أكثر مما هم يشكلون حماة لها. وكيف يمكن لأحد أن يوفق بين ولائه لوطنه الذي يعيش فيه وولائه لقوى خارجية تتضارب مصالحها مع مصالح ذلك الوطن في المدى البعيد. وماركوس سيف نفسه قال إلى بن جوريون: «لا أستطيع أن أقسم يمين الولاء لدولة اسرائيل» خشية أن يفتضح أمره ويعجز عن الدفاع عن موقفه. وماركوس نفسه يعترف أيضا أنه عندما عرض عليه جيمس كالاهان وزير خارجية بريطانية في سنة ١٩٧٤ تعيينه سفيرا لحكومة جلالة الملكة في اسرائيل أجاب: «لكن الجميع يعرفون بعلاقتي الطويلة والوثيقة باسرائيل. ولن يصدق أحد لو ذهبت إلى هناك كسفير بأنني سأضع مصلحة بريطانيا أولاً. وحتى لو فعلت ذلك سيعتقدون أني متحيز». ومن سخرية القدر أن بن غوريون وليس تشرشل مثلا، عرض عليه أن «يتولى رعاية المصالح البريطانية في اسرائيل».

تساؤلات كثيرة ولكن من الصعب العثور على اجوبة عليها. علما أن ماركوس سيف نفسه أعطانا أجوبة جزئية ورد على بعض تساؤلنا: كيف استطاعوا أن يفعلوا بنا كل ذلك. فهو يقول ببساطة: «كانت الانقسامات في الآراء على مستوى القيادة العربية تضعف جهدها الحربي». وبالفعل قادتنا كانوا منقسمين وقادة يهود العالم كانوا ولا يزالون متّحدين حول دعم اسرائيل. ماركوس سيف نفسه بحسب شهادته، يكرس لاسرائيل من الجهد الكثير ويعرف قادتها تمام المعرفة ولا يتردد في أن يكيل لهم المديح ويطلق عليهم صفات ليست عندهم: «كان بن جوريون في الأساس رجل سلام» عجباً! ويقول «كان هدف ديان أمن اسرائيل ولم تكن لديه ميول توسعية» عجباً! عجباً! . «وبقيت على اتصال بالزعماء السياسيين الاسرائيليين لأكمل المهمة التي بدأتها أكثر من عشرين عاماً وإن بأسلوب مختلف. . .» فلا دهشة هنا ولا عجب.

وأراد ماركوس سيف أن يقنع قراءه بأن لا همّ لقادة اسرائيل السابقين واللاحقين الا السعي إلى السلام وينهي كتابه: «في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب أرى كرة السلام في الملعب العربي. ولكن الأمر الذي يؤسف له ان الدلائل قليلة على استعداد العرب لاستغلال هذه الفرصة». ولو كان سيختتم هذا الكتاب في هذه الأيام، هل كان سيبقى مصراً على الكلام نفسه أم أنه كان سيقول العكس: ان قادة اسرائيل الحاليين يضيّعون فرصة ذهبية قد لا تتكرر أبداً. إننا لا ننتظر منه الجواب، وإنما ربما من قادة آخرين ليهود العالم. وربما أن بعض هذا الجواب أخذ يتنامى إلى مسامعنا.

وأخيراً، ننشر ترجمة لمذكرات ماركوس سيف رئيس مؤسسة «ماركس اند سبنسر» ونحن على يقين أن القارىء العربي انما هو على درجة من الوعي والادراك لكي يفرق ويميز بين الحقائق التاريخية وبين المغالطات والدعايات المغرضة وتشويه الحقائق. ونحن ننشر ترجمة لهذه المذكرات وغايتنا اطلاع القارىء العربي على نموذج واحد لمعرفة عدونا ومصادر الدعم التي يتلقاها وكيفية الحصول عليها. وعسى أن نكف بعد ذلك عن التساؤل: كيف يستطيع مليونان أو أربعة ملايين أو عشرة ملايين من البشر التغلب على مئة أو مائتي مليون؟ الجواب لا نجده بالطبع عند رئيس مؤسسة «ماركس اند سبنسر» وحسب.



الفصل الاول

كنت، ولا ازال، انسانا موفور الحظ. ولدت في اسرة رائعة، فقد قدم جداي الى هذه البلاد كشابين يهوديين مهاجرين من بولندا. بدءا حياتهما وليس في جيبهما مليم واحد، وارسيا قواعد شركات جعلت من وريثيهما رجلين غاية في الثراء. وكان لهذين الوريثين، ابي وخالي «سيمون ماركس»، اسهامهما القيم في صنع الحياة في بريطانيا. كما كانا صهيونيين من تلامذة «حاييم وايزمان» واعوانه الذين اشتركوا، مع اخرين، في اخراج دولة اسرائيل الى الوجود. ومن خلال هذين الرجلين والمراتين الرائعتين اللتين اقترنا بهما، توافر لي العديد من الامتيازات والفرص. وبدافع من العرفان بالجميل اكتب هذه المذكرات... في اعقاب موجة المذابح الكبرى في اوائل ١٨٨٠، قرر جدي لابي «افرايم سيف»، هو ومئات الالاف من يهود روسيا وبولندا وليتوانيا، الهجرة. كان جدي قد نشا في قرية «ايريجولا في «ليتوانيا»، في قلب منطقة الاستيطان التي تم التنازل عنها لروسيا في اعقاب سلسلة التقسيمات التي بدات في بولندا عام ١٧٧٢. كان والد «افرايم» حبرا (حاخاما)، وكانت امه تملك طاحونة الغلال في القرية. وكان دخلها ياتي من طحن غلال اهل القرية. ولم تكن لدى «افرايم» الرغبة في ان يكون حاخاما. كما كان يؤمن ان بمقدوره ان يحترف عملا افضل من طحن الغلال. وهكذا ادخر خمسين جنيها، وحصل على ترخيص بالاقامة في كوينجزبرج» في المانيا، في دار ابن عم له يملك محلا صغيرا للأقمشة. وانطلاقا من خبرته في طاحونة القرية، بدأ يشتري القنب والكتان والشعير عبر الحدود الروسية، ليبيعها في المانيا. كما كان يساعد ابن عمه في تجارته، بادئا بشراء القصاصات من الخياطين، ليفصل الصوف عن القنب وألياف الكتان عن القطن، او ما نسميه الان «اعادة التصنيع». وخلال بضعة اعوام اصبحت له تجارته الخاصة الصغيرة وعاش في يسر.

ثم حدث ان بدأت مذبحة روسية كبرى، أعقبها اتفاق بين ألمانيا وروسيا يقضي باعادة ترحيل اليهود الروس المقيمين في ألمانيا الى روسيا بالقوة، حتى يتم تجنيدهم للخدمة

العسكرية. فالألمان لم يكونوا راغبين في وجود اليهود، في حين كان الروس في حاجة الى الجنود. وهكذا ارغم جدي على بيع تجارته في «كوينجزبرج» بين ليلة وضحاها بثمن بخس، والعودة الى «ايريجولا» وسط احتمالات الخدمة الاجبارية في الجيش الروسي. كانت الخدمة العسكرية لليهود تعني عشرين عاما. وفي طريق العودة، قرر جدي ان يحاول الفرار من روسيا في أقرب وقت ممكن. وحاول والداه جاهدين ان يثنياه عن عزمه، لكنهما سرعان ما لقيا منه اصرارا. كان جدي في سن التجنيد عند ذاك، ولم يكن باستطاعته ان يغادر الأراضي الروسية بطريق مشروع، ومن ثم كان عليه ان يهرب نفسه. وحملت أمه على عاتقها ان تساعده لأن أباه لو ضبط وهو يحاول ذلك لكان مصيره الاعدام. استمرت تجارة الغلال عبر الحدود، وكانت عربة الطاحونة المغطاة تعبر الحدود مرارا وعلى هيكلها عشرات العلامات المرسومة بالطباشير، برهانا على ان حراس الحدود قد أجازوا لها المرور. وفي فجر احد ايام الشتاء حيث الضوء باهت، قبع جدي متكورا داخل العربة، وهال والداه اجولة الغلال حوله. وأخذت أمه بعنان الجياد منطلقة به الى الحدود. واستوقف الحراس العربة وبدأوا، كالمعتاد، ينخسون الأجولة الخارجية بعصيهم، قبل ان يجيزوا لها المرور.

ما ان اصبح جدي في الأراضي الألمانية حتى أخذ طريقه الى ميناء «ستيتين»، حيث كان من الممكن ان يبحر الى «نيويورك» حيث بعض الأقارب. لكن بائع تذاكر نذل أخذ نقوده، وأعطاه تذكرة لا توصله الا الى «هول»، على الساحل الشمالي الشرقي لانجلترا. وقد وقع الكثير من اللاجئين اليهود ضحية لهذه الحيلة. حين وصلت السفينة الى «هول» وجدت في استقبالها حشدا من اليهود القادمين ليروا ان كان اي من أقاربهم على متنها. ورأى احدهم جدي يقف تائها، عاجزا عن التحدث بالانجليزية. فأخذته الرأفة به وخاطبه باليديشية (اليهودية الألمانية). ولابد وانه كان ملاكا فهو، لم يصطحب جدي الى داره وحسب، وانما استضافه ايضا لبضعة اسابيع. ومن هناك انتقل جدي الى مانشستر، بعد ان اخبره مضيفه ان بها مستعمرة ضخمة وآمنة لليهود. وهناك ساقه حسن الطالع الى لقاء امرأة كانت تعرفه في «ايريجولا»، كانت متزوجة من خياط كبير ممن هاجروا من ليتوانيا. وأواه الاثنان في دارهما، متخذين منه صديقا.

كانت صناعة الخياطة تخلف عددا من القصاصات التي يعتبرها نفاية، ويدفع الخياط الثمن لمن يخلصه منها. وسأله جدي ان كان بمقدوره ان يأخذ القصاصات بلا مقابل حتى يبيعها. وفي خلال أيام، كان جدي قد صنف القصاصات، مستندا في ذلك الى خبرته الغنية. وبعد ان استعار بعض الأكياس واستأجر عربة يد، ساق بضاعته عبر طرقات مانشستر، الى حيث كان يوجد متجر «بومونت وشركاه». وكان دليله الى طريقه بطاقات كتب عليها الخياط أسماء الشوارع الموصلة، كان يعرضها على المارة. انبهر مدير «بومونت» بالدقة التي صنف بها جدي القصاصات، فأجزل له العطاء ووعده ان يشتري

منه اية كميات اخرى يحضرها، بشرط ان تحمل نفس المواصفات. وكانت هذه بداية لتجارة جعلت من جدي رجلا ثريا قبل ان يوافيه الأجل. بعد عامين استطاع جدي ان يستخدم عربـات النقل التي تجرها الجياد بدلا من عربات اليد، واصبح يملك مخزنا خاصا به بالقرب من محطة فيكتوريا في مانشستر. وبعد مضي ستة أعوام أخرى ، اشترى جدي شركة «بومونت»، التي تحول اسمها الى «سيف وبومونت المحدودة»، قبيل الحرب العالمية الأولى. وقد منحت الحرب الشركة فرصة مؤاتية بسبب ارتفاع الطلب على القطن المتفجر، كما زاد الطلب على نفايات القطن اللازمة لصناعة الورق حين أدى الحصار الملاحي الذي فرضه الألمان الى وقف واردات القطن.

كان بمقـدور ابي «ازرائيـل» واخيه الأصغر «ادوارد» اللذين ورثا هذه التجارة الرائجـة، ان يستمرا في امتلاك «سيف وبومونت» وادارتها حتى آخر عمرهما. ولكنهما عندما انهمكا في «ماركس اند سبنسر» في منتصف العشرينات، أحسا انه من العدل لكل من الشركـة والعـاملين بهـا أن يبيعاها لمن يديرونها. وهكذا أصبح المديرون أصحاب الشركة. كان جدي يفخر على الدوام بما فعله أبوه حتى امتلك «بومونت» وجعل منها شركة ناجحة. كان دائما يقول لأفرايم «بدأ كل هذا بالقصاصات في الطابق الأرضي . لم يفعل (ابي) شيئا جديدا، بل كان يفعل ما يفعله الآخرون، ولكن باتقان. ان في العالم مجالا لأمثال هؤلاء». وما صدق حينذاك يصدق أكثر اليوم.

كان تاريـخ جدي لأمي «مايكل ماركس» مشابها من نواح عدة. فقد ولد في قرية بالقـرب من «بيـاليستوك»، وهي مدينة داخل منطقة الاستيطان فيما كان يعرف أنذاك ببولندا الروسية. وقد عاشت اسرته، فيما عرفنا، في ظروف شديدةالشبه بظروف جدي «سيف» عدا انها لم تكن على نفس القدر من ميسور العيش . ماتت امه اثناء ولادته، فنشأ وسط العديد من الأخوة والأخوات في رعاية اخت كبرى متفانية. وقد هاجر هو الاخر بسبب المذابح، فجاء الى انجلترا في سن التاسعة عشرة ولكنه، على عكس أفرايم، نزل حيث أراد في «هـارتلبـول». ومن هناك ذهب الى «ستوكتون» ومنها الى «ليدز»، حيث سمع بوجود مستعمرة يهودية ضخمة ومؤسسة انسانية ترأف باللاجئين اليهود «باران». وما حدث له هناك سجله «اليستر ديوهيرست» رئيس مجلس الادارة الحالي ل «أ. جـ. ديوهيرست المحدودة ، وهي شركة تورد البضائع لماركس آند سبنسر منذ أكثر من مائة عام.

في صباح يوم من أيام ١٨٨٤ كان جد «اليستر» اسحاق، يقف خارج متجره في «كيركجيت» في وسط المدينة وكان تاجر جملة مشهورا في «ليدز» يبيع البضائع للمتاجر الرخيصة في وسط المدينة.

فجأة دنا منه شاب أحمر الشعر لافت للنظر. ظل الشاب يردد اسم «باران»، وهي

الكلمـة الوحيدة التي بدا باستطاعته ان ينطقها. كان «اسحق» في صحبة مديره العام «تشارلي باكهاوس»، الذي كان يعرف القليل من اللغة اليديشية بحكم تعامله مع أصحاب المتاجر والأكشاك الذين كان بعضهم من المهاجرين اليهود. وسرعان ما عرفا جوهر حكاية جدي. وعرض «اسحاق» ان يقرض جدي خمسة جنيهات، وهو مبلغ في تلك الأيام. قال جدي انه سيشتري من متجر اسحق بضائع بهذه القيمة ، ليبيعها في القرى المحيطة بـ «ليدز». وحقق جدي نجاحا. لكنها كانت مهنة مضنية ولم تكن صحته على ما يرام. وما ان ادخر مبلغا كافيا من المال حتى استأجر بقعة في سوق «ليدز» المكشوف . كان كشكه يتألف من طاولة أبعادها ٦×٣ اقدام. وكان السوق يبعد مائة ياردة عن متجر «ديوهيرست» الذي كان يزوره كل يوم لشراء البضائع، حتى صار معروفا لكل العاملين به وحسن الذكر لديهم، وخـاصـة لدى الصراف «تـوم سبنسر» . كان لكل البلدات المحيطة بـ «ليدز» اسواقها الخاصة التي تفتح يوما او يومين في الأسبوع. فكان أصحاب الأكشاك يتنقلون من مكان الى آخر طوال الأسبوع. وقد تعلم مايكل من واقع خبرته كبائع متجول ان يعرف ماذا يريد الناس. فكان يبيع يومين في الاسبوع في كشك ليدز، حيث اصبحت له طاولتان، ويعمل بقية الاسبـوع في اسـواق «كـارسلفورد» و «ويكفيلد». ولم تمض فترة طويلة حتى طلب الى «ديوهيرست» ان يزوده بالعاملين. فزوده المتجر بفتاتين استمرتا في العمل معه سنوات عديدة. وسرعان ما بدا يتركهما في سوق «ليدز» حتى يتسنى له الذهاب الى اماكن اخرى ويتمكن من البيع في سوقين في يوم واحد.

كانت الأسواق المغطاة قد بدأت تطغى في تلك الفترة على الأسواق المكشوفة. واقيم في «ليدز» سوق دائم يفتح ستة أيام في الأسبوع. وكان «مايكل» يعي ان ضعف انجليزيته يزيد صعوبة التسويق بالنسبة له. وقد استوقفه انه يشترك في هذا مع العديد من عملائه الذين كانوا أميين، اما جزئيا أو كليا. وحتى في الأيام التي كان محله يتألف فيها من طاولة واحدة، كان يرسم خطا بالطباشير في منتصفها، ويضع على أحد الجانبين البضائع ذات الأثمان المتنوعة، وفي الآخر تشكيلة كبيرة من السلع التي وضع فوقها لافتة تقول: لاتسأل عن السعر، انه بنس واحد وحين ترقى ليصبح له كشك ثابت في السوق وضع لافتة تقول «م. ماركس، سوق البنس الواحد أصلا». وخلال عامين كان قد فتح مجموعة من محلات خردوات البنس الواحد في ساحات السوق في عدة بلدات في «يوركشير» و«لانكشير» وحتى «كارديف».

سرعـان ما ظهـرت سلسلة من المتاجر في المدن والبلدات الكبيرة في شتى انحاء انجلترا وويلز تحمل اسطورة «م .ماركس»، مبتكر سوق البنس الواحد» . كانت واجهات هذه المتـاجـر تفتـح اثناء ساعات التسوق، وكانت نضدها تمتد على الجانبين والجدار

الخلفي . كان معنى ذلك ان العميل لم يكن في حاجة الى ان يطلب سلعة معينة يخرجها البائع من الخزانات ، وهي الطريقة الشائعة في معظم المتاجر في ذلك الحين، والتي قد يتردد العميل فيها بدافع من الخجل. لم يكن على العميل حين ينتقي مايريد الا ان يدفع ثمن ما اختاره . كان هذا النظام نواة لاثنين من اهم مبادىء البيع بالتجزئة في العصر الحالي ، وهما الانتقاء الذاتي والخدمة الذاتية. وقد صممت المتاجر لهذا الغرض.

في ١٨٨٦، حين كان مايكل في الثانية والعشرين، تزوج من فتاة في الحادية والعشرين تدعى «حنا». وانتقل في ١٨٩١ الى «ويجان»، حيث فتحا متجرا في السوق واقاما في شارع «كارولين» كانت ويجان في ذلك الوقت بلدة يقطنها الفقراء ذوو الحاجات البسيطة، وكانت التشكيلة التي يعرضها مايكل تفي باحتياجاتهم. وبعد ثلاثة أعوام اتخذ مايكل ثلاثة قرارات هامة. أولها ان فتح ماكان يعتبره في تلك المرحلة متجرا كبيرا في مانشستر وانتقل للعيش هناك. ثانيها انه بدأ يشتري بعض سلعه من المصانع مباشرة، وليس من تجار الجملة، وهو المبدأ الذي حاولت المنظمة التي أسسها ان تطبقه منذ ذلك الحين. وثالثهما انه سأل اسحق ديوهيرست ان كان يرغب في مشاركته، لأنه كان يحتاج الى شخص معه في تحمل مسئولية التجارة المتسعة بسرعة كبيرة. ورفض ديوهيرست لأن تجارته الخاصة كانت رائجة. لكنه اقترح «توم سبنسر» الذي كان مهتما بتحسين أوضاعه. وكان «ماركس» يعرف «سبنسر» تمام المعرفة، وهكذا تأسست شركة بين ماركس وسبنسر في عام ١٨٩٤ ، اسهم فيها «سبنسر» برأسمال قدره ٣٠٠ جنيه. وبحلول ١٩٠٣ كان الاثنان يمتلكان ستة وثلاثين محلا وحانوتا للخردوات، بينها ثلاثة في لندن، ومن ثم اسسا شركة محدودة. في ١٩٠٨ اصبح عدد الوحدات ستين وحدة، ثلثاها عبارة عن محلات ، والباقي حوانيت خردوات ثابتة في الأسواق.

تزوج جداي من امرأتين عظيمتين. اما «مايكل» فقد مات في السابعة والأربعين، وكان من حسن طالعه ان التقى «حنا»، لأنها كانت له نعم العون طوال حياتهما الزوجية وكانت أما عظيمة لأبنائهما الخمسة بعد ترملها. ولم تكن «حنا» بالمرأة الغليظة ولكنها، رغم نحالة عودها ورقة ملامحها، كانت ممتلئة نشاطا، وقد ملكت حياة زوجها وأسرتها. وصفها أبي بانها كانت حائكة عظيمة، لديها حس بارع بالتصميمات وذاكرة رقمية جيدة. اما جدتي لأبي فكانت مختلفة، فلم يكن لديها نفس الحس التجاري رغم ذكائها اللماع. وكانت جميلة في شبابها.

في عام ١٩٠٢، حين كان أبي في الثانية عشرة، انتقل جدي للاقامة في البيت رقم ٤٠٨ في «بيري نيو رود». وكانت هذه خطوة تنطوي على ارتقاء له وزنه من الناحية الاجتماعية. كان ابي يهوى ان يقول للناس: «ولدت فوق محل للسمك والبطاطس». وكان

صادقا في ذلك الى حد كبير، فقد كان بيتهم عبارة عن شقة من حجرتين فوق المحل، وكانت المنطقة قاسية وكثيرة الضوضاء. وانتقلت الأسرة منها الى بيت صغير في شارع «الزورت» غير البعيد من شارع «ستوك»، حيث كان اول لقاء. وقد تلت ذلك نقلات اخرى، حيث كان الرقي الاجتماعي يقاس تقريبا بالمسافة التي تقطعها من ضواحي محطة فيكتوريا جهة الجنوب الغربي نحو شارع «نيوبيري» . وكان المنزل رقم ٤٠٨ يقع فعلا في «سالفورد». ورغم انه كان احد اربعة بيوت متلاصقة، فقد كان ذلك يعني ارتقاء آل «سيف». والحق ان آل «ماركس» كانوا قد ارتقوا اكثر. في نفس هذه السنة، كان «مايكل» قد بنى لنفسه دارا على قطعة ارض كان عليها بيت قديم تبعد خمسين ياردة عن دار «آل سيف»، واطلق عليها «نول هاوس». وكانت الدار فخمة نسبيا، بها حديقة امامية، وثماني حجرات، واستراحة صيفية في البستان الخلفي.

حدث الاتصال بين الأسرتين من خلال ابي، على حد قوله . ففي احد ايام السبت الباردة ، وفيما هو يتمشى في شارع «تشيتام هيل»، لمح ثلاث فتيات صغيرات يسرن برشاقة بخطوات متناسقة وفي صف واحد. كن مختلفات في الطول، لكنهن كن يرتدين معاطف شتوية من شكل واحد ويغطين ايديهن بالفراء. ولاحظ ابي ان لأطولهن ساقان جميلتان ، فأراد ان يتأكد ان كانت ملامح وجهها لها نفس الحسن. وتأكد له ذلك حين فاجأهن وجها لوجه. لكن الثلاث سرعان ما دخلن دارا في نفس الشارع. وفي السبت التالي تعرف الى الفتاة في حفل عيد ميلاد. كان اسمها «ربيكا ماركس» او «بيكي»، وهي الفتاة التي صارت لاحقا امي.

قضى ابي جل الأمسية في الحديث الى «بيكي». وبعد يومين التقى باخيها «سيمون» وهو بصدد الخروج الى مباراة كريكيت في الملعب الواقع خلف الدار. سأله ابي: «هل اشاركك اللعب؟» فرد سيمون بالايجاب وذهبا سويا. سجل ابي الكلمات التالية في يومياته وهو يعود بالذاكرة الى عصر ذلك اليوم المشهود:

أذكر جيدا اول مباراة لنا. كانت مثل غيرها من المباريات التي لعبناها في الملعب الواقع خلف بيت ابيه. لم يكن ديكتاتورا ولم يسىء استغلال سلطته. غير انه لم يكن يخفي حقيقة انه يملك زمام المباراة واللاعبين ، فهو الحكم اذا ساورنا شك فيما اذا كان احد الصبية قد تلكأ او استنفذ طاقته. واذا ما رفض لاعب ان ينصاع لحكمه، كان يطرده من الملعب . ولم يكن امام المخطىء الا ان يطيع ، والا فلن يدعى الى المباراة في الأسبوع التالي. بدأت صداقتنا عصر ذلك اليوم، واستمرت اثنين وستين عاما حتى وفاته في ١٩٦٤. وقد ظل طوال تلك السنين مالكا لزمام الأمور بيده. وكنت انا سعيدا راضيا تحت قيادته.

كان ابي يميل الى الاقلال من قدر نفسه ازاء «سيمون». ولكن مباراة الكريكيت هذه

كانت بداية لصداقة امتدت عمرا بكامله، صداقة لم تغيم عليها سحب العبوس او الكلمات الغاضبة، لافي حياتهما الخاصة ولا في العملية . وهي الصداقة التي سلم بها الاثنان في الطفولة والشباب والرجولة. اشترك الاثنان في مقعد دراسي واحد، وكانا يقضيان عطلتهما معا ويذهبان الى المسرح والسينما معا. واقتسم الاثنان مكتبا واحدا لفترة ، وتزوج كل منهما شقيقة الآخر. في صباهما كانا يقرآن نفس الكتب. وفي شبابهما ، حين كان ابي في بريطانيا و«سيمون» في القارة الأوروبية كانا يتبادلان الرسائل على طريقة «جوته» و «شيلر» ، واحيانا ما كانا يظهران توارد خواطرهما على البعد. لكنهما كانا على الرغم من ذلك شخصين مختلفين اشد الاختلاف. ولعل هذا كان من اسباب انسجامهما. ولاشك ان تكامل شخصيتهما قد عاد بالخير على «ماركس أند سبنسر».

طوال ايام الدراسة ، كان «ازرائيل» و «سيمون» يفترضان جدلا انهما سيضطلعان في المستقبل بتجارة اسرتيهما. وفي حين ان «سيمون» قد فعل ذلك بعد بضعة اعوام في الخارج فان ابي التحق بجامعة مانشستر تحت اصرار ابيه، حيث درس الاقتصاد التجاري. وسرعان ما لحقت به «بيكي» اذ كانا لايفترقان . وبعد ان اكمل الجامعة التحق ابي بتجارة جدي الرائجة، حيث كان جدي في ذلك الوقت يصدر النفايات عالية الجودة الى عدة بلدان اوربية والى الولايات المتحدة . وقد ارسل ابنه الى شتى مناطق المملكة المتحدة كما كان يبعثه الى اوربا اربع او خمس مرات في العام. وقد تعلم ابي الكثير عن الأقمشة بكل اشكالها ومواصفاتها، مثلما تعلم التجارة في اوربا. وقد كان لهذه المعرفة فائدتها الكبيرة لـ «ماركس اند سبنسر» فيما بعد.

حين التحق ابي بالجامعة، كان سيمون قد عاش في فرنسا والمانيا منذ اكثر من عامين ونصف. وكان والداه، لشغفه الشديد به، محتارا بين رغبته في ان يتعلم اقصى ما يستطيع في الخارج، وبين حاجته الى وجوده معه في البيت. وهكذا طلب اليه الرجوع في عام ١٩٠٧، وربما ان قراره هذا كان استجابة بشعور مسبق بدنو اجله. على اية حال فان «مايك» توفى في نهاية تلك السنة. وفي السابعة عشرة من عمره صار «سيمون» ربا لأسرة قوامها امه الارمل واربع اخوات.

وفي تلك الفترة نشب صراع على «ماركس اند سبنسر» كاد ان يحيلها الى «ستيل اند تشابمان». وادى ذلك الى انضمام ابي الى مجلس الادارة، ليبدأ ارتباطه المهني الطويل مع «سيمون». كان «توم سبنسر»، وهو اكبر سنا من «مايكل ماركس» قد تقاعد. وحل محله صديق لآل «سبنسر» يدعى «وليام تشابمان» ، كان يعمل في صناعة المناديل. وبوفاة «مايكل»، اصبح «تشابمان» المدير الأوحد.

وبعد اسبوعين تم تعيين صديق «مايكل ماركس» ومنفذ وصيته «برنارد ستيل» في

مجلس الادارة. وحققت الشركة تقدما ملحوظا. وبعد بضعة اعوام اقترح «تشابمان» و«ستيل» زيادة راس المال من ٣٠,٠٠٠ الى ٧٠,٠٠٠ جنيه. وكان ذلك بمقياس العصر مبلغا هائلا يستطيع تشابمان وستيل المخاطرة به ، في حين تعجز عائلتا ماركس اند سبنسر عن تحمله. وقاوم آل «ماركس»، اصحاب غالبية الأسهم هذه المحاولة من جانب تشابمان وستيل للسيطرة على الشركة. وحماية لمصالح «ماركس» مارست الاسرة ضغطا حتى نجحت في انتخاب مديرين آخرين لعضوية المجلس، وهما «سيمون» و«توماس» نجل «توم سبنسر» . وفي ١٩١٢ استقال «ستيل» بعد خلاف مع «تشابمان»، وتوفي في العام التالي.

ورفض «تشـابمـان» الذي اصبـح رئيسا للمجلس ان ينتخب خليفة له. وهكذا اصبحت «ماركس أند سبنسر» في واقع الأمر «ويليام تشابمان». ومرت خمس سنوات مثقلة بالمشاكل، اشتد فيها التوتر بين عائلتي «ماركس» و«تشابمان». وكان «سيمون» واسرته ينظران الى «ماركس اند سبنسر» على انها نمط حياة مثلما كانت تفعل اسرتي. في حين ان «تشـابمان» كان مستعدا لبيعها بمجرد ان يتلقى عرضا جيدا. وكان من الطبيعي ان يحدث صراع ، اذ كان «تشابمان» مصرا على ابعاد آل «ماركس». وقد بنى موقفه على احد البنود الواردة في عقد الشركة الذي كان ينص على انه اذا اراد اي شخص ان ينتخب مديرا جديدا ضد رغبات زملائه، فيجب ان يحصل على تأييد ٧٥ في المائة على الأقل من أصوات المساهمين. ولهذا حاول «سيمون» استرداد ما يكفي من الاسهم لتحقيق هذه النسبة. وحدد «تشابمان» ثمنا باهظا للأسهم. فما كان من مسز «ماركس» وبعض الأقارب الا ان جمعوا مدخراتهم. وأسهم جدي «سيف»، ووضع ابي ، الذي كان متزوجا من «بيكي»، كل مدخراته، واقترض فوقها ٢٥٠٠ جنيه من البنك مخفيا الأمر عن أبيه الذي كان ذلك الأمر سيثير قلقه. وتم تسوية المسألة في عام ١٩١٧، ولكن بعد ان كسبت عائلة «ماركس» دعوى اقامتها في محكمة «تشانسيري» التي قضت باعطاء السيطرة الكاملة لآل «ماركس» . وعين «سيمون» رئيسا لمجلس الادارة. وكانت هذه هي بداية «ماركس اند سبنسر» التي نعرفها اليوم.



الفصل الثاني

ولدت في عام ١٩١٤ في «ديدزبري» التي صارت الآن واحدة من ضواحي «مانشستر الكبرى». وكانت في تلك الأيام قرية ، لايفصلها عن أطراف المدينة الا ميل او اثنان. وكان لهذه القرية بقالها الخاص وقصابها وخبازها، الى جانب بعض الحوانيت الأخرى. وكانت دارنا الواقعة في شارع بلفيلد عبارة عن عقار مستقل مريح داخل بستان خاص . كان مايكل أكبر الأولاد وكنت انا بعده في الترتيب، يليني دانييل ثم جوديت. الواقع ان ذكرياتي عن الطفولة المبكرة ليست بالكثيرة. لكن أولى الذكريات الباقية لي هي حين اصطحبني ابي في نوفمبر ١٩١٧، الى اجتماع في قائمة الحارة الحرة في مانشستر للاحتفال باعلان وعد بلفور، وكنت عندئذ في الرابعة . وكان ابرز الخطباء هو «حاييم وايزمان»، الذي صار بعد سنوات اول رئيس لاسرائيل. اذكر ان ابي قال انها مناسبة تبعث على الفرح. لكنني رأيت اناسا كثيرين يبكون. سألت ابي لماذا يبكون طالما انها مناسبة تبعث على الفرح. وكان رده «انها دموع الفرح». ولم افهم ما كان يقصده حينذاك.

كانت امي وابي وعماي «سيمون ماركس» و«هاري ساكر» (وكان قد تزوج من خالتي ميريام ماركس) يعملون بالفعل مع الدكتور وايزمان. وكان الدكتور وايزمان رجل دولة يتمتع برؤيا ملهمة وعالما بارزا. كان قد اختبر المذابح الروسية وكان يعمل بلا كلل نيابة عن أقرانه اليهود. ترك الدكتور وايزمان روسيا وانتهى به المطاف اخيرا في انجلترا، بعد ان اوشك ان يستقر في المانيا. وكانت زوجته «فيرا» طبيبة وسيدة مجتمعات مصقولة وانيقة. اما هدف وايزمان فكان ارساء دولة يهودية. كان زعيما المعيا غرس في اتباعه الولاء والحب وتلقى منهم دعما هائلا. وكان هو الرجل الذي فاوض وزير الخارجية البريطاني «بلفور» في ١٩١٧ حول «اعلان بلفور»، الذي تكفلت بمقتضاه حكومة صاحب الجلالة بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وكان الراحل «ليو ايمري» واحدا من الشخصيات

الانجليزية الشهيرة الأخرى التي كان لها علاقة باعلان بلفور. وقد أصبح دعم اول وطن لليهود في فلسطين، ومن بعده دعم دولة اسرائيل نفسها، واحدا من الأهداف التي كرست لها حياتي. وسوف اتناول هذا بمزيد من التفصيل فيما بعد، ففي سن الرابعة ، لم تكن لدي ادنى فكرة عن هذا الموضوع...

توفي جدي لأمي قبل مولدي بستة اعوام. وكان رجلا مجتهدا دائما في عمله وكان يفرط في تدخين السيجار. حين كان الناس يسألون كيف مات، كان الرد دائما «داء التوفا». ولكن ما هو «داء التوفا»؟ كانت محلات «ماركس أند سبنسر» في تلك الأيام تحتفظ بمخزون من السيجار يباع الاثنان منه ببنسين، وقد اطلقت عليه تسمية «التوفا». ولما كان هذا السيجار غير رائج، كان جدي يدخنه بشراهة، الأمر الذي اودى بصحته. كانت جدتي لأمي قد ماتت قبل ان ابلغ من العمر ما يسمح لي بتذكرها. لكنني اتذكر جدي لأبي جيداً. كنت على علاقة طيبة جدا بعمي سيمون ماركس وزوجته «ميريام»، التي كانت عمتي ايضا. كانت دارهما تبعد عنا حوالي الميل ، وكنت اعتبرها بيتي الثاني، وان كان في ذلك بعض التطفل بمعيارنا الخاص.

كانت خالتي الأخرى «ميريام»، وهي الأخت الصغرى لأمي، متزوجة من «هاري ساكر»، وكان محاميا وكاتبا كبيرا في «مانشستر جارديان»، واصبح فيما بعد مدير «ماركس اند سبنسر»، ووالد المرحوم «مايكل ساكر» الذي كان نائب رئيس المؤسسة والمدير الاداري لها حتى وقت قريب. .....

كان ابي ديبلوماسيا بالسليقة، وكان مبدؤه دائما «اتنازل في الأمور الصغيرة فربما تكون لك الغلبة في الأمور الهامة» . وكان يفعل ما يقول. كان له اسلوب بارع في امتصاص غضب الآخرين، ليس بالردود اللينة، وانما بالرد الذي تستجيب له طبيعة الشخص الآخر على الفور. كانت تربطني بأخي الأكبر مايكل صداقة طيبة، رغم احساسي في بعض الأحيان بأنه كان يلقى معاملة افضل. تملكني هذا الشعور بقوة يوما ما فقلت لأبي «انت تفضل اخي علي، فكان رده: «بالطبع . انه اكثر منك حاجة الى ذلك». ماذا كان يسعني ان اقول؟ . كانت امي تحمل لأبي الحب والاعجاب في آن واحد. لم يخطر لها في يوم من الأيام ان تتزوج انسانا عداه. روى ابي كيف انها سألته وهما يتمشيان سويا «كيف سنربي الأولاد؟» . كان ذلك في سن الخامسة عشرة، قبل حتى ان يفكر في ان يطلب يدها، ورغم انه هو الآخر لم يفكر قط في الاقتران بسواها. وكان رد ابي «لا يشغلنك الأمر. سنربيهم مثلما ربانا آباءونا.

جميلة، ملؤها النشاط، متقدة الذكاء، مستبدة احيانا وعنيدة بعض الشيء، تلك هي امي. كانت تؤمن ان النساء مساويات للرجال. لم يكن احد يجرؤ ان يقول لها انها

لاتستطيع ان تلقى خطابا او ان تدير مشروعا مثلها مثل اي رجل. فمن يرى ذلك فعليه ان يبرهن لها قبل ان تقبل رأيه. وقد برهنت في حياتها المبكرة على مقدرتها على صياغة الخطب الجيدة وادارة المنظمات بكفاءة. الى جانب نشاطها في خدمة الصهيونية، كان لها دورها الكبير في حركة توسيع حقوق المرأة. وكان الفضل يرجع الى اخلاصها وصراحتها ولباقتها وجاذبيتها في نجاحها في ان تجند لخدمة قضيتها اناسا كانوا لينفرون لو كانت نظرية اكثر منها عملية... رغم بساطة الخلفية الاجتماعية لأسرتنا واســـرة ماركس.

الا انها كانت مريحة. كنا ميسوري الحال. وقد عاشت كلتا الأسرتين في فترة قريبة من حياة الجدين المبكرة لدرجة انعدم معها التفكير في الطبقة الاجتماعية او التطلع الى المكانة الاجتماعيـــة. كان جل همهم ان يستمعوا بالحياة وان يظهروا العرفان وان يقدموا ما يستطيعون لمن هم ادنى حظا. اذكر اننا، ابناء الجيل الثاني، اهتززنا طربا حين اشترى ابي سيارة «ديملر» مستعملة كانت مملوكة لأمير ويلز. كانت سيارة ملفتة للانظار واطول من كل سيارات ديدزبري. كنا ننظر اليها على انها وسيلة نقل بهيجة ومثيرة وليس على انها رمز للمكانة الاجتماعية. كانت بالنسبة لنا اقرب الى الحافلة الخاصة. لم يكن لنا دخل في تلك الايام المبكرة. عندما اصبح لدينا مربية وخادمتان، كان دخل ابي متبايناً. فكنا ننعم باجازة مرفهة في عام، وباخرى متقشفة في التالي....

كان بيتنا يهوديا، وان لم يكن تقليديا باي حال من الأحوال. كنت اعي دائما انني يهودي، غير انني لم المس يوما عداء للسامية لأنني لم اتعرض شخصيا لهذا الأمر في ايام الدراســة بالمـدرســة والجامعة. اعتقد ان المسالة كانت في خلفية عقلي، فقد سمعت في صغري القليل عما حدث في روسيا. لكنني لم اتنبه لعداء السامية حقيقة الا باعتلاء هتلر السلطة في المانيا، ثم حين تبنى سير «اوزوالد موزلي» ورفاقه الفاشيون سياسة معاديه للســاميــة هنــا. كان لنــا اصدقاء يهود وغير يهود. كان اجمالي عدد السكان اليهود في مانشستــر ٣٠,٠٠٠ نسمــة، وهــو عدد صغير بحيث أتاح انصهارهم بسهولة في حياة المدينة، وكبير بحيث حقق الانعدام النسبي للشعور العرقي بفضل احساسهم بالأمان. لم نكن نذهب الى الهيكل اليهودي الا في العطلات الدينية الهامة. غير انني اصبحت شابا صهيونيا نشطا بعد أولى زياراتي الى فلسطين في ١٩٢٩.

كان جدي «سيف» تقليديا معتدلا في تدينه، في حين لم تكن جدتي تقليدية. ورغم تمسكها بالمعايير الأخلاقية السامية، فهي لم تكن متدينة. كانت كثيرا ما تطهو في بيتها من الطعام ما تحرمه حتى اقل البيوت تقليدية. ورغم انعدام هذه النزعة التقليدية من بيتنا، كان والداي يؤديان صلاة «الكيدوش» (التطهر) ليلة السبت. وكانا يترددان على الهيكل في العطلات الهامة، كعيد رأس السنة ويوم الغفران. كما كانا يقيمان قداس «سيدر» العائلي

كل عام للاحتفال باول ليلة في عيد الفصح احياء لذكرى خروج اليهود من مصر. ولازلت انا وزوجتي «ليلى» نراعي هذه التقاليد اليهودية حتى يومنا هذا.

لم تكن عائلة «ماركس» متدينة النزعة هي الأخرى. اما الصهيونية فكانت شيئا آخر بالنسبة لكلتا العائلتين ، وقد ادركت وجودها قبل ان تتكون عندي ولو فكرة قليلة عن الديـانـة اليهودية. وقد نما هذا الادراك بدرجة كبيرة بفضل العلاقة التي ارساها ابي و«سيمون» مع الدكتور «وايزمان» في شبابهما، والدور الذي لعباه في تكوين اعلان «بلفور» وارساء دعائم الوطن اليهودي.

رغم عدم تديني فقد كنت اتردد على الهيكل اكثر من اي فرد في العائلتين. وكان لذلك اسبـابه. كنت في صباي من المشجعين المتحمسين لفريق مانشستر يونيتد لكرة القدم. وكانت مدينة مانشستر تحتل المكانة الثانية في قلبي . وحتى يومنا هذا فانني حين اقرأ صفحة الرياضة في صحف الأحد اتجه بعيني مباشرة نحو اخبار مانشستر يونيتد لأعرف ما حققه في اليوم السابق. لم يكن لدى ابي او خالي «سيمون» من الوقت او الاهتمام ما يسمح لهما باصطحابي الى المباريات بشكل منتظم. لكنني اكتشفت ذات يوم ان عمي «نوح لاسكي» الذي يتردد بانتظام على الهيكل صباح كل سبت ، كان يحضر مباريات مانشستر يونيتد عصر كل سبت. ومن ثم اصبحت زبونا مستديما في الهيكل. كنت اجلس بالقرب من العم «نوح» وارافقه الى المباراة عصرا. وقد لاحظ الكثيرون اهتمامي الشديد والجديد بالدين حتى ان بعض ابناء عمومتي ظنوا انني ربما اصبح حاخاما.

شهد عام ١٩٢٦ تغيرا كبيرا في ظروف عائلتي كان له اثره الكبير في حياتي . فقد اصبح ابي مديرا متفرغا في «ماركس اند سبنسر» وانتقل مع العائلة الى لندن. اما الظروف التي ادت الى ذلك فقد كانت جزء من تاريخ «ماركس اند سبنسر» وتاريخي انا ايضا. كان ابي يقول ان اولى المراحل العظيمة في تاريخ «ماركس اند سبنسر» كان مرحلة خردوات البنس الواحد. وكانت المرحلة الثانية هي ما يمكن ان نسميها فترة الشلنات الخمس . وقد كانت المـرحلة الأولى قبل الحرب العالمية الأولى، اما الثانية فبدأت في العشرينات. كان «مـايكل سبنسر» هو رائد المرحلة الأولى، في حين كان سيمون مبدع الثانية، حين حول سلسلة من محال الخردوات الى شبكة قومية من المحلات. ومع وضع التبسيط المفرط، لأغراض الحديث، في الاعتبار فانني اعتقد ان ابي احسن الايجاز، رغم انه اعزى الفضل كله كالعادة الى «سيمون» واجحف نفسه حقها.

انقضت مرحلة البنس الواحد لأن «ماركس أند سبنسر» لم تستطع خلال الحرب العالمية الأولى ان تقصر معروضاتها على السلع ذات البنس الواحد التي كانت قد شحت، وحتى يتسنى للمؤسسة ان تعرض من السلع ما يكفي لاجتذاب الزبائن، بدأت تعرض

تشكيلة من السلع متنوعة الأسعار. وبعد الحرب كانت محلات «ماركس اند سبنسر» تبيع سلعا بالتجزئة تتراوح اسعارها بين بنس واحد وثلاثة جنيهات. وكانت محلات «وولورث» محتفظة بتشكيلتها التي تتراوح بين ٣ و ٦ بنس، مع توسعها السريع واعتدال حالها كثيرا عن «ماركس اند سبنسر». ووصل «سيمون» الى استنتاج، وهو انه اذا لم تتمكن «ماركس اند سبنسر» من مواجهة هذا التحدي ، فقد يلقى بها خارج السوق. كان «سيمون» يعي قلة خبرته، فهو لم يسبق له العمل في محل او الوقوف خلف نضد ، علاوة على انه لم يتلقى تدريبا على التجارة. ورغم ادراكه لأهمية النطاق السعري وتحويل محال الخردوات الى محلات اكبر واحدث، فقد احس انه في حاجة الى تعلم المزيد.

في ١٩٢٤ سافر «سيمون» الى الولايات المتحدة ، حيث كانت فكرة سلسلة المحلات اكثر تطورا. وقد وصف رحلته فيما بعد بانها «اول درس جاء في فن المحلات السلسلية». وتعلم هناك الكثير عن الادارة المتطورة والرقابة الاحصائية للمستودعات بالنسبة الى المبيعات . وتعلم ان الماكينات الحاسبة الحديثة تستطيع ان تنتج في ساعات نفس المعلومات التي كان جمعها يستغرق «ماركس اند سبنسر» اسابيع بطولها. وكان اهم درس تعلمه على حد قوله هو «المساحة القدمية للنضد»، بمعنى ان كل قدم مربع في النضد يتكلف رواتب وايجارا ومصروفات نثرية ويحقق ربحا. ولذلك ينبغي الا تكون هناك نقاط خافية على النضد فيما يختص بالسلع. وكان هذا يعني دراسة اكثر استفاضة للسلع التي نبيعها وحاجات عملائنا. كما كان يعني اعادة تعليم وتدريب العاملين، او تعيين اناس جدد.

كان ابي يقول ان «سيمون» يتواضع اكثر من اللازم حين يتذكر ما تعلمه في امريكا، وان ما رآه وسمعه في امريكا كان مجرد تأكيد لما كان قد اكتشفه بنفسه. وحتى لو صح ذلك، فان هذه الخبرة عززت ثقة «سيمون» بنفسه والهمته ثلاث سياسات في العمل ، اولها: انه يجب الا يزيد سعر اي سلعة عن خمسة شلنات ، وثانيها: انه يجب ادخال برنامج مكثف لتوسيع محلاتنا وتحسينها، وثالثهما: ان من الأمور الحيوية ان نجري جردا للمستودعات كل اسبوعين حتى يتسنى لنا احكام السيطرة على الانتاج وتدفق السلع من المصانع الى المحلات. كما ان هذه الخبرة عززت ايمانه بان المشروعات يجب ان تدار على اساس اخلاقي. وقد حاولت «ماركس اند سبنسر» دائما ان تعامل موظفيها وعملاءها ومورديها بأسلوب مهذب. وقد تعلم «سيمون» في تلك المرحلة المبكرة ان العديد من العملاء تعنيهم الجودة والقيمة وليس رخص الثمن وحده ، وانه مع تحسن مستوى المعيشة يصبح هذا اساسا للتجارة السليمة المتنامية.

كان نجاح «سيمون» متواضعا في السنتين التاليتين، فقد شرع اولا في تنمية حجم

محلاته. كانت سياسة احلال المتاجر الضخمة على طراز «وولورث» محل خردوات البنس الواحد مكلفة. واكتشف «سيمون» انه لا يستطيع تمويل هذه التطويرات بمفرده، ومن ثم فان لابد من عرض اسهم «ماركس اند سبنسر» في السوق. وقد نجح في تحقيق ذلك عام ١٩٢٦، بدعم من شركة «بوردنس اشورانس»، التي لاتزال على علاقة وثيقة مع «ماركس اند سبنسر» حتى يومنا هذا. ورغم ان بيع الأسهم خفف من مشكلة رأس المال، ظل تقدم «سيمون» يواجه بعض العقبات، وعلى رأسها مقاومة التغيير من جانب زملائه في مجلس الادارة وكبار المدراء لم يكن لدى هؤلاء الأشخاص حماس للتغيير، وكانوا يرون ان آراء «سيمون» حول في العلاقات الانسانية جديرة بالاحترام لكنها غير عملية.

في اوائل العشرينات، كان سيمون قد نقل مقره الرئيسي من مانشستر الى شارع شيزويل في مدينة لندن. واصبح ابي احد مديري الشركة عام ١٩١٧ بعد حل مشكلة الملكية. لكنه كان مشغولا بعض الشيء بادارة تجارته الخاصة. وفي اوائل العشرينات لم يكن ابي يرى «سيمون» الا في الاجتماعات الدورية لمجلس الادارة، وكان يبقى معه ليلة او ليلتين. وفي احدى هذه الزيارات عام ١٩٢٦، لاحظ ان «سيمون» متوتر قليل الكلام. ولما سأله ان كان هناك ما يضيره، رد «سيمون» «كلا .. لاشيء» وظل على سكوته واضطرابه. وقبل انصراف ابي صمم ان يصل الى كنه الموضوع وسأل سيمون عما يضايقه. وافرغ «سيمون» ما في قلبه، فهو لايحصل على اي دعم لأفكاره وخططه للتغيير والتطوير لأن زملاءه لا يستهويهم الأمر. كان سيمون يستخدم لغة غليظة في ثورته، وقد ختم ثورته بقوله: «ليس هناك من أكلمه. انا محاصر بشرذمة من المعتوهين». فقال ابي: اذن فانت تريد شخصا تتكلم معه. وهو كذلك. سأبقى معك ستة اشهر واجلس في الغرفة المجاورة حتى تجد من تكلمه»...

في فترة لاحقة من عام ١٩٢٦، وبالتحديد في اول ايام الاضراب العام، قدم ابي وامي الى لندن. كان «سيمون» قد وضع مكتب ابي في حجرته حتى يجلسا جنبا الى جنب. وظل ابي في لندن بقية عمره، كمدير اداري مشترك ونائب رئيس اولا، ثم كرئيس بعد وفاة «سيمون»

... كان المفروض ان اقضي العام الدراسي التالي في الاعداد لامتحان القبول بالجامعة... وبعد الحاح مني، بقيت مع جدي لأبي عند انتقال الأسرة الى لندن لأعد للامتحان. وكانت سنة سعيدة لأنني كنت مولعا بجدي لأبي من ناحية، ولأنني كنت افعل ما اخترته بنفسي من ناحية اخرى.... مرت السنة بسرعة، وكنت استذكر بجد. كنت اذهب الى لندن في العطلات، رغم ان والداي كانا يحضران لزيارتي في «مانشستر». وزادت ثقتي بنفسي حين اجتزت الامتحان قبل بلوغي اربعة عشر عاما. كان معنى ذلك انني ابليت بلاء حسنا، لأن معظم الطلاب يجتازون هذا الامتحان في سن تزيد عاما او ١٨ شهرا.

كان قرار ابي بالذهاب الى لندن ، لمدة ٦ اشهر في البداية ليقضي وقتا مع «سيمون»، من الأمور التي اشعرتني بأهمية «ماركس اند سبنسر» لكلتا العائلتين. كنت قد بدأت انظر اليها على انها اكثر من مجرد تجارة، واعتقد انني كنت اعتبرها نمط حياة. وكان انتقال ابي من مانشستر ، وانتقال «سيمون» قبله، قد جعلني احس بذلك اكثر. كنت اعرف اننا لانملك محلات في ضخامة متاجر لويس أو «وكيندل ميلن»، واعرف اننا كنا صغارا بالقياس الى «وولورث». لكنني كنت اسمع «سيمون» وابي يتحدثان عن تجارتهما وما تعنيه وماذا يعتزمان ان يفعلا بشأنها. كانا يناقشان الدور الذي يجب ان تلعبه في المجتمع، واحسسني ذلك ان هذه التجارة بها شيء خاص لاشأن له بالحجم ، وانها تعني شيئا اكثر من مجرد الربح.

كنت منبهرا بسيمون، رائد هذه التجارة . كان مفعما بالنشاط، قوي الملاحظة ، ذا خيال واسع ويمارس النقد الذاتي. وكان طيبا معي في صغري، فكان يصطحبني في جولات داخل المحل حين يأتي الى مانشستر، ويكلمني وكأنني شخص ناضج. في الحادية عشرة ذهبت معه الى محلنا في شارع اولدهام . وراقبته وهو يتلفت حوله ويلتقط السلع المعروضة ليفحصها ويبدي الملاحظات . لمحت ذلك اليوم زوجا من ابر التريكو ليس له عقدة في طرفه، فحملته اليه وسألته: «يا خالي، كيف يمكن ان تشتغل بابرتين طرفهما غير سليم»، وكان رده: «عظيم. ها قد تعلمت درسا. هذه بضاعة رديئة كان يجب الا يسمحوا بخروجها من المصنع. كان يجب الا يسلموها الينا، وكان يجب الا نقبلها او نعرضها. يجب ان تكون معروضاتنا كلها عالية الجودة. الجودة يا ماركوس هي اهم شيء».

بانتقال اسرتي الى لندن واجتيازي لامتحان القبول بالجامعة، انتهت ايام طفولتي الحافلة بالأحداث. وبعيد الانتقال الى لندن ابتاع ابي بيتا في «غابة سان جونز» على ناصية «مارلبور وبليس» و «شارع لودون». وكان يستضيف هناك عددا من الأشخاص الذين لهم صلة بالحركة الصهيونية. كان بينهم الدكتور وايزمان، و«سيليج برودتسكي» ، وكان استاذا مشهورا للرياضيات في ليدز، وصار لاحقا رئيس الجامعة العبرية في اورشليم، و«ناحوم سوكولو» الذي كان رئيسا للمجلس التنفيذي الصهيوني من ١٩٢١ وحتى ١٩٣١. وقد عرفت هؤلاء الأشخاص تمام المعرفة وتعلمت منهم الكثير عن الصهيونية.

وقع لي واحد من الأحداث الرئيسية في فترة المراهقة في بيتنا في «غابة سان جونز». في طرف البيت حين كنت انام واختي جوديت، كان هناك بناء من طابقين يشبه البرج. كنت انام في الطابق الأول، وجوديت في الثاني. وكان هناك سلم يصل هذا البرج بالجزء الرئيسي من البيت. كنت مصابا بالأنفلونزا ، وصحوت في الثالثة صباحا على احساس باحتقان شديد في حلقي، كان ذلك في يوم ٢٨ فبراير ١٩٢٩، وكانت من ابرد الليالي التي عرفتها

اوربا. بدا لي ان الانفلونزا قد اشتدت حين وجدت انني اتنفس بصعوبة. حاولت ان ادير مفتاح النور وحين لم يضيء النور حسبت ان القابس قد احترق. لكنني لمحت وهجا عند عقب الباب. ولما فتحته رأيت ألسنة النيران ودخانا كثيفا يندفع صاعدا الى غرفتي. هممت بالاسراع الى الطرف الرئيسي من البيت، لكنني سمعت اختي جوديت ابنة الثمانية اعوام تبكي في غرفتها العلوية. وصعدت اليها حتى احضرها. ولكن ما ان وصلنا الى السلم حتى اصبح الدخان كثيفا لدرجة لاتسمح بمرورنا. وهكذا رجعنا الى غرفة جوديت وفتحنا النوافذ حتى نستغيث. في البداية منعني من الصراخ فكرة ساذجة صورت لي ان هذا تصرف غير لائق . ولكن لما علت السنة اللهيب في الطابق الاول غيرت رأيي وصرخت بأعلى صوت. ولم اجد استجابة. كانت هناك قضبان حديدية خارج نافذة جوديت تحميها من السقوط من النافذة. وقررت ان اربط بعض الملاءات واعقدها في القضبان لأدني «جوديت» ثم اتسلق نازلا. وحطمت زجاج النافذة كله وبدأت اربط الملاءات في بعضها البعض.

قد يبدو هذا امرا سهلا، لكنني فوجئت انه بالغ الصعوبة. وداومت على الصراخ خلال ذلك. كانت المرأة القاطنة في البيت المجاور عائدة لتوها من ملهى ليلي مع زوجها. ولما سمعت صوت الزجاج يتحطم في الفناء قالت لزوجها: «يبدو ان شخصا ما يلقي بالزجاجات. اذهب وتبين الأمر. لكن الزوج رد قائلا: لن اخرج في هذه الساعة من الليل. سوف نأوى الى الفراش. ثم سمعت زوجته صوت «جوديت» تبكي وسمعت صياحي فأساءت فهم الموضوع. وقالت: «هناك رجل يضرب طفلا. لابد ان تتصرف». حدث كل ذلك في «سان جونز» في الثالثة صباحا، ولم يستجب لصراخي الا ذلك الرجل . ومن حسن الطالع ان الشرطة ورجال الاطفاء جاءوا في اثره واخرجونا بسلام. كان ابي وامي في الدار طوال هذا الوقت، لكنهما كانا نائمين في الجانب الاخر، ولم يسمعا شيئا حتى جاءت سيارات الاطفاء. واتت النيران على محتويات البرج واحترق جزء كبير من باقي البيت.

في اليوم التالي، وفي غياب الأحداث الأهم، نشرت جريدة المساء تحقيقا موجزا عن الحريق تحت عنوان مبالغ فيه اسعدني كثيرا ، «بطل حريق سان جونز وود مجرد غلام». وسرعان ما كافأتني «جمعية الحياة من الحرائق: بشهادة «تقدير سلوكي المتميز لانقاذ حياة انسان من الحريق في ٢٨ فبراير ١٩٢٩».

وبقدر ما كان هذا مبالغا فيه بقدر ما أسعدني. وقد علمني هذا الوصف لسلوكي ليلة الحريق ان الناس يصفون الأشياء بالطريقة التي تناسبهم مهما فعلت. فلم اكن قد فعلت ما يوصف بالبطولة. كل ما فعلت انني صرخت مستنجدا.

لا أعرف حتى اليوم ان كنت سأستطيع ليلتها ان ادلي جوديت بالملاءات دون ان اقتلها ام لا ، ناهيك عن نزولي انا سالما.

علمتني ليلة الحريق شيئا آخر ، وهو ان الأحداث الطيبة لاتؤدي بالضرورة الى احداث طيبة مثلها. فقد قرر والداي ان يكافآني على جهودي الانقاذية ويعوضاني عن نزلة البرد التي اصابتني من جراء وقوفي في البرد القارس بالبيجاما، بان يرسلاني الى اجازة في فلسطين، وكانت تلك اول زيارة لي لفلسطين. كانت خالتي ميريام وزوجها «هاري ساكر» يقيمان في اورشليم في ذلك الوقت. واثناء وجودي هناك مع مجموعة صغيرة اقرضنا السيد «نوفومايسكي»، الرجل الذي اسس وطور شركة البحر الميت للأشغال، زورقا بخاريا جديدا. قضينا الليلة في فندق عند الطرف الشمالي للبحر الميت، في مكان اسمه «كاليا». وكان المقرر ان نقضي النهار التالي في رحلة في البحر، الذي لم يكن فيه احد سوانا تقريبا، لنعود في المساء. كان عددنا ٣١ شخصا: ثلاثة يشكلون الطاقم وعشرة ركاب ، بما فينا «حداسة» و«ادوين صمـويل»، ابن «روبرت صمويل» وزير الداخلية في حكومة «لويد جورج» واول مندوب سامي في فلسطين تحت الانتداب. كان معنا ايضا «ماكس نوروك»، الذي اصبح واحدا من سفراء اسرائيل فيما بعد، و «لويس جرين» كبير مهندسي حكومة الانتداب، و «إلزي جراف» التي كانت في عمري وكان اخوها طبيب العائلة في لندن، الى جانب «هاري وميريام ساكر».

بدأنا الرحلة من الساحل الشرقي للبحر الميت جهة الأردن ، وتوقفنا لتناول الغداء عند منبع نهر «عرنون» في منتصف الطريق الى الساحل. ولما كنا بصدد العبور من الساحل الشرقي الى الغـربي، اصـطدم الزورق بصخرة. ولم نجد اي مؤشر على حدوث اضرار جسيمة، ولذلك استأنفنا رحلة عبور البحر الذي كان عرضه حوالي عشرة اميال. بعد بضعة اميال سمعنا صوتا مكتوما اسفل الزورق.

لم يستطع الطاقم المكون من بحار عربي ويهوديين ان يتبين السبب، لكنهم اكدوا لنا الا داعي للقلق. وبدأ الصوت يتزايد تدريجيا حتى وصلنا الى منتصف البحر الميت. وفجأة انخلعت عدة ألواح من قاع الزورق واندفعت المياه لأعلى وامتلأ الزورق بالماء الذي اغرق غرفة المحركات الصغيرة.

أدى اصطدامنا بالصخرة الى ثني عامود الدفع الذي ظل يتحرك الى الأمام والخلف تحت الهيكل. وفي كل دورة للعامود كانت الثنية التي به ترتطم بألواح الهيكل حتى دفعتها لأعلى وتدفق الماء الى الزورق. وبدأنا نغرق. كنت اعتقد ان شدة ملوحة البحر الميت تحول دون غرق اي شيء. لكنني كنت مخطئا. لم نستطع في البداية ان نستدل على مكان الثقب، لكن ادوين صمـويل كان سباحا ماهرا، فغطس تحت القارب ووجد الثقب. واستخدمنا ثيابنا ومناشفنا وكل ما وقعت ايدينا عليه في سد الثقب. وانتاب الكثير منا حزن مسعور ونحن نحاول منع الماء عن تجاوز منسوب معين داخل القارب. وكنا في هذه الأثناء نجدف

بأربعة مجاديف في اتجاه الشاطىء الغربي . كانت رحلة مؤلمة وبطيئة. لكننا بلغنا الشاطىء في الثامنة من تلك الليلة.

كان السؤال عند ذاك هو كيف نتصرف. فبعد تلك التجربة المخيفة في البحر، كنا نريد ان نعود عن طريق البر. واستقر رأينا على ان «هيبرو» هي افضل وجهة نقصدها، وكانت تقع على بعد ثلاثين ميلا عبر بعض الجبال. لكن النساء الثلاث: «ميريام ساكر» و«حداسة صمويل» و«إلزاي جراف» كن قد فقدن احذيتهن وكان من المستحيل ان يبلغن «هيبرو» سيرا على الأقدام. وكان لابد ان نشحذ أذهاننا ثانية. كانت هناك رياح جنوبية في ذلك الوقت، ورأى البحار العربي انه يمكن ان نعود الى «كاليا» خلال ست ساعات بمساعدة شراع الطوارىء الذي يمكن ان يصنعه. وبدأنا الرحلة في الفجر. وبعد دقائق توقفت الرياح وظللنا نجدف طوال يوم السبت املا في ان نرى قاربا آخر، ولم نر شيئا.

كانت الصخور في معظم الأماكن شديدة الانحدار داخل الماء. لكننا وجدنا مكانا ليلة السبت ونزلنا الى الشط. وللأسف اننا لم ننم لأن الناموس التهمنا التهاما. وعند الفجر سمعنا أزيز طائرة. كان محرك القارب لايزال يحتوي على بعض الوقود، ولكن رغم اننا اشعلنا نارا ذهبت الطائرة في اتجاه أورشليم . وتملكنا القنوت التام. قال شخص ما انها ولابد طائرة تابعة لمرفق اورشليم الجوي الجديد. والواقع ان الطائرة كانت مرسلة فعلا للبحث عنا. ورغم انها رأتنا فهي لم تجد مكانا تهبط فيه . كان خبر تخلفنا عن العودة قد ذاع، وزادت التخمينات حول مصيرنا. ظن البعض اننا غرقنا، واعتقد الآخرون ان العرب قد قتلونا. وكتبت الصحف البريطانية «انهم قد فقدوا الأمل في العثور على مجموعة ضلت طريقها في البحر الميت».

وصلنا اخيرا الى «كاليا» مساء الأحد بمجهودنا الشخصي وبمساعدة ثلاثة مجاديف، لأن مشجب احد المجاديف الأربعة كان قد انكسر . ووجدنا المدينة مزدحمة بالمسئولين والصحفيين والمتفرجين والمقدم سير «تشارلز كوكس» محافظ الأردن. لم نكن قد اكلنا الا ما بقي من غداء الجمعة. وحيث انني كنت ضمن فريق المجدفين، نقص وزني اقل من ٤١ رطلا بقليل. وهكذا فانني تعرضت في الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٢٩ لتجربتين: الحريق وتحطم الزورق. كنا ١٣ شخصا في القارب وكانت الرحلة يوم ١٣ ابريل لكننا نجونا جميعا. ورغم الرقم ١٣، فيمكن ان اقول اننا كنا محظوظين..

حين انتقلت الى لندن عام ١٩٢٧، كنت قد حذوت حذو اخي «مايكل» والتحقت بمدرسة «سان بول» التي لم تكن تختلف كثيرا عن مدرسة «جرامر سكول» في مانشستر..... لم تكن نتيجتي الدراسية جيدة، لكنني ابليت بلاء افضل في اللعبات. الواقع انني لم اجهد نفسي اكاديميا في «سان بول»، وكان قبولي في كلية "كوربوس

كريستي" في كيمبريدج راجعا الى انخفاض تقديراتي اكثر منه الى انجازاتي. فقد اعتراني الملل في السنة الأخيرة ولم أبذل جهدا يذكر. قررت ذات يوم ان استكشف حرم المدرسة، واذا انا اتفقد السطح، وقعت خلال قبة زجاجية لأهوى داخل حجرة بها معلم يلقى درسا على تلامذته. ونظرا لنتيجتي السيئة في ذلك الفصل الدراسي وذلك الحادث، استدعاني مدير المدرسة الذي كنت على علاقة طيبة به حتى تلك اللحظة. علمت انني في مأزق حين ناداني بلقبي بدلا من اسمي الأول. وألمح المدير انني كنت دائما اختلط بكبار الطلبة الذين سيتركون المدرسة في نهاية يوليو. وكان رأيه ان الملل سوف ينتابني وانه من الأفضل ان اتخرج معهم. والواقع انه لم يطردني. شرحت له أنني لاأستطيع ترك المدرسة لأنني استعد لامتحان القبول في كيمبريدج في أواخر الخريف، وان على ان أقرأ بعض الموضوعات الأخرى. وكان رده ان قال: «ماركوس .... ـ علمت عندئذ ان الأمور تحسنت بعض الشيء ـ كيمبريدج لن تفوتك. ما الكلية التي تريد دخولها؟ فأجبته انها «كوربوس كريستي». فقال «سنرى ما بالامكان». «ويل سبنس» مدير كوربوس ، وهو صديقي».

تصادف ان كان «سبنس» صديق «سيدني دارك»، محرر «عصور الكنيسة» المشهور، الذي كان صديقا مقربا ونديما لأبي. ونتيجة للجهود المشتركة لمدير «سان بول» ومحرر «عصور الكنيسة»، وجدت نفسي مقبولا في «كوربوس كريستي» في اكتوبر دون الجلوس في امتحان القبول. كان قبولي بناء على نتيجة امتحان القبول بالجامعة، الى جانب حرص مدير «سان بول» في التخلص مني على حد ظني.

اثناء دراستي «كيمبريدج: تابعت باهتمام كبير انشطة الجمعية الجديدة المسماة (التخطيط الاقتصادي والسياسي) التي ساعد ابي في تأسيسها في ١٩٣١، والتي تشكل اليوم جزء من معهد دراسات السياسة. بدافع الاهتمام الشديد بمستوى البطالة الذي وصل حدا لاسابقة له، اجتمع عدد من مشاهير الرجال من كل الأحزاب والتوجهات السياسية ومن كل دروب الحياة سويا لتنظيم ودعم مؤسسة مستقلة، تجمع المعلومات في المجالات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية، وتقترح الحلول لتصنعها في متناول صناع السياسة في الحكومة، وذلك من خلال تقارير وعمليات مسح تحت اشراف الجمعية. وكانت الفكرة الرئيسية هي محاولة التأثير على رجال السياسة، على أساس غير سياسي، لتوجيه نشاطهم نحو التنمية الصناعية من اجل غايات اجتماعية. وكان من أعضاء هذه الجمعية رجال مثل «هارولد مكميلان».

... كان من أفضل ما حدث لي في «كيمبريدج» ان قابلت «فيكتور روتشيلد» اللورد روتشيلد حاليا، الذي صار صديق عمر واصبح عميد تلك الأسرة الرائعة..

بعد نهاية الفصل الدراسي الأول من عامي الثاني في «كيمبريدج» انتابني مرض

غامض جعلني حالة مثيرة للاهتمام طوال عدة اشهر... كانت بداية المرض غامضة مثل نهايته. فبعد عيد الميلاد في عام ١٩٣٢، كنت استضيف بعض الأصدقاء على الغداء في «كوك دور» في لندن، حين بدأت احس بالم مبرح في اذني. ولما اشتد الألم اضطررت الى استئذان ضيوفي، وعدت مترنحا الى بيتنا في «ريجنتس بارك». لم استطع العثور على طبيب الأسرة، وكان والداي في فلسطين، واخي مايكل مسافرا في رحلة عمل. لم أكن اريد ان ازعج «سيمون». لكن الألم اشتد فاضطررت الى الاتصال به في المكتب. اخبرني «سيمون» ان خالتي ميريام حضرت لتوها الى المكتب وسألني ان كنت استطيع ان اذهب الى هناك حتى تعتني بي. واتصلت خالتي بالدكتور «دوجلاس هارمر» احد الجراحين الرواد في ذلك الوقت، الذي ادخلني المستشفى في ظرف ساعة واجرى لي جراحة في طبلة الأذن. خففت الجراحة من آلام اذني كثيرا، لكن الألم بدأ يزداد في مفاصلي. واندهش «هارمر» لذلك وقرر استدعاء احد الأطباء العامين البارزين، وكان يدعى «جون رايل». لم تكن مشكلتي تقتصر في ذلك الوقت على آلام المفاصل وانما تورمها ايضا. وسألني «رايل» ان كنت امارس الرياضة فأجبت انني امارس الاسكواش والسلة وركوب الدراجات. وقال «رايل» اعتقد ان هذا رد فعل طبيعي لاضطرارك الى ملازمة الفراش. واظن ان التورم سيزول بسرعة. لكنه لم يزل، وظللت اتألم وبدأت أعرق. كان ذلك قبل أيام المضادات الحيوية.

وتم استدعاء «اللورد هوردر» ودكتور «جو»، كبير أطباء «بارت» وكانا يزورانني معا في احيان كثيرة. كان احدهما يعتقد بوجوب فتح نوافذ غرفة المريض والآخر يعتقد في اغلاقها. وهكذا فكان احدهما يفحصني في حين يفتح الآخر النوافذ. وحين يأتي دور زميله، كان الاخر يقفل النوافذ. واستمرت الالآم في كل جزء من جسمي. كان والداي في ذلك الوقت في طريق العودة بحرا من مصر وفلسطين. وذهب «مايكل» لاستقبالهما في مرسيليا لاطلاعهما على ما كان يحدث...

كان قد تقرر في ذلك الحين انه طالما ان مرضي الغامض بدأ في الأذن، فلابد ان الطريق الى شفائي مقدرا، يبدأ في الأذن. وكان هناك طبيبان مشهوران عالميا متخصصان في الأنف والأذن والحنجرة، احدهما يدعى «نيومان» ويقيم في فيينا، والاخر الذي نسيت اسمه يعيش في برلين. وكان الأخير متخصصا في علاج امراض الأذن، ومن بينها جراحة في الوريد الوداجي. وقرر شخص ما ان صاحب جراحة الوريد الوداجي هو الأحق بالحالة. ولكن قبل ان يغادر الطبيب برلين بيوم واحد، اكتشف الأطباء البريطانيون وجود جلطة في الوريد الرئوي الذي يصب في تأمور القلب. وافترض الأطباء انني في حكم الميت، بل ان احدهم اخبر والدي انني قد مت فعلا، وحاول منع طبيب برلين من اللحاق بالقطار ليبدأ رحلة لاطائل منها. لكن الطبيب كان قد رحل بالفعل. أذكر انني كنت راقدا في شبه غيبوبة

اسمع من حولي جدالا وتبادلا للرأي بين خمسة اطباء بريطانيين بارزين وطبيبين المانيين. الغريب ان البريطانيين كانوا يجهلون الألمانية والألمانيان يجهلان الانجليزية...

وقرر الأطباء ان يلقوا نظرة اخرى، ولشدة دهشتهم وجدوا ان الجلطة تذوب، وانها لم تعبر وريد التأمور الى القلب. واجمعت آراء الأطباء الانجليز على معارضة اجراء جراحة في العظم الخشائي للاذن. وتبين فيما بعد ان عظمي الخشائي على احسن ما يرام، وانه ربما كان الجزء الوحيد السليم في جسمي.

بعد عودة الطبيب الألماني الى برلين، قرر لورد هوردر انني في حاجة الى عمليتي بذل بالعلقات وكاسات هواء. ولازلت اذكر العلقات الخمس او الست التي وضعوها في دائرة حول قلبي، والتي ظلت تمتص الدمـاء حتى تشبعت وسقطت. وقد حذرني الأطباء من محاولة ازالتها لأن اسنانها ستظل تترك آثارها في صدري.

لا أدري ان كان اي من هذه الأساليب العلاجية قد أدى الغرض. لكنني احسست ببـداية التحسن مع ذوبان الجلطة. ورجوت ابوي ، ان كانا يريدان لي ان اعيش، ان يخـرجـاني من المصحة. كانت وفاة اخي «دانييل» المؤسفة قد حدثت لتوها في بيتنا في «ريجنتس بارك» . وكان ابواي قد اخفيا عني الأمر، ولم يرغبا في عودتي الى «ريجنتس بارك». فقلت لهما: لنذهب الى فندق «كلاريدج»... بعد ستة اسابيع في كلاريدج، وبعد اصابتي بداء الجنب لفترة قصيرة، تمكنت من السير قليلا. واخيرا، وبعد سبعة اشهر من لحظة دخولي المستشفى ، غادرت فندق «كلاريدج» وبدأت فترة النقاهة...

في احد الايام، وانا لا ازال متألما، قرأت في جريدة التايمز سطرين عن وفاة اخي «دانييل» منتحرا. وفي اول زيارة لوالدي سألتهما عن الخبر فقالا انه مات فجأة وانهما اخفيـا الأمـر عني بسبب حالتي. امضيت اربعة اشهر قبل ان اتعود غياب «دانييل» واستأنف حياتي العادية. وبحلول هذا الوقت، كنت قد امتصصت صدمة الفاجعة. ثم حدثني ابي عما حدث وهو يغلبه الحزن. لكنه اعفاني معظم التفاصيل، على اعتبار انني انا نفسي كنت على شفا الموت. وبسبب حزني وصدمتي لوفاة «دانييل» الى جانب حالتي الصحيـة، لم ألح في معـرفة التفاصيل ، ولم اشأ ان اتطفل على ابوي في حزنهما حين استعدت حياتي الطبيعية. ولا أحد يعرف حقيقة ما حدث حتى يومنا هذا. لكنني اكتشفت بعد سنوات ان الطبيب الشرعي شخص الوفاة بانها انتحار اثناء الفقدان المؤقت للقوى العقلية.

بعـد وفـاة «دانييل» بفترة قصيرة، بحث ابواي مع الدكتور وايزمان فكرة تخليد ذكراه. واقترح وايزمان انشاء معهد للبحوث العلمية في فلسطين حيث سيعيش عدد كبير من اليهـود، وحيث المـوارد الطبيعية قليلة. ورأى وايزمان ان هذا هو التخليد المناسب

لذكرى دانييل. وهكذا ولد معهد دانييل سيف للأبحاث على أطراف الصحراء في «رحوفوت» في فلسطين. وتحول هذا المعهد فيما بعد الى معهد وايزمان العلمي الشهير.

اجتهدت في الدراسة في العام النهائي في كيمبريدج، مقلصا مواد عامين تقريبا في عام واحد، وتمكنت من الحصول على تقدير جيد. وفي ذلك الوقت اشتركت في اول جدل عربي /يهودي مع صباح السعيد، زميلي بالدراسة وابن نوري باشا السعيد، رئيس الوزراء العراقي الذي اغتيل فيما بعد .كنا صديقين، وكنا نقود فرقا للنقاش حول صحة او خطأ الهجرة اليهودية الى فلسطين. وكان كلانا يحصل على تقدير متساو عند اخذ اصوات في نهاية المناقشة. وصار صباح طيارا، واعتقد انه قتل خلال حرب فيما بين العرب.

بعد اجتياز الامتحان النهائي، كان علي ان اقضي فصلا دراسيا في القسم الداخلي في «كيمبريدج» حتى احصل على البكالوريوس. الواقع ان اقامتي بالقسم الداخلي، كانت اسمية، لكنني نجحت اخيرا بفضل أذون الغياب....

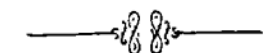
بعد ان دمر حريق ١٩٢٩ الجزء الأكبر من بيتنا في «سان جونز وود»، انتقلنا الى «ريجنتس بارك» كما قلت. لكن بعد وفاة «دانييل»، رغب أبواي عن الاقامة هناك، فانتقلنا مرة ثانية لنقيم في «بروك هاوس» في «بارك لين»... وكان دارنا في «بروك هاوس» مسرحا للعديد من الحفلات التي أقامها والداي للشخصيات العامة في حقل الموسيقى والأدب والصهيونية والتجارة والصناعة، وخاصة اولئك المهتمين بجمعية التخطيط الاقتصادي والسياسي...

كانت تربط اسرتي صداقة بـ «ايرين رافنيزديل»، الابنة الكبرى «للورد كيرزون»، والتي كانت شقيقتها «سينثيا» زوجة «السير أوزوالد موزلي». سألت «ايرين» ابي ذات مرة ان كان يرغب في التحدث مع زوج شقيقتها. وفي الاجتماع اخبر «موزلي» ابي ان حزبه الجديد (الذي اصبح فيما بعد الاتحاد الفاشيستي البريطاني) سوف يصبح الحزب الرئيسي عاجلا ، وانه سيستولي على الحكومة ليصبح «موزلي» نفسه رئيسا للوزراء. وسأل «موزلي» ابي ان كانت يمكن لجمعية التخطيط الاقتصادي ان تكون مجموعة استشارية للحزب الجديد. ورد ابي بالرفض، قائلا ان نتائج بحوثها ومطبوعاتها ومشورتها متاحة لكل الأحزاب. فقال موزلي لأبي «انت ترتكب خطأ كبيرا. ثم سأله موزلي ان كان من الممكن ان يقابله ببعض كبار رجال الأعمال الذين يشكلون المجموعة الاقتصادية في الجمعية التي يرأسها ابي. وفعلا دعا ابي عددا منهم الى العشاء مع زوجاتهم. وكما هي العادة، انفصل الرجال عن النساء بعد العشاء ، وطلب ابي الى «موزلي» ان يحدث ضيوفه عن الحزب الجديد. وتحدث موزلي حديثا شيقا لمدة عشرين دقيقة، شرع بعدها في وصف ما ينبغي ان يفعله الحزب حتى يعتلي السلطة. قال موزلي: «لابد من الاستفادة من العاطفة العامة. واي

حزب سياسي يتعجل اعتلاء السلطة ينبغي ان يضمن برنامجه السياسي قضية مكروهة واليهود هم افضل قضية مكرومة هذه الأيام.» كان ذلك بعيد بدء «هتلر» في تنفيذ سياسته المناهضة للسامية. وكانت تلك اول مرة يعبر فيها «موزلي» عن مشاعره المضادة للسامية، الأمر الذي كان له رد فعل الصاعقة على المجموعة. وأضاف موزلي «هذا الأمر لاينطبق بالطبع على اليهود من أمثالك يا ازرائيل».

اذكر ان ابي رن الجرس وقال لكبير السقاة: «سير أوزوالد سيهم بالانصراف. وقال موزلي: لكنني لم اكمل كأس البراندي».

فكان رد ابي: سير أوزوالد سينصرف يا تشارلز «وطرده خارج البيت ولم ير وجهه ثانية. وظل موزلي يؤكد حتى وفاته انه لم يكن مطلقا من أعداء السامية.



الفصل الثالث

كان هدف سيمـون الرئيسي عند عودته من الولايات المتحدة انشاء متاجر اكبر وأفضل. وحتى يدبر رأس المال اللازم لذلك اضطر، كما قلت، الى فتح المؤسسة للجمهور وواجهته اثناء ذلك رياح عكسية شديدة، حتى قررت شركة «برودنشال آشورنس» ان تدعمه. رغم افتتاح اول متجر كبير في «دارلنجتون». ولم تكن واجهة المتجر اعرض من «برووير ستريت» في سوهو، لكن طوله كان يزيد ١٠٠ قدم على متجر سوهو. وكان ثاني المتاجر الجديدة في «بلاكبول» بواجهة عرضها ٦٠ قدما، الأمر الذي جعله نموذجا للمتجر الكبير بمعنى الكلمة. واصبح في الامكان في ذلك الحين ان تعرض المؤسسة تشكيلة اكبر من المعروضات. كانت هذه هي الأيام التي كان مديرو «وولورث» ومنفذوها يقومون فيها بزيـارات عرضيـة لمتـاجـرنا لإبداء النقد من موقع التفوق. كانوا يلتقطون المعروضات ويضعونها قائلين انها بضاعة رديئة. كاونوا يقولون ان الحروف الأولى من اسم متاجرنا ترمز الى «الطين والرمال».

كانت التغيـيرات التي ادخلت من باب التجـربـة في أواخر العشرينات قد أثبتت صوابهـا. وكـان اول تغيير هو ادخال قائمة الجرد، التي ساعدت على مراقبة المبيعات بصـورة أفضـل، فبدلا من انتظار تقارير نصف فصلية عن السلع الرائجة والكاسدة، استطاع سيمون بفضل قوائم الجرد ان يطلب تقريرا كل أسبوعين. واصبح في الامكان عمـل طلبيـات سريعة على السلع الرائجة، وتخفيض مشتريات الكاسدة للتخلص منها تدريجيا. وتسارعت دورة رأس المال وارتفعت الأرباح. وقد أدت سياسة سيمون في وضع الحد الأقصى لسعر السلعة عند خمسة شلنات الى استبعاد السلع المختلطة الكثيرة التي كان يشكو منها دائما. وأصبحت الثياب تشكل الجزء الرئيسي من تجارتنا، اذ بلغ حجمها ثلاثة أضعاف اي سلعة اخرى. وقد أدى ذلك الى تغيير انطباع الجمهور عن «ماركس أند سبنسر». وقد عكس نمو المؤسسة تلك الزيادة في الطلب على الملابس، وخاصة النسـائية

منها . فقد تضاءل عدد النساء اللاتي يصنعن ثيابهن بأنفسهن ، وأصبحن يتطلعن الى تشكيلات الملابس الخفيفة. وانطبق هذا الأمر على الرجال ايضا ولكن بصورة أقل.

كان هناك تطور آخر مهم في تلك الفترة. كان عالم المنسوجات قد بدأ يشهد ادخال خامات جديدة وتقنيات جديدة لتناولها. وصمم سيمون، تحت تأثير الدكتور وايزمان الذي كان كيميائيا صناعيا بارعا، على الاستفادة من هذه الخامات والتقنيات في متاجر «ماركس أند سبنسر». وعلى حد قول ابي، بدأنا ننظر الى انفسنا على اننا نوع من المعامل والتقنية. كنا نحس ان من واجبنا ان نزود موردينا بالمعلومات التقنية الصائبة حول المواد والتقنيات الجديدة التي يتيحها تقدم التكنولوجيا. كنا ننظر الى انفسنا على اننا مهندسون انتاج، وكيميائيون صناعيون، واخصائيون معمليون الى حد ما.

اتفق سيمون وابي ان «ماركس اند سبنسر» ينبغي الا تقف عند حد توفير المعلومات وحسب، وانما يجب ان نحاول اقناع المنتجين باستخدام تلك المعلومات في صنع سلع ذات مواصفات تتفق واحتياجاتنا. وبدأنا نمارس نفوذا نشطا لتحسين نوعيات السلع التي تنتج من اجلنا، وخاصة في مجال المنسوجات والملابس. لم يكن هناك وسطاء او تجار جملة بين «ماركس اند سبنسر» والمنتجين. وكان ذلك يعد ثورة في المعاملات في ذلك الحين، ادت الى تحسين كل من النوعية والسعر. واستمتعت «ماركس اند سبنسر» بفوائد المعروض المستقر من السلع التي يدرك اصحابها انها ستباع باسعار منخفضة نسبيا بسبب حجم الطلب. واستفاد المنتجون من الطلبيات الضخمة المضمونة على السلع المصنعة بناء على معلومات متخصصة ، لم تكن لتتوافر لهم بالطرق الأخرى . وكانت هذه هي الثورة الحقيقية، وهي اقناع المنتج بتصنيع جزء من السلع التي ينتجها، ان لم تكن كلها، ليس من اجل سوق الجملة وانما خصيصا من اجلنا. كانت هذه العلاقة التعاونية بين «ماركس اند سبنسر» والمنتجين المتعاملين معها وموردي المواد الخام من اهم الاسهامات نحو تقدمنا ومقدرتنا على ارضاء العميل. ولاتزال هذه العلاقة قوية وهامة.

كان سيمون يفضل زيارة المتاجر على زيارة المنتجين. وهكذا اصبحت زيارة المنتجين من وظائف ابي الرئيسية. بعد تفرغه الكامل للعمل بالمؤسسة اصبح ابي يكثر من سفراته لاقناع المنتجين بالتعامل الوثيق معنا. كان بعضهم يتمنع بسبب انخراطه في جمعيات بائعي المنسوجات بالجملة، او بسبب الصداقات التي تربطه بأعضاء هذه الجمعيات. وكان بعضهم يتخذ موقفا عدائيا لأسباب اخرى. كان البعض منهم لايحبذ فكرة ان ينصحهم شخص دخيل حول ما يجب ان ينتجوه، ناهيك عن كيفية انتاجه. وكان البعض الآخر يحس انه من الضعة ان يتعامل بصورة وثيقة مع سلسلة من المحال التي كانت تعرف حتى وقت قريب بـ خردوات البنس الواحد.

من الحوادث الهامة في تطوير تجارة الملابس عندنا تلك التي وقعت في عام ١٩٢٦،

حين قام ابي بزيارة مصانع «كوراه» في «ليسستر»، التي كانت تعمل في مجال المنسوجات منذ اكثر من مائة عام . التقى ابي برئيس المؤسسة «جاك» و «ريجي كوراه»، الذين طرداه بأدب، قائلين انهما لايتعاملان مع متاجر من نوع «ماركس اند سبنسر»، وانما مع تجار الجملة. وفي زيارته الثانية، طلب ابي الى سائق التاكسي ان يترك محرك سيارته دائرا لأنه كان يتوقع ان يطردوه ثانية. وهذا ما حدث بالفعل، فقد طرداه بأدب مرة ثانية. ورافقه الى الباب «سيسيل كلومان» الذي كان مسئولا عن الانتاج. واثناء مروره في قسم جوارب الرجال، لاحظ ابي ان عدة ماكينات معطلة عن العمل، فقال «لسيسيل» «ان لديك ماكينات معطلة، ويمكنني ان اعرض عليك طلبية بخمسمائة دزينة من الجوارب ذات ألوان ثلاثة كل اسبوع».

وأجاب سيسيل: «هل انت جاد فيما تقوله؟» فرد ابي بالايجاب. ورد «سيسيل»: «سوف اتعامل معك على مسئوليتي الخاصة. هلا تقدمت بطلبية الآن؟» وتقدم ابي بالطلبية، وحين عاد الى لندن قال «لسيمون»: اعتقد اننا حققنا قفزة هائلة.

كانت صفقات «ماركس اند سبنسر» مع «كوراه» تتم تحت رقم شفري.

وبعد بضعة اشهر تسلم احد عملائهم في «تونبريدج ويلز» بطريق الخطأ سلعا كانت مباعة الى «ماركس اند سبنسر». وشكا العميل الى مديري المؤسسة . فاستدعيا «سيسيل» ليعرفا منه القصة. واعترف «سيسيل» انه كان يتعامل سرا مع «ماركس اند سبنسر» منذ اشهر عدة، دون ان يطلع الرئيس والمدير الاداري. وطرد «سيسيل» من العمل. ولكن «جاك» و«ريجي» راجعا حجم التعامل الذي تم مع متجر «ماركس اند سبنسر» خلال الشهور القليلة وقارناه ازاء معاملات العملاء الآخرين الذين يبتاعون سلع «كوراه» التي تحمل العلامة التجارية «سان مارجريت». واكتشف الاثنان ان حجم التعامل مع «ماركس اند سبنسر» يساوي حجم تعاملهم مع كل عملائهم الآخرين مجتمعين. واعيد تعيين «سيسيل كولمان» بالمؤسسة واصبح فيما بعد المدير الاداري لـ «كوراه»، ثم رئيس الجهاز الحكومي للرقابة على الملابس اثناء الحرب العالمية الثانية.

وحتى بعد هذا حاول «كوراه» لفترة ان يخفي تعامله مع «ماركس اند سبنسر»... كان التعامل مع «كوراه» يشكل طفرة حقا. وقد وصل حجم تعاملنا معهم الى ٥٦ مليون جنيه في عام ١٩٨٥. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، حذت عدة مؤسسات مشهورة حذو «كوراه» وبدأت تتعامل مباشرة مع «ماركس اند سبنسر».

كانت منتجات «كوراه» تباع تحت الاسم التجاري «سان مارجريت». وفي الثلاثينات بدأت فكرة اختيار علاقة تجارية لمعروضات «ماركس اند سبنسر» . وتقرر وضع اسم «سان مايكل» على المعروضات، تخليدا لجدي «مايكل ماركس» الذي انشأ المؤسسة.

وكانت كل السلع التي تنتج لحساب «ماركس اند سبنسر» تصنع حسب مواصفات يتم الاتفاق عليها بين المؤسسة والمنتجين ، وظلت تحمل اسم «سان مايكل». وقد أفاد الطرفان من تبادل المعلومات والمواصفات المتفق عليها والتطويرات، الى جانب تنامي التجارة نفسها. وعادة ما تكون «ماركس اند سبنسر» اكبر عميل لمورديها. فنحن نتعامل مع ١٢٥ موردا منذ اكثر من ٢٥ عاما، ومع واحد وأربعين موردا منذ اكثر من ٤٠ سنة. اما معاملتنا مع «ديوهيرست» فهي مستمرة بلا توقف منذ اكثر من قرن. وهذه الشركات هي العمود الفقري لتجارتنا الى جانب الصداقة التي تربطنا. كان هناك تجديد آخر في علاقتنا بالموردين. ويرجع الفضل في ذلك الى «سيمون» الذي اعطى مثلا نموذجيا على سرعته وجرأته في تصور الامكانات والتحكم فيها واستغلالها. في اوائل الثلاثينات، كان «سيمون» يعيش في ميدان «جرورزفينور» في لندن. وكان من عادته ان يتريض في حديقة الميدان. وكثيرا ما كان يلتقي برجل آخر يعيش في نفس المنطقة . وتبين ان هذا الشخص هو «هنري دريفوس» مؤسس الشركة التي أصبحت فيما بعد تسمى «بريتيش سيلانيز». كان الفضول يتملك سيمون حول تجارة الآخرين، خاصة عندما تكون متصلة بتجارته هو ولو من بعيد ولما نضجت العلاقة بينهما، بدأ «سيمون» يطرح اسئلة عديدة على «دريفوس». كان المسئولون في «ماركس اند سبنسر» في ذلك الوقت يعرفون الكثير عن البضائع التي يشترونها والخامات المستخدمة فيها. وخطر لـ «سيمون» ان «بريتيش سيلانيز» بمقدورها ان تصنع خامات حسب مواصفات تتفق مع متطلبات «ماركس اند سبنسر». وأثار هذا الأمر مع «دريفوس» الذي أبدى اهتمامه على الفور. وتولد عن هذه الأحاديث العابرة تطوير الحرير الصناعي المعروف باسم «ريون»، والذي اطلق عليه اسم (في ٣٠) (V30) ووكانت هذه الخامة ترسل من المصنع مباشرة الى منتجينا ليصنعوا منها الملابس الداخلية النسائية تحت اسم «سان مايكل». كان سيمون كما قلت أسيرا لفكرة الجودة وكان يصعب ارضاؤه. كان يرى ان معروضاتنا مهما تكن ممتازة، فهناك شيء افضل يجري تطويره في مكان ما، ولابد ان تبحث عنه المؤسسة. وتلا «في ٣٠» خامات اخرى كان يفترض انها افضل . دخلت مكتبه ذات يوم فوجدته ممسكا بالخامات الأربع بين أصابعه يقلب فيها. وكان «سيمون» يتمتع بشفافية للجودة، وكان صائب الحكم على ملمس الخامة ونسيجها . لكنه لم يستطع هذه المرة ان يلمس الفرق بين الخامات الأربع. وقال «سيمون» «السؤال هو كيف نعرف ان هذه افضل من تلك؟ الحقيقة اننا لانعرف ، ولكننا سنعرف حتما».

وكانت هذه هي اللحظة التي ولد فيها قسم تطوير البضائع، الذي وضع بعد فترة وجيزة تحت اشراف عالم صناعي موهوب من ألمانيا يدعى «إريك كان». لم يكن «إريك» معروفا في بريطانيا في ذلك الحين، ولكنه اصبح فيما بعد عضوا في مجلس إدارة «ماركس

انـد سبنسر»، وشخصيـة مشهورة في عالم المنسوجات البريطانية. وقد توفي «إريك» في ١٩٨٣، وكتبت جريدة التايمز تأبينا رائعا عددت فيه انجازاته.

كان من نتـائج تطوير «سيمون» لهذه الفكرة ان أصبحت «ماركس اند سبنسر» تعرض لعملائها بضائع ذات خامة وقيمة افضل. كما انها حفزت المنتجين على تطوير درجة انتفاعهم من التقدم التكنولوجي والخامات الجديدة. وأدت الجهود المتصلة لرفع مستوى الخامات والزيادة المترتبة في المبيعات الى تحسين أكبر في الخامة والقيمة. التحقت بالعمل بصورة رسمية في عام ١٩٣٥، بعد احتفال «ماركس اند سبنسر» بيوبيلها الذهبي. وكان أول تعيين لي في متجر «هامرسميث» في «برودواي». قال لي «سيمون» يومها: ستبدأ من القـاع. وهذا ما حدث بالفعل . عينني «فرانك روس»، احد الأعضاء المخضرمين بقسم المستخدمين، بأجر اسبوعي قدره ٢,١٠ جنيه، وكان هذا الأجر يقل بنسبة ١٠٪ عن ادنى اجر يتقاضاه العاملون تحت التدريب. وأعتقد انه فعل ذلك حتى يعوض عن حقيقة انني كنت اذهب الى المتجر كل صباح في سيارة «باكارد رودستر»، كانت الأولى من نوعها في المملكة المتحدة.

كان متجر «هامر سميث» متوسط الحجم، يعرض نوعية واسعة من البضائع. وكان يستخدم حوالي خمسين شخصا، اربعون منهم من النساء. اما الرجال فكانوا يتألفون من المدير ونائبه ومساعد وثلاثة او اربعة مسئولين عن المخزن. حين التحقت بالعمل في ١٩٣٥ كان معظم الآباء لايعتبرون «ماركس اند سبنسر» من مراكز العمل الجذابة لابنائهم، على عكس «هارودز» و «سيلفريدجز» و«جون لويس»، وبقية المتاجر الضخمة الاخرى. والواقع ان البيع بالتجزئة بصفة عامة كان موضع احتقار، باعتباره عملا من الدرجة الرابعة، مع بعض الاستثناءات القليلة.

حتى في أيام جدي المبكرة، كان موظفونا يلقون معاملة حسنة بمقياس العصر، وان كانت محدودة بالامكانات المتاحة. حين التحقت بمتجر «هامر سميث» كانت الامتيازات تتضمن غرفة مناسبة للطعام ووجبات جيدة الطهي تقدم للعاملين بأثمان مخفضة. عملت في متجر «هامر سميث» لمدة تقرب من العام . كنت أبدأ في الثامنة والربع صباحا حتى موعد الاقفال في السابعة مساء، فيما عدا أيام الجمعة والسبت حين كان العمل يمتد حتى الثامنة. وكان الأحد يوم عطلة، الى جانب ان كل موظف كان يحصل على نصف يوم إجازة كل أسبوع. قضيت الأسابيع الستة الأولى في غرفة المخزن بالطابق الأرضي ، حيث كنت استلم طرود السلع وافتحها لفحصها ومقارنتها بأذون التسليم. ثم كانت السلع توضع في مكانها المخصص في المخزن لتوزع على الأقسام بناء على طلب موظفي المبيعات. وكانت عندئذ تحمل على السلالم ، حيث لم يكن هناك مصاعد في ذلك الوقت.

تأسست تأسيسا جيدا في التجارة في «هامر سميث»، حيث تعلمت ان أهم شخص هو العميل. كنت أعمل وأخدم بصفة عامة مع أناس محدودي الدخل، وأقضي يومي مع شخصيات من مختلف البيئات، الأمر الذي فتح عيني على الكثير. لكن الواضح اننا جميعا، او جميعنا تقريبا، نملك القدرة على حسن المعاملة وتقدير النصح والمساعدة، ونحترم حسن الأخلاق بصفة عامة. كان من الأمور المشجعة ان تعلمت من خلال التجربة المباشرة ان فلسفة ابي عن أهمية العلاقات الانسانية الطيبة في العمل لها وقع، الى جانب نجاحها فعليا. ولا تزال هذه الفلسفة بعيدة عن الانتشار الكلي في كثير من المؤسسات التجارية...

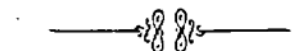
تعلمت الكثير خلال العامين الذين قضيتهما بالمتاجر. وانتقلت في عام ١٩٣٧ الى المكتب الرئيسي،حيث توليت الأقسام التي كانت في سبيلها الى الاختفاء، مثل قسم الاسطوانات ومساحيق التجميل. كانت أقسام الأطعمة قد بدأت تحقق تقدما، وكان جل همي أن أطورها. في اوائل الثلاثينات،كنا نبيع موادا غذائية قليلة، كقوالب الحلوى والبسكويت المكسور .كان بسكويت «كيت كات» من أنواع البسكويت المكسور التي نبيع منها كميات ضخمة. كنت قد نميت صداقة مع «جورج هاريس» الذي كان رئيسا مرموقا وكبيرا للمنفذين في «راونتري» التي كانت تصنع «كيت كات». وفي احدى زياراتي للمصنع، واثناء تفقدي لعملية الانتاج التي كانت آلية في معظمها، قلت لـ «هاريس» «أنا مندهش لتوافر كميات البسكويت المكسور الذي توره لنا». وقال «هاريس»: «الواقع انه ليس متوافرا لهذه الدرجة». واخذني الى مكان ما، حيث رأيت لدهشتي ان العاملين يكسرون البسكويت السليم. وقال «هاريس»: «هذا مخصص لكم. لأن طلبكم على البسكويت المكسور يفوق انتاجنا. ووجدنا انه من الأربح ان نبيع لك مباشرة دون اللجوء الى مندوبي البيع».

كان أحدث تطوير تم عند التحاقي بالمجموعة الغذائية هو انشاء قسم الفواكه، وخاصة البرتقال والجريب فروت. كانت الموالح رائجة ، وقد شجعنا على ترويجها انها مستوردة من «يافا» في فلسطين. كنا روادا في بيع الجريب فروت الذي لم يكن معروفا في بريطانيا الى حد ما. في البداية كان العملاء يحسبون الجريب فروت نوعا من البرتقال، فكانوا يحاولون تقشيره. واضطرنا ذلك الى وضع ورقة مع كل عبوة تبين افضل طريقة لاستخدامه . وبعد فترة ركزت نشاطي على قسم الفواكه. لم تكن لنا في ذلك الوقت نفس الاتصالات المباشرة التي نتمتع بها الآن مع مزارعي الفواكه. وكنا نشتري طلباتنا من السوق في «كوفنت جاردن».

اجتهدت في عملي طوال تلك الفترة. لكن وقتي لم يقتصر على العمل وحده. كنت قد

قابلت «روزالي فرومسون» في عام ١٩٣٥ . وكانت «روزالي» من مواليد بريطانيا، لكن والديها هاجرا الى الولايات المتحدة وهي بعد طفلة رضيعة. واحتفظت «روزالي» بجنسيتها البريطانية. كانت فتاة جذابة للغاية ومحبوبة ولها سحر خاص. وقررت «روزالي» ان تحترف الرقص، آخذة عملها بجدية تامة. وبمجرد بلوغها الحادية والعشرين جاءت من نيويورك الى لندن لتقديم عرض في فندق «دورشستر» استمر عدة اشهر. خرجنا سويا عدة مرات اثناء وجودها في لندن. ولابد انني شاهدت الاستعراض الذي اشتركت فيه عشرين مرة. والواقع ان والدي شغفا بها جدا. وفي النهاية كنا نذهب سوياً الى كل مكان، لكنني لم اكن راغباً في الزواج في ذلك الوقت. وهكذا، عادت «روزالي» الى نيويورك بعد انتهاء العرض.

أثناء هذه الفترة صادقت «ميري براون» التي كانت من نجوم السينما الصامتة، وكانت تلعب دور البطولة في استعراض في لندن. وقالت لي ذات يوم «لماذا لا تقم بزيارة هوليوود؟» ووعدتها انني سأفعل قائلا: «سأكون في هوليوود بعد عام من اليوم، بشرط ان توافقي على ان تخرجي معي». وقالت: «اذا كنت موجودة هناك اثناء وجودك، فيمكنك ان تدعوني الى الخروج». الواقع انني كنت قد حجزت فعلا في أول رحلة على «كوين ماري»، التي كانت مقررة بعد ٥٠ اسبوعا. وهكذا فقد كنت اعرف انني سأكون في الولايات المتحدة بعد عام. أبحرت «كوين ماري» في ٢٧ مايو ١٩٣٦، وكانت الرحلة التي استغرقت خمسة أيام ممتعة للغاية. كنت أخرج مع «روزالي» كثيرا في نيويورك، قبل ذهابي للاقامة مع «جولز» و«دوريس ستين»، اللذين كانا من أصدقاء العائلة القدامى. ..... بعد عودتي من هوليوود أحسست بوحشة تجاه «روزالي» . وهكذا قررنا ان نتزوج. وأقمنا حفل زفاف يهوديا تقليديا، أعقبته وليمة غذاء وحفل رائع في فندق «سافوي». وكان «فريدي بريسون» هو اشبيني. قضينا شهر عسل رائعا في جنوب فرنسا، وكانت حياتنا ممتعة.



الفصل الرابع

بعد تخرجي من كيمبريدج. كنت كغيري من الشباب قد بدأت انمي فكرا سياسيا وكنت مستـاء من حكومة العصر التي شكلها المحافظون برئاسة «نيفيل شامبرلين». لم أنضم الى اي حزب سياسي، لكن اظن ان ميولي كانت منحرفة قليلا عن المركز جهة اليسار بسبب قلقي ازاء اعداد العاطلين الذين اقتربوا من ثلاثة ملايين. كان ابي و«سيمون» يتحدثان كثيرا عن البطالة ويفعلان مابوسعهما لمساعدة العاطلين...

بحلول عام ١٩٣٨، كان حجم البطالة الذي تضخم في بداية الثلاثينات قد تضاءل. وكان ذلك يرجع الى حد كبير الى برامج إعادة التسليح وسياسة حكومة شامبرلين الرامية الى بدء مشروعـات التنميـة الصنـاعية في المناطق التي أصابها الركود. لكن السياسة الخـارجية للحكومة كانت موضع نقد، لأنها سمحت بانهيار قوانا الدفاعية وتباطأت في إعادة بنائها. وكان هناك استياء عام ازاء موقف الحكومة من «هتلر» و«موسوليني»، والذي كان يوصف بأنه استرضاء للعدو على حساب المبادىء. لم نكن نحن اليهود على دراية تامة بسمـات نظام «هتلر» واهـدافه. لكننا كنا اكثر دراية من معظم الناس، بسبب صلاتنا بالاخـوة اليهود في اوربا، وبالمهاجرين اليهود الذين كانوا يرحلون عن ألمانيا ليقيموا في انجلترا والولايات المتحدة وفلسطين. كان الكثيرون من اصحاب النفوذ في البلاد لا يعـرفـون.

ومعسكـرات التصفيـة التي كانت تقـام بالفعل. والواقع ان بعض الشخصيات الهامة استغلت نفوذها لكبح انتشار مثل هذه المعلومات. كانوا يعتقدون ان ألمانيا لقيت معاملة سيئـة بعد الحرب العالمية الأولى. وربما انهم كانوا يرون ألمانيا على انها حصن اوربا الغربية المسيحية الرأسمالية في مواجهة عداوات الشيوعية الملحدة.

لم يؤمن البعض باحتمالات نشوب حرب اخرى بهذه السرعة بعد الحرب العالمية

الأولى. لكن البعض الآخر كان يؤمن باندلاع الحرب. التحقت مثل الآلاف غيري بالجيش الاقليمي في عام ١٩٣٨ واخترت الفوج المحلي للمهندسين الملكيين وكان السبب الرئيسي لذلك انه كان يلائمني من الناحية الجغرافية ويسمح لي بالاستمرار في عملي في «ماركس أند سبنسر». وكانت مهمتنا في حالة الحرب هي تشغيل الأضواء الكاشفة لمساعدة المدفعية المضادة للطائرات، الى جانب استخدام مدافع «لويس» ضد المظليين والطائرات الهجومية المنخفضة . كنا نتلقى تدريبا مرة في الأسبوع في قاعة قريبة من البرلمان. وذهبت الى المعسكر الاقليمي السنوي. وكان لدينا القليل من الأضواء الكاشفة ومدافع «لويس». كان قد مضى على تطوعي ما يقرب من العام حين بدا ان الحرب سوف تنشب لأن المانيا طالبت باعادة تشيكوسلوفاكيا لمنطقة «سودتنلاند». وطار «شامبرلين» الى ميونيخ لمقابلة «هتلر»، وعاد يلوح بالورقة الشهيرة التي وقعها كلاهما، والتي كانت تضمن «السلام في عصرنا» على حد ادعائه. كنت قد استدعيت قبل ذلك ببضعة ايام، وقضيت الوقت مع بقية افراد سريتي في حفر الخنادق في «هايدبارك». وعدت الى البيت في تلك الليلة شاعرا بالراحة ، وآملا في ان تصدق توقعات «شامبرلين».

كان «يان ماساريك»، ابن «توماس مساريك» مؤسس تشيكوسلوفاكيا واول رئيس لها، سفيرا لبلاده في لندن. وكان صديقا حميما لأبي. كان مدعوا على العشاء في دارنا تلك الليلة، ووصل متأخرا تعلو وجهه سحابة من القلق والغضب. ولما سألناه عما هنالك قال: انه ذلك المدعو «جو كيندي». كان «كيندي» سفيرا للولايات المتحدة في لندن، وكان معروفا بتقديره النسبي لـ «هتلر» وعدم رضائه عن قدرة بريطانيا على حماية نفسها. كان كل من «كيندي» و«مساريك» حاضرين في مجلس العموم للاستماع الى تقرير «شامبرلين» عن زيارة «السلام» المزعومة.

قال «مساريك» حين استمعت الى «شامبرلين» تأكدت ان وجود بلادي خطر ولم احتمل. ولذلك تركت مبنى البرلمان، وفكرت ان امشي الى هنا حتى تهدأ ثائرتي. وفي «بارك لين» توقفت سيارة بجانبي اطل منها «جو كنيدي» وقال «الا ترى انها اخبار عظيمة؟ لقد قام «شامبرلين» بمهمة عظيمة، أليس كذلك؟ هل اوصلك؟». واستطرد «يان» يقول: وثارت ثائرتي وقلت له: يالك من وغد. اهذا هو رأيك في الأخبار؟ ان ما سمعته هو اجراس موت بلادي، واسرعت مبتعدا عنه.

كنت احسب «يان» مبالغا، لكنه كان على حق. بحلول الربيع كان «هتلر» قد احتل تشيكوسلوفاكيا، واصبحت المسألة هي اين يتجه بعدها. ... ولد ابننا «ديفيد» في مارس ١٩٣٩. وفي يوليو ، قبل التحاقي بمعسكر بالجيش الاقليمي، كنت قد ذهبت و «روزالي» لقضاء عطلة في «كان» جنوب فرنسا. وعند عودتنا في اغسطس، اتجهت مباشرة الى المعسكر

السنوي. واثناء وجودي هناك اندلعت الحرب. وانقسم الفوج الى أربع سرايا، انقسمت كل سرية الى اربع حظائر . وكانت كل حظيرة مسئولة عن ٦مواقع للمصابيح الكاشفة ومدافع لويس ، وكان يقودها ملازم ثان. كنت قد رقيت الى ملازم ثان في ابريل ١٩٣٩، واصبحت مسؤول حظيرة.

كانت المنطقة الكلية التي يغطيها الفوج تمتد عدة اميال مربعة، وكانت تشكل جزءا من الدفاع الجوي لهندون، الذي كان من مطارات لندن الرئيسية في ذلك الحين. وكان الفوج ينتشر شمالا حتى «كولني هاتسن» التي اشتهرت في ذلك العصر بمصحها العقلي.

في الشهور التسعة السابقة على دنكيرك، وهي الفترة المعروفة باسم «الحرب الوهمية»، لم يكن هناك شيء نفعله سوى حفر الخنادق وتمضية بقية الوقت في صقل احذيتنا وتلميع اسلحتنا والكشف عليها. لكننا تلقينا بعض التدريب. كنا نتوقع هجوما من رجال المظلات، فكنا نجري تدريبات وهمية لمواجهتها... في اكتوبر ١٩٤٠ عينت معاونا للفوج، وهي مهمة لم أكن اهلا لها. واضطررت الى الانتقال الى مقر قيادة الفوج ورقيت الى رتبة نقيب. اعتقد ان قائدي المقدم «ويلسون» كان يحب النبيذ الذي كان يرسله ابي، والذي كنت احتفظ به في مقري في الحظيرة، ويبدو انه توقع ان آخذه معي الى مقري في الفوج. والواقع ان وظيفة المعاون إدارية الى حد كبير، وتتطلب معرفة لابأس بها بالمسائل العسكرية، وخاصة القانون العسكري. وكنت لاأعرف من تلك الأشياء الا القليل، ومن ثم لم تكن علاقتي بالقائد على مايرام. لم أكن أحبه أو احب وظيفتي وهو الآخر لم يكن يحبني. لم اكن اعرف الى متى كان يستطيع احتمالي، لكن هذه المسألة لم توضع محل اختبار. تلقينا الأوامر بالذهاب عبر البحار للانضمام الى قافلتنا في ديسمبر ١٩٤٠. وابحرنا صوب الشرق الأوسط على متن البارجة «تامارو» تحت قيادة الأدميرال «راين» قائد القافلة . وكان رجلا فاتنا وبحارا بارعا، وكانت علاقتي معه طيبة. عينت معاونا للبارجة، وكانت مهمتي هي الاتصال بقبطان «تامارو» حول الأمور المتعلقة بالقوات الموجودة على متن البارجة. استغرقت رحلتنا الى الشرق الأوسط سبعة اسابيع، حيث اضطررنا للدوران حول رأس الرجاء الصالح، لأن قوى المحور كانت قد اغلقت البحر المتوسط في وجهنا. كانت القافلة تتألف من عشرين سفينة لنقل الجنود والبضائع . وكان يحرسها الطراد «اجاكس» وحاملة طائرات ومدمرتان.

قبل ذهابي الى الشرق الأوسط كانت اسرتي قد تعرضت لهجوم شخص من اللورد الخائن «هاوهاو» الذي كان يذيع احاديثه من ألمانيا. وقد اعلن اللورد ان عائلتي سوف تلقى جزاءها المناسب حين تنجح ألمانيا في غزو بريطانيا. وقد يتساءل القارىء لماذا توضع عائلة مغمورة نسبيا مثل «سيف» ضمن نفس الفئة التي تشمل القادة البريطانيين

العظماء من أمثال «تشرشل»، والذين هددهم النازي بالشنق. ربما ان السبب كان نقد عائلتي العلني والصريح للنظام النازي ، وحقيقة الأمر ان «ماركس اند سبنسر» التي كانت تشتري البضائع من المانيا قبل تولي النازيين للسلطة قد أحجمت عن ذلك واعلنته على الملأ. وربما يكون العامل الأهم هو زيارة والدتي لألمانيا كممثلة للمنظمة الصهيونية النسائية في ١٩٣٦. فبعد موافقة السلطات الألمانية، قامت أمي بزيارة عدد من المجموعات الصهيونية النسائية التي كانت لاتزال موجودة في عدة مدن ألمانية، لبحث كيفية اخراج الأطفال اليهود من ألمانيا. وقد اكتشف بعد مغادرتها للمدن ان عددا من الأشخاص الذين قابلتهم قد تم اعتقالهم. كانت امي تتمتع بشجاعة معنوية وجسمانية لا بأس بها. ومن ثم ألغت بقية رحلتها واتجهت الى برلين ، حيث سعت الى مقابلة «جوبلز». ولكنها في الواقع قابلت نائبه، وصارحته برأيها في الألمان وسلوكهم. كانت امي تتحدث الألمانية بطلاقة. ثم غادرت ألمانيا. وفي الأسبوع التالي نشرت المجلة النازية الرئيسية «دير شتورمر» صورة كاريكاتيرية بشعة ضخمة لأمي، التي كانت في الواقع امرأة بالغة الوسامة. وهكذا، فحين تلقيت الأوامر بالسفر عبر البحار، رتبت لرحيل زوجتي «روزالي» وابني «ديفيد»، الذي كان عمره يقترب من العامين، الى الولايات المتحدة حيث كانت تعيش عائلة «روزالي».

كان أبرز ما في رحلتنا البحرية هو الهجوم الذي شنته علينا البارجة الألمانية «ادميرال هيبر» عالية التسليح في يوم عيد الميلاد من عام ١٩٤٠. كانت البارجة قد تمكنت من دخول الأطلنطي في الأيام المبكرة من ذلك الشهر، وبدأت تغير على سفن الشحن البريطانية المتجهة الى «سيراليون». فاجأتنا البارجة على حين غرة. وتلقيت التعليمات بإصدار الأوامر للرجال بالهبوط الى أسفل. وسمح لي بالبقاء في كابينة القيادة باعتباري معاون قبطان البارجة. كنا محظوظين، اذ اصابت اول دفعة من قذائف «هيبر» السفن الموجودة على جانبي بارجتنا «تامارو»، في حين اصابت الدفعة الثانية احد الطرادات الحارسة (أجاكس) فدمرت جزءا كبيرا من الذخيرة وقتلت حوالي عشرين ضابطا وجنديا. واستمرت «هيبر» في مهاجمتنا، ولكنها بدلا من الاتجاه نحونا مباشرة، استدارت جهة الميمنة وأبحرت بمحاذاتنا وهي تطلق قذائفها على القافلة وسفن الحراسة.

اوضح لي العميد بحرى «راين» فيما بعد انه لو استمرت «هيبر» في مسارها صوبنا لاخترقت خطوط القافلة وربما نصفها، لأن طرادات الحراسة لم تكن لتستطيع ان تطلق النار وسط قافلة سفننا. ونتيجة لبقائها خارج حدود القافلة تعرضت لهجوم مضاد واضطرت في النهاية الى الابتعاد. كانت القافلة قد تفرقت، لكنها استعادت تشكيلها ثانية في «فريتاون». وبعد ستة أسابيع في البحر قضينا ثلاثة ايام في «دوربان»، حيث اقيم لنا

حفـل رائع اشرفت عليه بعض النساء اللاتي كان معظم ازواجهن قد التحقوا بالجيش ورحلوا الى مكان ما في الشرق الأوسط.

رسـونـا في السويس في فبراير ١٩٤١، حيث تمركزت سريتان على قناة السويس، والثالثة في حيفا والرابعة في طبرق. اما انا فقد بقيت محشورا في مقر الفوج الرئيسي في الصحراء على بعد عشرة أميال من القاهرة، في حين كان القائد يتغيب أياما لتفقد الوحدات. اصبحت مهمتي اشبه بصندوق البريد وتملكني الضجر. وذات يوم جاءتني مكالمة فحواها ان العميد «هيور» من القيادة العامة لمنطقة الشرق الأوسط يريد القائد. وحين ابلغوه بغياب القائد، طلب الاتصال بالمعاون.

وبدون مقدمات، قال العميد الذي كان مسئولا عن التحركات في الشرق الأوسط: لديك ضابط يدعى «سيف». اريد ان أراه في القيادة العامة. هناك مهمة اعتقد انه قادر على ادائها.

فقلت له: «ينبغي ان تحادث قائدي اولا. سوف يعود خلال يومين».

رد العميد: لماذا؟ ألست المعاون؟ فقلت: «اجل يا سيدي. لكنني ايضا الضابط سيف».

قال: انا آمرك باعتبارك المعاون، ان تصدر تعليماتك الى النقيب «سيف» ان يحضر شخصيا لمقابلتي في القيادة العامة في القاهرة صباح الغد.

حين التقينا، اوضح لي العميد ان هناك مهمة في مجال تنظيم التحرك قد تستهويني. وقال ان هذه المهمة تتطلب قدرا كبيرا من المسئولية تجاه تنظيم عمليات النقل في الصحراء الغربية والاتصال مع الوحدات والمرافق الأخرى، ومن بينها الاسطول. والحقيقة انني كنت اريد الافلات من وظيفة المعاون، وقد قدم لي «هيور» عملية تنظيم التحرك بصورة شيقة جعلتني اقبل المهمة.

ثارت ثائرة القائد لدى عودته، واتهمني بانني تخطيته لأحصل على وظيفة في القيادة العامة. وانكرت ذلك قائلا له ان عليه ان يؤكد اتهاماته بمكالمة تليفونية. لكنه لزم الصمت. ولأنه وجه لي الاتهامات امام ضباط آخرين، طلبت اليه ان يسحبها امامهم، ففعل. ولكنني لا استطيع ان اقول اننا افترقنا كصديقين.

اتسمت اقـامتي في القـاهرة بطابع الاثارة الذي تخللته فترات من الضجر. لكن الضجـر كان يخف بفضـل عائلة «شيكـوريـل» اصحاب المحلات الشهيرة في القاهرة، والمجموعة المالكة لسلسلة محلات «أوريكو». كنت قد التقيت بـ «كليمي» في باريس قبل الحرب. فأعطاني الحرية في استخدام شقتهم في القاهرة، وقدمني الى العديد من المصريين الذين توثقت صداقتي بهم وعلموني الكثير عن بلادهم وثقافتهم.

كان بمقـدور الجنـرال «ويفيـل» ان يكسب في حملتـه على شمال افريقيا ويطرد الايـطاليين من افريقيا عام ١٩٤١، لولا انه تلقى تعليمات بتحويل مسار عدد كبير من القـوات والرجـال صوب اليونان، التي غزاها الايطاليون. وانضم الألمان الى الايطاليين الذين كانوا لايحرزون تقدما، فهاجم الاثنان قواتنا وهزموها في اليونان اولا ثم في «كريت». واخرجوا قوات الحلفاء كلها من اليونان وكريت وجزر ايجة، واحكموا قبضتهم على البحر المتـوسط. كان «روميل» في خلال ذلك قد وصل الى شمال افريقيا، واستطاع بمساعدة فرقتين مدرعتين المانيتين ان يدفع القوات البريطانية الضعيفة الى الوراء نحو مصر. ووصل «روميل» الى الحدود المصرية، وضاعت كل مكاسب «ويفيل». والواقع اننا عدنا من حيث بدأنا.

كنت الضابط المناوب في احدى الليالي، حين جاءت اشارة من رئيس الوزراء الى قائد منـطقة الشرق الأوسط بهذا المضمون: ان ابقي بالرجال والاسلحة والعربات في جوف الشرق الأوسـط الذى لا يشبع... يبدو ان كل جندي محارب يقابله عدد مبالغ فيه من الاداريين وراء الخطوط، الرجاء التحري عن الأمر وايضاحه.

بناء على طلب رئيس الوزراء تمّ تشكيل لجنة لتقصي الحقائق من اللواء ابراهام، والعميـد «كيسن» والرائـد «سيف» (كنت قد رقيت الى رتبـة رائد في سبتمبر ١٩٤١). وانخرطت اللجنة في نشاطها، فتوجهنا في زيارات ميدانية للتحري عن الهياكل البيروقراطية التي تراكمت على مدى العام السابق على مساوىء قيادات الألوية والفرق والفيالق والقيادة العـامـة. واستمر عملنا ثلاثة اشهر خرجنا بعدها باستنتاج ان الأعمال المكتبية وراء الخـطوط لالزوم لها. واوصينا باستبعاد قدر كبير من الأعمال الادارية والأنشطة قليلة الصلة بالموقف العسكري. وهكذا توافر عدد كبير من الرجال للقيام باعمال اكثر اهمية، وخاصة في الميدان.

في يونيـو ١٩٤١ قام الجيش التـاسـع البـريطاني حديث النشأة و«الفرنسيون الأحرار» بغزو سوريا ولبنان، ودحروا جيش «فيشي». وكانت هي الحملة التي فقد فيها «موشي ديان» عينه، حين كان يقوم بمهام الاستطلاع للقوات البريطانية. كنت قد تمركزت منذ وقت قليل في القيادة البريطانية في «اورشليم»، لكنني نقلت فيما بعد الى مقر القيادة الذي تأسس في أواخر ١٩٤١ في «برمانة» في لبنان. وكانت قرية جميلة صغيرة على الجبال المطلة على بيروت.

كان «تشرشل» يحاول بكل جهده ان يقنع الأتراك، الذين كانوا محايدين في البداية. بالسماح له بأن يرسل قوات بريطانية وبعض المعدات البريطانية الى تركيا.

كان مما يقلق «تشرشل» ان الألمان قد يغزون تركيا، ومن ثم تتمكن قوات المحورمن

تطويقنا بين الألمان الذين يهاجمون مؤخرتنا من الشمال، والجيوش الألمانية والايطالية التي تهاجمنا في افريقيا من جهة الغرب. لكن الأتراك رفضوا بأدب، قائلين انهم سوف يعتمدون على قوتهم الخاصة. ورأى «تشرشل» انه من غير المحتمل ان ينحاز الأتراك الى جانب الروس، ولكنهم سيقاتلون الألمان حتما لو هاجموهم . وكان يرى ايضا انهم رغم بسالتهم القتالية قد ينهزموا بسبب افتقارهم الى الأسلحة الحديثة. واقترح انه في حالة هجوم الألمان فيجب ان نحتفظ بخط للامداد على البوسفور. وتم ابلاغي انني سوف اكلف بمهام معينة بتحريك الرجال والأسلحة والذخائر التي قد تكون مطلوبة في مثل هذه العملية. وعلمت ان مقري قد يكون في اسطنبول. كان ذلك في اوائل عام ١٩٤٢

كان «روميل» قد هزمنا في شمال افريقيا، واخرج القوات البريطانية من «قورينة» (في شمال شرق ليبيا) ليعيدها الى مصر. لكن «تشرشل» ووزارة الحرب اتخذوا قرارا بتعزيز القوات في الشرق الأوسط. وطوال الصيف كان الشغل الشاغل هو حشد القوات في شمال افريقيا اعدادا لعملية «الصليبي». كان الجنرال «اوكينلك» قد حل محل «ويفيل» في القيادة العامة للشرق الأوسط. وعين «ويفيل» قائدا عاما للهند، وعين الجنرال «كنجهام» قائدا للجيش الثامن. وشن البريطانيون هجوما في نوفمبر حقق بعض التقدم، لكن روميل اوقف هذا التقدم وقرر «اوكينلك» و«كنجهام» ان يستأنفا الهجوم عام ١٩٤٢، ولكن قبل ان يبدءا شن «روميل» هجوما ليردنا الى الحدود المصرية من جديد. وشن «روميل» هجوما آخر ونحن بصدد شن عملية هجومية. وانهزمنا مرة ثانية وانسحبنا ٣٠٠ ميل شرقا نحو العلمين. لكن قوى روميل كانت قد أنهكت في هذا الوقت وقلت امداداته، فلم يستطيع تعقبنا داخل مصر ليلحق بنا الهزيمة النهائية. قبل معركة العلمين بوقت قليل، كنت عضوا في مجموعة تم ارسالها لتقصي امكانية مد طريق من غرب افريقيا الى السودان. يمر عبر افريقيا الوسطى. كان البحر الأبيض المتوسط مغلقا في وجه الحلفاء، وكانت كل تعزيزات الجيش الثامن والشرق الأوسط وذخائرهما تدور حول رأس الرجاء الصالح. كان ذلك يعني المجازفة بالتعرض لهجمات الغواصات، الى جانب طول الرحلة الذي كان يعطل شحنات ضخمة من الامدادات. كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت ترسل عن طريق البحر طائرات مقاتلة مفككة الى قطع. كانت الشحنات تتجه اولا الى «تاكورادي» في غرب افريقيا، حيث يتم تجميعها وتركيبها لتطير عبر افريقيا الوسطى الى السودان. ونظرا لقصر مدى هذه الطائرات، اقيم عدد من المطارات في الأدغال على مسافات منظمة حتى تتزود الطائرات بالوقود من خلال رحلتها عبر افريقيا الوسطى. وفكر «روزفلت» ومستشاروه في انشاء الطريق، بغية افراغ الشحنات وناقلات الجنود في مواني غرب افريقيا، ليسلك الرجال

والذخـائر والامدادات الطريق عبر افريقيا الوسطى الى مسرح عمليات الشرق الأوسط. وكان ذلك كفيلا بتوفير امدادات كثيرة مطلوبة في مناطق اخرى ، فضلا على توفير الوقت. وتقرر ان تقوم مجموعة استطلاع بدراسة هذا المشروع. وتقرر ان يسافر ستة منا تحت قيادة القبطان «وتيني ستريت» على متن طائرة «هدسون» مزودة بخزانات وقود اضافية من ميدان المعركة في مصر الى لاجوس في نيجيريا. كان معنا طيار ممتاز، غير انه لم يطر على هذا الخط من قبل.

وحين صادفتنا رياح مضادة، لم يكن الوقود يكفي للوصول الى لاجوس. وحين اوشك الوقود على النفاذ، حلق الطيار بمحاذاة خط حديدي حتى وفقنا الحظ الى قطعة ارض خلاء في مطار متواضع في «كانو»، على بعد ٦٠٠ ميل من وجهتنا المنشودة. وتزودنا بالوقود وطرنا الى «لاجـوس»، حيث بحثنا مع السلطات المدنية والعسكرية اقتراح انشاء الطريق. ثم سلكنـا الخط الذي تتبعه الطائرات المقاتلة عائدين من غرب افريقيا الى مسرح عمليات الشرق الأوسط.

ووصلنا الى استنتاج ان المشروع لايستحق عناءه بسبب كمية الوقود المطلوبة لنقل الرجال والامداد عبر افريقيا الوسطى الى مسرح الشرق الأوسط، ثم اعادة الشاحنات لنقل المزيد. لا أدري ان كان استنتاجنا في محله ولكن، بعد بضعة اشهر، اعيد البحر المتوسط للملاحة بعد طرد قوات المحور من شمال افريقيا.

كانت منطقة الشرق الأوسط في هذا الوقت تحت قيادة جيش «الكسندر الثامن» بـأمـرة «مـونتجومري». وفي نهاية اكتوبر نجح «مونتجومري» في شن هجوم مضاد على «روميل» وهزمه في معركة العلمين الشهيرة. وكانت تلك هي بداية النهاية. وتم الاتفاق على ان اذهب مع الجيش الثامن لفتح طرابلس في ليبيا حالما نتمكن من الاستيلاء عليه. اخذت معي مجموعة استطلاع قوامها ٢١ شخصا وسلكنا طريقنا خلف القوات المهاجمة، حيث طلب الينا الابتعاد عن المعركة نفسها. انطلقنا بعربة وسيارتا حمولة ١٠٠ رطل . وخلال الحملة التي امتدت لأسابيع تعطلت احدى الشاحنتين، واضطررنا الى حشر انفسنا داخل الأخرى. كنت اكلف بعض الرجال بالحراسة اثناء الليل تحسبا لهجوم او اعادة انتشار مفاجئة. وذات ليلة غفا الحراس، وتبين في الصباح ان ميدان المعركة قد تحرك. ولم نعرف ما اذا كانت قواتنا قد تقدمت ام تراجعت. ولمحنا قافلة صغيرة على بعد ميل او اثنين في الصحراء. لم نكن واثقين ما اذا كانت لنا او للعدو. لكننا قررنا الاقتراب منها بالشاحنة، اذ كان وقـودنـا يشرف على النفـاذ. وتبـين انهـا وحـدة امداد تحمل المؤن الى الفرقة النيوزيلندية. ولدهشتي وسعادتي تبينت انها تحت قيادة ابن خالتي «جابرييل ساكر»،

وكان اول فرد من اسرتي أراه بعدما يقرب من الثلاثة اعوام. واعطانا الوقود فأعطيناه بعض الأرغفة التي كان عمرها ١٥ يوما.

كانت جراية الجيش في الصحراء ضعيفة بصفة عامة، ولم يكن معي اي مما كنت اسميه «رافع المعنويات». كنت قد تعلمت عندئذ ان افضل ما يرفع معنويات الناس بعد يوم عمــل شاق او بعــد ليلة من القصف العنيف هو الويسكي لمن يشربــون وقــوالب الشيكولاته الكادبوري لمن لايشربون.

كنت قد اتفقت مع بعض الأصدقاء في القيادة العامة في القاهرة على ان يرسلوا لي مع كل قافلة امـداد تبحر الى ميناء اكون موجودا فيه صندوقا نصفه مملوء بالويسكي والنصف الآخر بالشيكولاته. على ان يرسل الصندوق على انه امدادات للرائد «سيف». وقـد تكرر ذلك مرات عديدة حتى رفع أحدهم الأمر الى العميد «ريتشاردز» مدير ادارة المعدات في القاهرة. وكان تعليقة الوحيد: «ان سيف هذا حتما امرض رجل يعمل في الخدمة الميدانية بالجيش البريطاني.

بعد عدد من التقلبات، استولى الحلفاء على طرابلس في ٢٣ يناير ١٩٣٤. وتأخرت مجموعة القوات الرئيسية للسرايا المكلفة باصلاح الأرصفة لمدة ٢٤ ساعة. وكان يقودها الرائد «جورج بالمر»، الذي كان ضابطا عالي القدرة قدم لي خدمات لاتقدر بقيمة اثناء عمليات تشغيل المرفأ في الأسابيع القليلة التالية...

كنا نتعرض لغارات ليلية، لكننا بذلنا قصارى جهدنا في تشغيل الميناء ٢٤ ساعة يوميا...

كان الجنرال سير «ابريان روبرتسون» مسئولا كلية عن قيادة الادارة العسكرية في ليبيا، في حين كان الجيش الثامن في تونس يواجه الألمان الذين تمركزوا على خط «ماريث». كان «مونتجومري» يعتقد اننا سوف نضطر الى الانسحاب اذا هاجمنا «روميل» قبل نهاية فبراير. وكان ذلك لايعني ان نتنازل عن طرابلس وحسب وانما عن بنغازي ايضا، الى جانب العودة مرة ثانية الى الحدود المصرية. ولكن اذا لم يهاجمنا «روميل» حتى نهاية الأسبوع الأول من مارس، فالأرجح اننا سنتمكن من الصمود. اما اي هجوم بعد ٢١ مارس فقد كان يعني فوزنـا على الأرجح. وقد بنى «مونتجومري» ومخططوه افتراضاتهم على نمط المعركة، اي العدد التقديري للرجال والأسلحة والمدرعات والذخيرة التي ستكون في متناولنا عند خط ماريث في تونس في التواريخ المذكورة. كنت قلقا، شأني شأن غيري، ازاء النمط الذي اتخذته معركة الصحراء، فالتقدم كان يعقبه تقهقر. وبدا من الضروري وقف هذا النمط حتى لانضطر الى الانسحاب هذه المرة، بل نستمر في التقدم حتى تحقيق النصر النهائي في افريقيا. كانت مشكلتنا بصفة عامة اننا حين احرزنا تقدما في الماضي، لم نتمكن من دفع عدد كاف من الرجال والمعدات بسرعة نحو المواقع المتقدمة لصد اي هجوم مضاد.

وقررت ان الحل هو ايجاد وسيلة لنقل عدد اكبر من الرجال والمعدات الى الجبهة الجديدة وبسرعة اكبر. وكان تحقيق هذا عند تلك المرحلة من الحملة يتطلب الكثير، لأن خطوط اتصالنا بخط ماريث من طرابلس كانت تسير في معظمها على امتداد طريق واحد عبر الصحراء تحيطه الرمال المتحركة من الجانبين. وقررت ان اذهب بنفسي وأتبين ما يمكن عمله. وذهبت الى الجبهة التونسية وبصحبتي مدفعي على مدفع مضاد للطائرات وضابط اشارة ومهندس. ووجدنا على امتداد الطريق الصحراوي ثلاث بقع صلبة يمكن ايقاف العربات في جانبها. وفيما عدا ذلك كانت المنطقة عبارة عن بحر من الرمال. كنت قد بدأت أدبر وسيلة نستطيع بها ان نحقق هدفنا. وتساءلت ان كان بمقدورنا ارسال العربات غير المدرعة بأقصى سرعتها اثناء النهار، على ان نتبعها بالمدرعات القليلة ليلا، مع ترك كشافاتها مضاءة لتحقيق اكبر سرعة ممكنة . كانت كفتنا راجحة في الجو في ذلك الوقت. اكد لي المهندس ان البقع الصلبة تتسع لعدد لابأس به من العربات، اذا ما حدث لسبب او لآخر ان تعطلت هذه العربات او كان تحركها بطيئا. وابلغني ضابط الاشارة ان باستطاعته مد خط تليفوني ميداني من طرابلس الى الجبهة مع وضع اجهزة في البقع الصلبة. وأخبرني المدفعي ان بمقدورنا تحذير العربات وحملها على اطفاء انوارها ليلا عند اي هجوم جوي منتظر، وذلك من خلال وضع مدافع مضادة للطائرات على مسافات منتظمة تطلق قذائف ضوئية ملونة. ومن ثم اقترحت على المعنيين ان يتم دفع اي عربة تتعطل في الطريق نحو الرمال المتحركة ليتم استعادتها فيما بعد ان امكن. واتفقنا على ذلك.

ولدى عودتي قررت وضع خطتي موضع التنفيذ، وذلك لتعجيل سير المعركة، بحيث يجد «مونتجومري» قواته وأسلحته في المكان المناسب قبل الموعد الذي كان متوقعا. وذهبت الى مؤخرة الجيش الثامن لمقابلة العميد «باجنال وايلد» الذي أقر خطتي. غير انه ارسل في طلبي لدى عودتي الى مقر القيادة في طرابلس ليبلغني انه بحث خطتي مع احد الزملاء المخضرمين العاملين في مجال التحركات، فأخبره انها غير عملية. فقلت له: ولكن هذا الضابط لم يذهب الى خط ماريث. فكيف يقدم النصيحة دون ان يرى المكان؟ فأجاب العميد: «لقد استمعت الى كل منكما، وكلاكما قال كلاما معقولا. ولكنني حين يساورني الشك أعمل بنصيحة الضابط الأقدم». وهو أقدم منك. ولذلك سنعود الى خطة المعركة السابقة. وكذبت في هذه اللحظة وقلت انني قد أعطيت أوامري بالتحرك بالفعل ولا أستطيع وقفه. وتركت العميد في حالة ثورة فنادانى قائلا: «الضباط الذين تحت امرتي يلقون التحية عند انصرافهم». وفهمت تلميحه. وحين عدت الى طرابلس ، تأكدت من انطلاق القوات واكدت للعميد «باجنال وايلد» ان وقف التحرك غير ممكن...

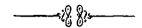
على مدى الأيام التالية تعدت سرعة تحرك الجنود والمدافع والعربات والامدادات كل توقعاتنا المتفائلة. وقبل ان يهاجم «روميل» ميدينين Medinine في ٦ مارس بوقت قصير،

كنا قد تمكنا من ارسال فوجين من مدفعية الميدان لم يكن من المقرر تحريكهما قبل عدة ايام. وكان ذلك في صالحنا لأن «مونتجومري» كان يريد ان يكون في متناوله اكبر قدر ممكن من المؤن والمعدات من كل الأنواع حتى يشن هجومه. وكانت النتيجة انه حين شن الألمان هجومهم، كان تجهيز الجيش الثامن اشد استعدادا للصمود مما توقع «روميل». ومني الألمان بهزيمة منكرة، ووقع في صفوفهم آلاف القتلى والجرحى، الى جانب مائة دبابة. وكانت خسائرنا في الأرواح اقل ما يمكن. والواقع ان «مونتجومري» ابرق الى سير «ألان بروك» رئيس الأركان بعد المعركة بيوم واحد يقول له: «لم اخسر اية دبابات، وخسائري في القتلى والجرحى ١٣٠ فقط».

كانت هزيمة «روميل» بداية المرحلة الأخيرة من الدمار وأسر القوات الألمانية في شمال افريقيا. غير ان العميد «باجنال وايلد» لم يكن راضيا تماما قبل معركة مدينين عن تغييري لسير المعركة، رغم موافقته في الأصل. كان يشك ان بمقدوري العودة للخطة الأولى، وانني ضللته حين قلت انني لا استطيع. واستدعاني لاستجوابي بصفة شبه رسمية عن تصرفي. ولمح الى انني عصيت الأوامر وانني يجب ان اواجه نوعا من التأديب. كان هذا الاستجواب قد بدأ عند بدء الهجوم على «روميل». وبعد انتصارنا بعث لي الجنرال «روبرتسون» اشارة من الجنرال «مونتجومري» هذا نصها:

- أرجو ان تنقل الى ضباط وافراد الحركة شكري العميق على جهودهم الجبارة في التعامل مع التشكيلات المختلفة التي تم تحريكها الى الأمام خلال الأيام القليلة الماضية. فمن حقهم ان يحسوا انهم اسهموا بشكل ليس بالقليل في هزيمة «روميل» النهائية.

وكنت انا قائد مجموعة الحركة المعنية. كانت تلك الجهود هي التي تشكلت من اجلها محكمة المسألة. واعطيت الاشارة الى «باجنال وايلد» الذي قرأها وقال: «هذا يغير الوضع بعض الشيء». وتم تأجيل جلسة الاستجواب، ولازلت انتظرها حتى اليوم.



الفصل الخامس

انتهت الحرب في افريقيا في ٢١ مايو ١٩٤٣ باستسلام الألمان في «تونس». وتم استدعائي الى القيادة العامة في القاهرة ثانية، ورقيت الى رتبة مقدم. وهناك ابلغني احد الضباط القدامى ان الجيش الثامن البريطاني بقيادة الجنرال «مونتجومري» والجيش السابع الأمريكي بقيادة الجنرال «باتون» سيغزوان «صقلية». وتم تعييني مساعدا للامداد والتموين في الجيش الثامن، وزادت مسئولياتي. كانت تلك أول مرة ألتقي فيها مع «ديفيد بلشيم» اصغر جنرال في الجيش البريطاني، والذي كان مدير عمليات «مونتجومري». وسارت علاقتنا على ما يرام. لكنني اندهشت حين قرأت في كتابه عن حملة الصحراء وغزو «صقلية» الذي نشره بعد اربع وثلاثين سنة، انني كنت اعد مسئولا عن تطوير النظام الجديد لما يسمى «تنظيم الحشد» الذي استخدم في البحر المتوسط ثم في اوربا لاحقا. وكان هذا النظام، على حد قوله، تطويرا لنظام التحركات في ظروف المعارك الثابتة والمتحركة.

بعد حصولي على اجازة لمدة اسبوع، علمت ان الغزو سيبدأ خلال أربعة عشر يوما بواسطة جيش بريطاني - امريكي مشترك، تحت قيادة الجنرال «الكسندر». وكانت مهمتي الأولى هي فتح ميناء «سيراكيوز». ولكن في حالة صمود «سيراكيوز» امامنا، كان علي ان ابدأ العمل من الشاطىء.

كان الاشتراك في غزو «سيراكيوز» تجربة جديدة بالنسبة لي من ناحيتين: اولا لأن الهجوم كان مركزا وواسع النطاق، وثانيا لأنه كان عن طريق البحر. كان لابد من تشغيل ميناء «سيراكيوز» باسرع ما يمكن. وهكذا كان على ان اختار بين قبول دعوة للسفر على متن طراد، او على احدى السفن الناقلة للجنود. وحين اخبرني قبطان الطراد ان الرحلة من مصر لاتتسع الا لي وثلاثة آخرين، بدلا من الخمسة عشر فردا الذين شكلوا مجموعة الاستطلاع التي كانت بصحبتي، قررت ان استقل احدى ناقلات الجنود. واستطعت ان انزل على بعد بضعة أميال جنوبي «سيراكيوز» مع رجال الفرقة الخامسة. كان غزو

«صقلية» هو اول غزو نستخدم فيه عددا كبيرا من الطائرات التي تسحب وراءها طائرات شراعية ممتلئة بالمقاتلين. ونظرا لقلة خبرة الطيارين، كانوا يسقطون الطائرات الشراعية احيانا على مسافة بعيدة من الشاطىء، الأمر الذي كان يجعلها تصطدم بالبحر مسببة خسائر كبيرة في الأرواح. وحين ذهبنا من السفينة الى نقطة الانقضاض على الشاطىء، لم نستطع ان نفعل شيئا لمساعدة القوات والأطقم التي انزلت بالطائرات الشراعية. كانت اصابات بعضهم خطرة وهم يصارعون الأمواج. كان الساحل يتعرض لنيران العدو، لكننا عبرنا بسرعة، وما لبثت مجموعة الاستطلاع ان احتمت بحقول العنب.

كان ذلك من حسن حظنا. اذ سرعان ما بدأت القاذفات الالمانية تقصف الساحل، وسقطت بعض القنابل في غيطان العنف. كنت قد قررت لتوي ان آخذ رجالي الى مأوى أفضل، حين انفجرت شحنة من المتفجرات بالقرب منا. وانبطحنا ارضا كلنا وتشبثت ايدينا بالأرض بكل قوة. كنت قد وضعت يدي على شيء متعرج يتحرك. وتبين انه ثعبان يتملكه الذعر مثلي تماما. وسحبت يدي بسرعة فانزلق مبتعدا. صحيح انني اخشى القنابل، ولكن ليست كخشيتي من الثعابين. وهكذا اندفعت اجري مبتعدا عن الحقل حتى وصلت الى ارض مرتفعة. كانت القاذفات الألمانية قد ذهبت . وتقدمنا مائتي ياردة اخرى، في حين كان رجالنا مشتبكين مع الايطاليين الذين كانوا يطلقون النار علينا. وفجأة ادركت انني حين ارتميت على الأرض ثم قفزت عند لقائي بالثعبان اسقطت زجاجة ويسكي كانت معي. لم تكن عندي اية نية للعودة الى حيث كان الثعبان. ولكن احد رجالي، لما سمع بأمر زجاجة الويسكي، عاد ادراجه ليحضرها، الأمر الذي جعل الرفاق يباركونه من اعماق قلوبهم في تلك الليلة.

في تلك الأثنـاء استجمعت هجمتنـا قوة دفعها، فتراجع الايطاليون، ووصلنا الى «سيراكيوز» عشية «يوم الهجوم»...

كان لنجـاح المرحلة الأولى من الغزو وسرعة انجازها الفضل في اننا وجدنا مرفأ «سـيراكيـوز» في حالة جيدة. وسرعان ما أعددناه للتشغيل وبدأنا تفريغ السفن، ورغم تعـرضنا لغارات جوية منتظمة، فقد كانت دفاعاتنا الأرضية فعالة. بدأ الجيش الثامن بقيادة «مونتجومري» تقدمه صوب «كاتانيا». في ذلك الوقت جاءني العميد «مايلز جراهام» وقال لي: «ان قائد الجيش يريدك ان تعرف الخطة. انه سوف يتقدم على الساحل الشرقي للاستيلاء على «كاتانيا» و «ميسينا» و «ميلازو»، ثم ينحرف غرباً للاستيلاء على «بالرمو» في الشمال الغربي». فسألت: «وماذا سيفعل الجنرال «باتون» والجيش السابع الأمريكي؟ «فقال: «سوف يحمون ميسرتنا اثناء تقدمنا».

توقف تقـدم الجيش الثـامن المبـدئي السريع عبر الساحل الشرقي على أطراف «تورمينا» حيث كانت بطاريات المدافع الألمانية عيار ٨٨ ملم تشرف على الطريق. ومن ثم

عجزنا عن التقدم. وفي حالة عجزنا عن ازاحة الألمان، كان الجيش الثامن سيضطر الى الالتفاف حول العدو من ناحية البر، وهو أمر شاق للغاية.

جاءني «مايلز جراهام» وقال لي: «لابد ان ندمر هذه البطاريات الألمانية. هل يمكنك افراغ كل القذائف زنة ٢٥ رطلا من قافلة السفن التي تقوم بتفريغها الآن؟»

فقلت: «نعم بامكاني افراغ القذائف زنة ٢٥ رطلا. لكن يجب ان تدرك انني لو فعلت هذا، فسوف تتأثر الجوانب الأخرى من خطتكم بصورة خطيرة. فلو تنقلنا من سفينة الى اخرى لاخراج القذائف المنشودة دون تفريغ كل سفينة على حدة، فان معدل التفريغ سوف يهبط بنسبة ٥٠ بالمائة، وتضطر السفن الى الرسو هنا فترة اطول تعرضها لهجمات القنابل. وهكذا، فلو افرغت القذائف المطلوبة، بعد ان تكون قد دمرت مواقع الصواريخ الألمانية، فلن تبقى هناك ذخائر تكفي لاستكمال الهجوم جهة الشمال، وسيكون عدد الرجال قليلا.

وقال: «وهو كذلك. سأبحث الأمر في القيادة وأطلعك على قرارنا. استمر في الخطة الأصلية في الوقت الحاضر»...

تمكنا في النهاية من دفع الألمان خارج «تورمينا» وبدأنا التقدم صوب «ميسينا»، في حين استمر الجنرال «باتون» في تقدمه على طول الساحل الغربي بوتيرة متسارعة، واستولى على «بالرمو» ثم انحرف شرقا صوب «ميلازو». ولما أدرك الألمان خطورة الاطباق عليهم بين فكي جيشين، بدأوا في اخلاء «صقلية». وفي ٢٥ يوليو تم اسقاط «موسوليني»، واكمل الحلفاء احتلال «صقلية» في ١٧ اغسطس. وبدأنا غزو بر ايطاليا الرئيسي في ٣ سبتمبر.

كان مرفأ «سيراكيوز» لايزال في حالة جيدة نسبيا. ولكن الألمان قبل اخلائهم المدينة كانوا قد افرغوا خزانات وقود الطائرات في المرفأ. وكانت جدران الأرصفة البدائية الى حد بعيد مبنية من مواد مسامية، فتشربت بالوقود الذي تدفعه الرياح والتيارات نحوها. كانت الحرائق تشتعل بين الحين والآخر على سطح الرصيف المشرب بالوقود. لكن الخسائر في الأرواح كانت ضئيلة لحسن الحظ. لكني ما زلت اذكر احدى اللحظات المثيرة، اثناء قيامي باحدى نوبات التفتيش الدورية. كنت قد وصلت لتوي الى رصيف ترسو بمحاذاته سفينة نفرغ منها الذخائر. وفجأة اندلعت النيران حيث كنت واقفا. وامتدت ألسنة اللهب بسرعة مذهلة. ولم تكن هذه الحرائق تستمر طويلا، فقد كانت تنطفىء فجأة لتعود الى الاشتعال في نفس المنطقة. كانت السفينة التي نقوم بتفريغها محملة بالقذائف والقنابل ووقود الطائرات. وبدا جليا انه لو امتدت النار الى السفينة فسوف يحدث انفجار يسبب اضرارا جسيمة، وربما خسائر فادحة في الأرواح. كان الملازم المسئول عن النقل بالميناء، «جون سيرسن»، موجودا على الرصيف مع رجاله. وبدأت انا وهو نقدم مثلا للرجال بجمع القذائف والقائها في البحر. كانت القذائف تزداد سخونة مع كل لحظة.

وحذا رجال «سيرسن» حذوه واستمروا في العمل بجهد ملحوظ. لكن يبدو ان يدي

كانتا اكثر حساسية. فلما اشتدت سخونة القذائف قررت ان اكتفي بالتشجيع المعنوي، بينما الآخرون مستمرين في العمل. ومن المذهل ان واحدة من القذائف لم تنفجر حتى خمدت ألسنة النيران في آخر الأمر...

قررت ان أوصي بمكافأة الملازم «سيرسن» على مجهوده. وكان ينبغي على من يتقدم بمثل هذه التوصية ان يشرح كيف عرف بأمر المجهود الذي يوحي بمكافأته. وهكذا كتبت: طوال العملية لم يبرح الملازم «سيرسن» جانبي. وكنت حريصا في صياغة التوصية، فلربما ينالني من الحظ جانب. وحصل «سيرسن» فورا على ميدالية. اما انا فلم احصل الا على ما استحقه ـ لا شيء. الا انني نلت في النهاية وسام الجيش البريطاني تقديرا لما ابليته في «سيراكيوز».

كانت المناقشات دائرة بين الحلفاء على مستوى القادة حول الخطوة التالية. لم يكن رئيس الأركان الأمريكي مقتنعا بأن الانقضاض على ايطاليا سوف يشكل ضغطا مباشرا على الألمان. ولهذا فقد كان يحث الحلفاء على شن هجوم عبر القنال البريطاني. لكن الموقف تغير حين جاءت اخبار في ٢٥ يوليو مفادها سقوط نظام «موسوليني» والقاء القبض عليه، وان ملك ايطاليا قد كلف المارشال «بادوجليو» بتشكيل وزارة جديدة. وتقابل ضابط بريطاني وآخر امريكي مع الجنرال الايطالي «كاستيللانو» في «لشبونه» لاعداد وثيقة الهدنة. ولكن بدا واضحا ان الايطاليين لن يجرؤا على التوقيع مالم نوافق على انزال قواتنا في بر ايطاليا الرئيسي. وتم توقيع الهدنة في ٣ سبتمبر، في كرمة للزيتون بالقرب من «سيراكيوز».

كنت في ذلك الحين مسئولا عن «ميسينا»، وكانت التعليمات تقضي بالاستيلاء على «رديو دي كالابريا» بمجرد عبور المضائق. وجمع «مونتجومري» بضع مئات من المدافع الثقيلة والمتوسطة على التلال المشرفة على «ميسينا»، حيث قصف «ريجيو دي كالابريا» من هناك بعنف. وكنت قد تلقيت الأوامر بالانتظار ٣٦ ساعة قبل عبور المضائق. وهكذا وقفت على الأرصفة في «ميسينا» والقذائف تصفر فوق رؤوسنا. لو عرف «مونتجومري» لادخر نيرانه، لأنه لم تكن هناك مقاومة تذكر في بر ايطاليا الرئيسي، لأن الألمان كانوا قد رحلوا. وحين عبرنا استقبلتنا الفرق الموسيقية المحلية. وبعد خمسة ايام، نزل الجيش الخامس الأمريكي بقيادة الجنرال «مارك كلارك» في «سالرنو» جنوبي «نابولي». وكانت الأوامر الصادرة لي مربكة بعض الشيء، فلم تكن هناك جيوش معادية في «ريجيو»، ولا على مسافة بعيدة منها. كانت قوات العدو قد تقهقرت الى «كعب» ايطاليا. وكان الجنرال «الكسندر» مقتنعا في الوقت ذاته بامكان الاستيلاء على ميناء «تارانتو» الايطالي، اذا تيسر له انزال الفرقة البريطانية الأولى المحمولة جوا هناك. وحيث لم تكن هناك وسيلة مواصلات بحرية او جوية، تم شحن ستة آلاف جندي بريطاني في البوارج الحربية، ودخل الأسطول الملكي

المرفأ في يوم النزول في «سالرنو». ونزل الجنود الى الشاطىء دون مقاومة، رغم ان احد الطرادات اصطدم بلغم وانفجر.

صدرت لي الأوامر بالتوجه الى «تارانتو» بأسرع ما يمكن حتى افتح الميناء. كان من أهم أهدافنا الاستراتيجية الاستيلاء على مطارات «فوجيا»، التي تبعد حوالي ١٢٠ ميلا عن الساحل الشرقي لايطاليا، ومائتي ميل شمال «ريجيو». كانت الخطة تقضي بشن غارات جوية سريعة من هناك على حقول البترول الرومانية، ومن بينها المركز البترولي في «بلوستي»، الذي كان من المصادر الرئيسية لوقود الألمان. كانت هذه الحقول أبعد من ان يصلها مدى قاذفات القنابل في المطارات البريطانية. اخذت سيارة جيب واصطحبت مراسلا عسكريا وبدأت الرحلة الى «تارانتو». لم نكن نعرف مكان الألمان في الواقع، ولهذا كان تحركنا حذرا. اذكر اننا حين وصلنا الى بلدة «كروتون»، عند ثلث المسافة، وجدنا ان الحامية الألمانية قد هربت تاركة وراءها الخمور وعددا كثيرا من النساء. وتناولنا بضعة كؤوس، لكننا تركنا النساء وشأنهن نظرا لضيق الوقت. واستأنفنا الرحلة شمالا. واضطررنا في الليلة التالية ان ننام في حقل ليس به اثر لأحياء. صحوت فزعا لا أدري ان كان الذي ايقظني المانيا ام ايطاليا. تملكني الفزع وهببت واقفا، حتى ذعرت البقرة الايطالية التي كانت تلعق وجهي وانطلقت هاربة

وصلنا الى «تارانتو» في الليلة الثالثة. وتلقيت الأوامر بالتحرك صوب «برينديزي»، عبر «الكعب» الايطالي، لفتح ذلك الميناء. لم يكن استسلام الايطاليين قد أعلن بعد. كان احد بنود اتفاقية الهدنة يقضي بان اسلوب معاملة الايطاليين سوف يتوقف الى حد ما على المساعدة التي سيقدمونها للحلفاء في حربهم ضد شركائهم السابقين. وقد اثر هذا الشرط كثيرا على نشاطي في «برينديزي».

لدى وصولي هناك وجدت الملك والحاشية والحكومة والعديد من القادة العسكريين الايطاليين، الى جانب الآلاف من الجنود الايطاليين وغير الايطاليين.

كان الألمان في ذلك الحين قد احتلوا «روما» واخلوا سبيل «موسوليني». وكانت مهمتي هي تشغيل ميناء «برينديزي»، ليكون مصدر تموين للجيش الثامن الذي كان يشق طريقه الى وسط ايطاليا. كان البحارة المكلفون بمساعدتي ينتمون الى الأسطول «الأيوني» بقيادة الأميرال «روبارتيللي». وحتى اتفاهم مع قوتي العاملة من البحارة الايطاليين، استعنت بمترجم كان قبطان سفينة تجارية من «تريست». ورغم ان البريطانيين اغرقوا سفينته مرتين، فقد كان معجبا بنا ويكره الألمان والايطاليين. كنت واثقا انه يتصرف كثيرا في ترجمة كلامي للايطاليين ويبالغ في تفخيم سلطتي.

لم يكن لنا جيش في «برينديزي». والواقع انني كنت، في بادىء الأمر، اقدم ضباط الحلفاء في المنطقة، هذا باستثناء الجنرال «ميسون مكفارلين» الذي كان مشغولا باعداد

معاهدة التحالف الحربي مع الايطاليين. وكان واضحا للايطاليين ان رجالهم يعدون بعشرات الآلاف، ناهيك عن الوحدات الألمانية التي كانت على بعد ثلاثين ميلا شمالا، في حين ان القوة الانجليزية ـ الأمريكية في «برينديزي» كانت تتألف من جندي المراسلة والمترجم وأنا. ادراكا من الايطاليين لهذا اجمعوا على عدم الانصياع لأوامري. فالعدد الذي طلبته من الرجال لم يصل، او وصل الى المكان غير المناسب. وكانت صفارات الانذار تنطلق بشكل متواتر، فيتوقف العمل رغم عدم وجود طائرات معادية على مدى البصر. وبعد عدة ايام من هذه الملابسات ، أيقنت ان الأمر عبارة عن تخريب متعمد. واخذت موعدا لمقابلة الأميرال «روبارتيللي» في اليوم التالي. في حوالي الثامنة مساء انطلقت صفارة الانذار، رغم انه لم يكن هناك اثر او صوت لطائرة، او لمدفع مضاد للطائرات. كانت ليلة حارة، وقد ارهقني العمل طوال اليوم. وفقدت اعصابي وقفزت في السيارة الجيب، طالبا الى السائق ان يأخذني الى مقر الأميرال «روبارتيللي». حين بلغنا البوابة الرئيسية للمقر استوقفنا الحارس، طالبا الينا ان نطفىء انوار العربة. فقلت للمترجم: قل له ان يذهب الى الجحيم. انا صاحب الأمر في هذه البلدة، وعليه ان يقودني الى الأميرال «روبارتيللي». وقام المترجم بترجمة هذا الكلام بكل سرور. وقادنا الحارس الى مكتب الأميرال، حيث لم نجد غير جندي الحراسة، الذي ابلغنا ان الأميرال في المخبأ تحت الأرض. كان انزعاجي قد اشتد، فذهبت والمترجم الى المخبأ.

كان المخبأ مفروشا بصورة جيدة، وكأنه فندق فخم تحت الأرض. كان الأميرال ومساعدوه الاثنا عشر يرتدون حللاً بيضاء ، تتدلى الخناجر الفضية الصغيرة من مناطقها. وكان الجميع يتناولون الشراب. وتوقف الحديث لدى دخولي، واستدارت الوجوه كلها لتحملق في هيأتي الأشبه بالشبح في لباسه الكاكي المتسخ. وسأل الأميرال: ما الخدمة التي يمكنني ان اؤديها، فأخبرته ان المهمة العاجلة التي يقوم بها الحلفاء، الذين يفترض انه يحارب معهم ومن ثم ينبغي ان يبدي تعاونا، قد تعطلت بصورة فظيعة تجعلني أرتاب في حدوث تخريب. وعددت له الأسباب قائلا انه يماطل في تنفيذ بنود الهدنة. وتغير موقف الأميرال وقال: «سوف احاكم المسئولين عن هذا . اعتقد ان المترجم قال انه سوف يقتلهم رميا بالرصاص او يعاقبهم بشدة . قلت للمترجم: قل له انني لا أريد معاقبة احد. كل ما أريده هو حضور الرجال الى المكان المناسب في الوقت المناسب. واخبر الأميرال ايضا انني سأكون من الآن مسئولا عن «جهاز الانذار». في هذه اللحظة ابدى نائب الأميرال ملحوظة بصوت عال. فطلبت الى المترجم ان يفسرها لي، فقال: «انه يقول انه لايليق بالبحارة الايطاليين ان يعملوا على الأرصفة. انهم بحارة ومكانهم في البحر. ولهذا فهم لايطيعون الأوامر ولا يعملون على البر». وافلت الزمام منى فقلت: «قل له ان الايطاليين لم يحسنوا البلاء في البحر وما لم يستطيعوا العمل على البر، فسوف يعانون الامرين في كسب رزقهم».

لم ارض فيما بعد عما قلته آنذاك، اذ كانت تنقصه اللباقة، لكنه كانت نتيجة عصبيتي.

وظهر رد الفعل فورا، فهم بحارة. وعلت وجوههم نظرة حانقة، حتى ان بعضهم بدأ يتحسس خنجره. فقلت للمترجم، لقد قلت ما عندي. وسوف انصرف الآن.

ارسلت اشارة في تلك الليلة الى الجيش الخامس عشر في الجزائر، قائلا انني اشك في وجود عملية تخريبية، وان التقدم الذي احرزه ضئيل. وفي اليوم التالي وصل الجنرال «روبرتسون» فلخصت له الموقف، فقال: «اقبض على الأميرال».

فقلت: «كيف اقبض عليه وفي البلدة ثلاثون الف جندي ايطالي، وليس معي الا جندي بريطاني ومترجم ايطالي؟»

وأجاب «روبرتسون»: «اذن لاتفعل شيئا. دع لنا هذا الأمر».

وعلى الفور تم ارسال حامية الى البلدة قوامها كتيبة من الجنود الهنود. وتم بالفعل القبض على الأميرال فيما بعد. كنت قد غادرت «بريندیزي» في هذا الوقت الى «باري»، وهو ميناء اكبر يبعد خمسين ميلا شمالا، عند منتصف المسافة الى «فوجيا». كان تقدمنا الى «باري» يعني دعم قدرتنا على تموين الجيش الثامن الذي كان يواصل تقدمه صوب وسط ايطاليا. وفي ذلك الحين، كان الألمان الموجودون في منطقة «نابولي» يعتبرون ان تقدم الجيش الثامن يشكل تهديدا محتملا لمؤخرتهم، ومن ثم تراجعوا نحو الشمال.

كان ميناء «باري» ضخما وفي حالة جيدة. وجدت «ديفيد كيريتس» هناك ينتظر للاستيلاء على «بارليتا»، وهو ميناء اصغر يبعد بضعة اميال جهة الشمال. وقد حصلت على دعم كبير جعلنا نجهز «باري» للعمل بسرعة. وكان هذا الميناء هو قاعدة الامداد للجيش الثامن، فضلا عن كونه المدخل الرئيسي للحشود المتجهة الى «فوجيا» والى مهاجمة حقول البترول. كانت هناك بعض الغارات الجوية المعادية، لكنها كانت معدودة وتأثيرها ضعيف.

كانت القيادة العامة تتلهف على اسراعنا بتفريغ المؤن حتى يتم الاستيلاء على «فوجيا» في اسرع وقت ممكن. فكانت القوافل تتوافد بكثرة وسرعة جعلت الميناء مكتظا. وكنت انا مسئولا عن امن الميناء، في حين كان أمن السفن بمجرد وصولها من مسئولية نقيب بحري. وكان هذا النقيب شجاعا، الا ان صلابة رأيه لم تكن تشجع على النقاش معه. سألته ان كان بمقدوره ان يفعل اي شيء لتخفيف الضغط على «باري»، من خلال توزيع السفن على بعض الموانيء الصغيرة القريبة، مثل «بارليتا». لكنه رفض. كنت اعي جيدا ما أقوله لأنني قد سبق لي زيارة «بارليتا»، التي كانت ستستخدم كملاذ اخير عند الحاجة وكان ذلك يعني نقل جنود من هناك لانزالهم وراء خطوط العدو لمهاجمته من المؤخرة. كانت هذه الموانيء تستخدم ايضا في تموين قواتنا الخاصة ورجال الغوار في «يوغوسلافيا».

كانت في «باري» في ذلك الوقت ست وعشرون سفينة شحن ضخمة، ولم يكن في الامكان تفريغ حمولة اكثر من ست او سبع منها في آن واحد. وسألت الضابط البحري مرة ثانية اذا كان بمقدوره تخفيف الاختناق بابعاد بعض السفن المنتظرة. ورفض مرة ثانية.

واستدعيت الى القاهرة بعد بضعة ايام، حيث كان من المقرر ان يبدأ في ٢٣ نوفمبر المؤتمر السداسي (Sextant Conference) بين «تشرشل» و«روزفلت» و «شينغ كايتشيك». كان الغرض من المؤتمر هو اطلاع القائد العام على برنامج العمليات المقترح لجنوب شرق آسيا. لكن «تشرشل» و «روزفلت» عقدا اجتماعات جانبية لبحث العمليات في اوربا والبحر المتوسط. كان الأمريكيون يضغطون للحصول على أكبر كمية ممكنة من الامدادات المشحونة، وخاصة سفن الانزال، وذلك لارسالها الى المياه البريطانية للاعداد لعبور القنال الانجليزي، الذي كان يعتقد انه وشيك اكثر مما اتضح فيما بعد. وألح «تشرشل» في الا يتم استنزاف الشحن في البحر المتوسط حتى تصبح المنطقة كلها تحت سيطرتنا.

قضيت حوالي الأسبوع في القاهرة. كانت مهمتي الرئيسية ان احضر بعض الاجتماعات. وفي احد الاجتماعات كان اللورد «ليذرز»، وزير النقل الحربي في وزارة الحرب، حاضرا. وقد أبدى اهتماما بآرائي حول استخدام الشحن البحري. وشرحت له مدى المعدل الفاقد الذي يحدث بسبب سوء التخطيط. وحين شجعني اللورد على ان اكون اكثر صراحة، تركت العنان لنفسي. وبدا واضحا انني ازعجت بعض الضباط الأقدم. في مساء اليوم الثاني من هذا الاجتماع، ارسل في طلبي مدير الحركة في الجيش الثامن، العميد «ري فيليب»، الذي كنت على علاقة طيبة به في شمال افريقيا وايطاليا. وسألني كيف تسنى لي ان احضر هذا الاجتماع بالذات. فقلت: يبدو انني مشترك فيه بالصدفة المحضة.

فقال: انت تعرف بالطبع معنى التحرك على جناح السرعة.

فقلت: اجل. انه اسرع وسيلة نقل ممكنة لرؤساء الوزارات والقادة وقادة الجيش وما الى ذلك.

فقال: عليك ان تغادر القاهرة على وجه السرعة صباح الغد عائدا الى «باري»، حيث ينبغي ان تكون.

كان واضحا ان صراحتي المفرطة اثناء الاجتماع لم تلق استحسانا لدى كل رؤسائي.

غادرت في صباح اليوم التالي ووصلت الى «باري» في المساء. توجهت لتسجيل حضوري وتناول كأس مع العميد «توم مكارثي» في مقره في البلدة. وفيما انا احكي له عما

حدث بالاجتماع في القاهرة، سمعنا صوت طائرة تقترب. كان مقر العميد في مبنى ضخم يضم مكاتب بلدية «باري». فخلال ثوان اخترقت قنبلة سقف الطرف الآخر من المبنى. وهزتنا الصدمة، لكننا لم نتعرض للاصابة. وعلى الفور دوى انفجار هائل، حين اصابت قنبلة احدى سفن الذخيرة بالمرفأ اصابة مباشرة. كانت لاتزال هناك ست وعشرون سفينة اخرى، اما على طرفي الرصيف او على حاجز الأمواج. وكانت السفن الراسية على الأرصفة محملة بوقود شديد الاشتعال وقنابل لضرب «فوجيا». اما السفن الأخرى فكانت محملة بأنواع مختلفة من الذخيرة والعتاد. وبدأت النيران تمتد الى السفن وانفجر بعضها. امر واحد فقط كان في صالحنا، وهو ان الرياح كانت تهب في الاتجاه المبتعد عن الشاطىء، ومن ثم كانت السفن الموجودة على امتداد حاجز الأمواج في مأمن.

وأسرعت الى مقر الضابط البحري القريب منا والححت عليه ان يأمر اكبر عدد ممكن من السفن بالابحار بعيدا عن المكان الذي اصبح كالمحرقة. ووجدت ان معظم الجزء الأمامي من مبنى مقره قد دمر. ولازلت اذكره واقفا مكتوف الذراعين على طريقة «نابليون»، وهو يقول لي (خطأ) انه من المستحيل على اي سفينة ان تبحر الى عرض البحر، فقد سدت السفينة التي غرقت مدخل البوغاز.

وطلبت بيان حمولة كل سفينة فجاءتني الأوراق على الفور. ولشدة هلعي رأيت ان احدى السفن الأمريكية الراسية عند حاجز الأمواج، إس إس جون هارفي، كانت محملة بأنابيب غاز الخردل. فقلت للضابط: ان لم تستطع ابعاد هذه السفينة فاغرقها، لأننا ان لم نبعدها وتغير اتجاه الريح فالله أعلم بما سيحل بهذه البلدة الليلة. فقال انه سيعمل على اغراقها فورا، واختفى من امامي. ثم ابلغني انه تم اغراقها. والواقع انه فشل في اغراقها، لأنها تعرضت لاصابة مباشرة من جراء انفجار الذخيرة فانفلقت نصفين، غرق احدهما وظل الآخر مربوطا بحاجز الأمواج (تبين مؤخرا ان حوالي ٦٠٠ جندي بريطاني وبحار تجاري لايزالون احياء يعانون من آثار غاز الخردل. والآن فقط، بعد ثلاثة واربعين عاما، يجري تحقيق كامل في الحادث).

كانت النيران قد امتدت في هذه اللحظة الى ست عشرة او سبع عشرة سفينة. وهرب من البلدة اثناء الليل ما يقدر بمائة الف شخص. كانت اصوات الانفجارات مسموعة على مسافة عشرين ميلا. وحين انفجرت بعض السفن وغرقت كانت تحدث موجات مدية صغيرة تنهمر فوق المدافع المضادة للطائرات فتقلبها على رأس طواقم المدافع. كانت هناك مئات الخسائر في الأرواح، وكان الواقفون من حولي تفتتهم الانفجارات وتبتر الشظايا المتطايرة من الحطام اطرافهم بصورة بشعة. وسقط مئات البحارة في الماء حين انفجرت سفنهم، وتم انقاذ بعضهم ونقلهم الى المستشفى. واستنشق عدد منهم غاز الخردل، ليستيقظوا في

الصباح التالي بوجوه شديدة الاحتقان. واعتقد ان مائة وخمسين منهم لقوا مصرعهم، بعد ان احترقت رئاتهم بالمياه الملوثة بالغاز.

وفي النهاية، ورغم ما قاله الضابط البحري المسئول من قبل، تمكنت تسع سفن من الابحار الى عرض البحر. واعتقد ان عددا اكبر ، بما فيها السفينة المحملة بغاز الخردل، كان يمكن ان يبحر لتنجو مئات الأرواح. واصبح المرفأ في حالة فظيعة ، وظلت النار مشتعلة لمدة ثلاثة ايام حتى تمكنا من اخمادها بالمعدات التي جلبناها من جنوب ايطاليا. كنت اعيش على الأقراص طوال الأيام الثلاثة دون ان يغمض لي جفن.

علمنا فيما بعد ان قصف الميناء كان بسبب مصادفة مشئومة. فقد اكتشف طيار قاذفة ألمانية كانت عائدة من غارة على مقر اتباع «تيتو» في يوغوسلافيا انه لايزال يحمل قنبلتين. وهكذا اسقطهما على «باري» ليعطل الميناء لفترة ليست بالقصيرة. وفتح ملف الكارثة وقتها. ووجه الضابط الينا اللوم لأننا كدسنا السفن في المرفأ. وكان ردي انني طلبت اليه مرتين ان يفرق السفن لاعتقادي ان عددها اكثر من اللازم. واستمعت لجنة التحقيق الى اقوال بضعة شهود وبرأت ساحتي. لكن الضابط البحري تعرض لانتقاد شديد، رغم ان اللجنة لم تورد ذكر غاز الخردل في التحقيق. ولم تصل الى علمي اية اشارة عن الخسائر الا بعد اربعة وثلاثين عاما.

ففي مارس ١٩٨٦ اعلن «نورمان فاولر» وزير الدولة للشئون الاجتماعية ان معاش الحرب لأحد الأشخاص قد حسب بتاريخ سابق نتيجة للاصابات التي عاناها بسبب انفجار غاز الخردل في "باري". واعلن ايضا ان التحقيق جار في ستمائة حالة اخرى. وانا على استعداد لأن اشهد على معاناتهم في ذلك اليوم...

في الأسابيع الأولى من عام ١٩٤٤، لم يكن موقفنا جيدا في ايطاليا. فقد تلكأ تقدم جيوشنا في شبه الجزيرة الايطالية بسبب «خط جوستاف» الذي اقامه «كيسلرنج». وكانت النقطة الحاسمة في هذا الخط هي «مونت كاسينو»، حيث تحمل الحلفاء خسائر جسيمة في الأرواح. وقرر رئيس الأركان ان يدور حول الخط. وفي ٢٢ يناير، تم انزال ٥٠,٠٠٠ جندي و ٥,٠٠٠ عربة بحرا في «آنزيو» على بعد ٣٣ ميلا جنوب ايطاليا. كان الانزال ناجحا ولم يلق مقاومة تذكر. لكن الألمان سرعان ما بدأوا القصف بقوة هائلة. وبدأ الأمل يخيب في التقدم بسرعة من «آنزيو» الى ايطاليا. وتقرر ان يتحرك الجيش الثامن نحو غرب الخط ليعيد انتشاره ويخترق «كاسينو»، في حين ينطلق الجيش الخامس من جهة اليسار خارجا من «آنزيو». كانت الموانىء التي تحت اشرافي منهمكة في ارسال المؤن الى الجيش الثامن. وكانت الأشهر الخمسة الأولى من عام ١٩٤٤ بالغة الصعوبة. وبعد عدة هجمات انطوت على خسائر كبيرة، استولى الحلفاء على روما في ٤ يونيو، وكان الأمريكيون اول من دخلها.

وبعد يومين اتجهت الأنظار نحو فرنسا، حين شن الحلفاء هجمتهم عبر القنال

الانجليزي. ففي ١٥ اغسطس تم تنفيذ «عملية التنين»، ونزل الجيش السابع الأمريكي بقيادة الجنرال «باتسن» والجيش الأول الفرنسي بقيادة الجنرال «دو لاتر حي تاسيني» في الريفيرا الفرنسية. وكانت هذه خيبة امل لـ «تشرشل» ويوما حزينا لسكان جنوب شرق اوربا الأحرار. كان الحشد المطلوب لعملية «التنين» يعني خفض قوتنا العسكرية في ايطاليا الى حد كبير. لم نلق مقاومة تذكر عند دخول «روما». ولكن خلال اسبوعين كان «كيسلرنج» الذي قاد الجيوش الألمانية في ايطاليا قد مركز قواته على خط جنوبي «آرنو»، على بعد ثمانين ميلا شمالي «روما»، حتى اذا اضطر الى التقهقر كان سيجد مواقع دفاعية حصينة على نهري «آرنو» و«بو». كان الألمان يحاربون ببسالة، وكانت الشهور من يوليو الى سبتمبر محبطة للهمم. وقرر رؤساء الأركان سحب المزيد من القوات من ايطاليا لحشدها على الجبهة الغربية، واصبح الجيش الثامن مستنفد القوى تنقصه الذخائر.

كان هدفنا الأصلي هو انهاء الحملة على ايطاليا بحلول عيد الميلاد. ولكن هذا لم يتحقق. وحين زار «تشرشل» روما في اغسطس، اخبره الجنرال ألكسندر ان جماعة الجيش الخامس عشر تكاد تموت جوعا وانه لابد من التخلي عن اهدافنا. ورثا «تشرشل» لحاله مع كبار الضباط، لأنه كان يؤثر ان يستمر في حملة شاملة لاخراج الألمان من ايطاليا.

كنت قد نقلت في هذه المرحلة الى قيادة جماعة الجيش الخامس عشر في الجزائر، ثم في «كاسرتا» في ايطاليا.

واثناء وجودي في الجزائر علمت ان «روزالي» تعرضت لمرض شديد في «نيويورك»، ولكنها في طريقها الى الشفاء. وتم ارسالي في «مهمة» الى «واشنطن»، رغم انها كانت في الواقع اجازة عارضة. سافرت ببدلة الميدان عبر الرباط والآزور الى الولايات المتحدة. وفي الرباط، سرقت حقيبتي من الطائرةوبداخلها البذلة المحترمة الوحيدة الباقية لي. ووصلت الى «واشنطن» في حالة يرثى لها.

ذهبت الى الخياط في محاولة لشراء بزة رسمية. فقال انه ليسعده ان يصنع لي بذلة بريطانية، لكن ذلك يستغرقه ثلاثة اشهر. واسقط في يدي. وحاولت ان اشرح له انني وصلت لتوي من ايطاليا وان بذلتي سرقت في الطائرة. وأوحيت اليه، دون كذب، انني على وشك حضور اجتماع مع شخصية هامة، ونظرت في اتجاه البيت الأبيض. فقال الخياط انه يقدر موقفي وانه سيعطيني زيا امريكيا. وفعلا اعطاني البذلة الأمريكية بعد ان خاط بها الأزرار والرتب البريطانية. وحين كنت ارتدي هذه البذلة، علق الجنرال «ايزنهاور» قائلا: انت مثال حي على التعاون بين الحلفاء.

وفي واشنطن، تم تكليف عميد امريكي بالاعتناء بامري، فاخذني الى اجتماع لم تكن لدي فكرة جيدة عنه. كان هناك عميد بحري مسئول لاأعرف اسمه. سألني اثناء الاجتماع ان كنت اعتقد اننا نحسن استخدام الشحن البحري في البحر المتوسط. فقلت:

كلا. لقد كان ولايزال هناك فاقد كبير في الشحن البحري، وعددت له الأسباب. وتابع العميد البحري المسألة باهتمام. وحين انصرفت اخبرني العميد ان الأميرال «كنج» - قائد الأسطول الأمريكي وعضو في هيئة الأركان المشتركة - كان مسرورا بآرائي على حد ظنه. ولم يدهشني ذلك لأن الأميرال، مثلما علمت فيما بعد، كان يبذل جهده لتحويل اكبر قدر ممكن من عمليات الشحن من اوربا الى الشرق الأقصى. فقد كان يعتقد ان اليابان هي العدو المباشر.

كانت حال «روزالي» قد تحسنت كثيرا، ولحقت بي الى واشنطن، وذهبنا الى المسرح ليلتها. ولدى عودتنا وجدت العميد في انتظاري ليطلعني على اشارة سرية موجهة الى هيئة الأركان المشتركة في لندن. كانت النقاط الأولى والثانية والثالثة تتناول مسائل تتعلق بالعمليات، اما النقطة الرابعة فكانت تقول: «العقيد «سيف» عائد لتوه من قيادة جماعة الجيش الخامس عشر، ولديه خبرة كبيرة بكل التحركات في البحر المتوسط. وهو يعتقد بوجود فادق كبير في عمليات الشحن. يجب اتخاذ اللازم». قلت للعميد: «لا يمكنك ارسال هذه الاشارة وهي تحمل اسمي - سوف تتسبب في طردي».

فكان رده: «انا آسف للغاية. لم نستطع الانتظار. لقد ارسلناها فعلا». وتراءى لي انه لاسبيل للتصرف الا ان استمتع بوقتي حتى يأتي اوان الضربة القاضية. ولكن العميد جاءني بالرد خلال ٤٨ ساعة. وكان الجزء الوحيد الذي أثار اهتمامي يقول: «بالاشارة الى النقطة الرابعة، فنحن بصدد اتخاذ اللازم». وكان لهذا الفضل في بناء سمعتي الطيبة في «واشنطن».

بعد بضعة ايام اخرى في «واشنطن» حلقت عائدا الى شمال افريقيا عبر «تورنتو» و «نيوفوندلاند». كانت قيادة الجيش الخامس عشر قد تمركزت في «كاسرتا». وعينت مساعدا للامداد والتموين في نهاية ١٩٤٤.

كانت وظيفتي تتصل بتحريك الأفواج والمؤن في منطقة ايطاليا الواقعة تحت سيطرة الحلفاء. كلفني الجنرال «ري فيليب» مدير الحركة بتمثيله في اجتماع مع اللجنة الفرعية للنقل التابعة للجنة الرقابة المشتركة، التي كانت مسئولة عن المدنيين في المنطقة وعن الاتصال بالحكومة الايطالية. ووجدت ان روما مكتظة بحوالي مليون لاجيء وان الطعام والوقود لايكفيان لأكثر من بضعة ايام. وكنت كلما تعمقت في البحث وجدت ان عمل اللجنة الفرعية تنقصه الكفاءة، الأمر الذي تبرم منه معظم اعضائها. فقلت لهم انهم لو استمروا على ذلك الحال، فسوف تتوقف مقدرة جيش الحلفاء على التحرك الى حد كبير، تتحول كل المؤن الى المدنيين. وفي هذه الحالة سيتوقف الجيش عن الحركة وتقع المسئولية الكبرى على عاتقهم.

وبعد يومين ارسل الجنرال «روبرتسون» في طلبي. وكان مسئولا في ذلك الحين عن

كل المسائل الادارية. وقال لي: «سمعت انك تكلمت بصراحة في اجتماع اللجنة الفرعية وكدرت بعض الناس. اتود ان تذهب الى «روما» لتكون مسئولا عن اللجنة الفرعية؟».
فأجبت: «كلا.. اشكرك يا سيدي».

فقال: «هذه ليست دعوة، انه امر». واصر على رأيه. لكنه اتفق معي على ان بعض الضباط الذين اراهم غير اكفاء يجب ان يتم نقلهم. وسمح لي باصطحاب بعض رجال معي... كنت قد تعلمت الكثير من خلال خبرتي في النقل في المجالات المدنية والعسكرية عن الرشوة والفساد. وكان بمقدوري ان اكون ثروة صغيرة لو انني ادرت ظهري وسمحت لبضع شاحنات بالقيام برحلات من «روما». لكنني قاومت الاغراء.

كانت خطة الحلفاء في اوائل الشتاء ان يشنوا هجوما لدفع الألمان خارج ايطاليا، املا في الانتهاء من حرب ايطاليا بسرعة. ولكن «نابولي» ظل الميناء الرئيسي الأول للمؤن المدنية والعسكرية على الساحل الغربي. ونظرا لضخامة طلب المدنيين على كل انواع المؤن، وخاصة لروما، كان معدل التفريغ للأغراض العسكرية تحت المستوى المطلوب. واستنتجت انه من الضروري ان نلجأ الى ميناء اضافي في الغرب.

كنت قد علمت ان مقدارا ضخما من تموين «روما» قبل الحرب كان يأتي عن طريق «سيفيتا فيتشيا»، الذي تم تدميره. وبدا لي من المنطقي ان نعيد فتحه. حين قمت بزيارة الميناء وجدت ان العدو قد جعله غير صالح للاستخدام باغراق السفن على الحراس على امتداد الأرصفة. وسألت احد المهندسين كيف يمكن اعادة تشغيل الميناء. وبعد فحصه اخبرني ان ذلك ممكن اذا ما ازلنا الأجزاء العلوية من السفن الغارقة واقمنا ارصفة فوق هياكلها.

ولما سألته ان كان يستطيع البدء في ذلك على الفور قال: «لايمكنني ذلك الا اذا حصلت على تصريح من رؤسائي ، وزودت بكتيبتين على الأقل من سلاح المهندسين. وفي هذه الحالة كان من الممكن تشغيل الميناء خلال شهر بحوالي ٨٠ بالمائة من طاقته السابقة.
فقلت: «لاأظن اننا سنجد صعوبة في الحصول على موافقة رؤسائك، او في احضار كتائب المهندسين». وكنت مخطئا اشد الخطأ.

ذهبت الى رئيسه واطلعته على المطلوب. ولا أظنه القى بالا لي او للجنة المراقبة، لأنه رفض قائلا انه لايوافق على الفكرة التي يعتبرها مضيعة للأيدي العاملة والمعدات. ولجأت الى ضباط أعلى رتبة دون ان اصل الى شيء. كنا عندئذ في بداية عام ١٩٤٥، وكنت قد رقيت الى رتبة عقيد. كان قد مضى علي اكثر من اربعة اعوام عبر البحار، وبدأ الضجر من الحرب يتسلل الي شأني شأن الملايين من امثالي. وطلبت مقابلة «هارولد مكميلان» الذي كان وزيرا مقيما في منطقة البحر المتوسط، واستقبلني على الفور. كان اول سؤال طرحه هو اذا ما كانت تربطني صلة قرابة بأزرائيل سيف. وحين اجبت انه ابي بدأ مكميلان يثني عليه

واطلعته على حكايتي وطلبت منه المساعدة. فقال انها فكرة جيدة. ودب التفاؤل في نفسي. لكنه قال ان تجنيد القوات للعمل يخرج عن نطاق نفوذه، واعتذر بأنه لايستطيع مساعدتي في ذلك. وخرجت من عنده مكتئبا.

وبعد ايام وصلت كتيبة المهندسين الأولى التي طلبتها من حيث لا أدري، وسرعان مالحقت بها الثانية. وبدأت عملية اعادة بناء المرفأ، وسلمناه للسلطات الايطالية خلال بضعة اسابيع. وفي مارس ذهبت مع مستر «مكميلان» لزيارة الميناء، رغم انه لم يكن مستعدا في ذلك الوقت للاقرار بدوره في العملية.

تمكنا من شن الهجوم ، ولكننا لم نوفق، اذ توقفنا عند نهري «آرنو» و«بو». واستمرت الحرب بمعدل بطيء حتى ٧ مايو ، حين استسلم الألمان كلية. وعدت الى الوطن في يوليو ١٩٤٥، والتحقت بالمدفعية الملكية . كنت قد نلت كفايتي من الحرب، وخاصة في وقت السلم. وذهبت لمقابلة الكولونيل «بوبي» بوزارة الحربية، وهو من المعارف القدامى وكان مسئولا عن تسريح العسكريين.

فقال لي: مرحبا. ما الخدمة التي اقدمها لك؟ ووجدت انها بداية طيبة، فقلت: يمكنك ان تصرح بتسريحي من الخدمة على الفور. فقال: كنت اتوقع ان تطلب هذا. اوراقك امامي هنا. لقد تم منحك اجازة لمدة ١٤ يوما ورقيت الى رتبة العميد. وحين ترجع من الاجازة توجه الى «بورما».

كان هذا هو الترحيب الذي قوبلت به بعد اربعة اعوام ونصف من الخدمة عبر البحار. لم تكن لدي فكرة بالطبع عن وجود قنبلة ذرية وعن امكان استخدامها. وكان الاحساس العام هو ان حرب الشرق الأقصى قد تستمر الى ما لانهاية. فقلت له: لابد انك جننت. لن أذهب الى «بورما». وما الذي يرغمني؟ فقال: يبدو انك ابتكرت نظاما للتحكم في الحشود، ووضعت خطة لمعركة باستخدام طريق ابان معركة «ميدينين» وخط «ماريث». وقد انبهرت وزارة الحربية بها ووزعتها على كل القادة. انهم يعتزمون شن هجوم كبير على امتداد خط واحد في «بورما»، وهم يريدونك هناك. ولهذا رقيت الى رتبة عميد وحصلت على اجازة.

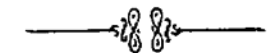
قلت: انا لا أريد ان ابدو غير وطني. لكنني قد مضى علي اربعة اعوام ونصف في الخدمة عبر البحار. هناك كثيرون يستطيعون الذهاب الى «بورما» ويرحبون بالترقية. كما ان النظام الذي وضعته ملك ايديهم، وما عليهم الا ان يطبقوه. اما انا، فلي الحق كضابط متطوع ان يتم تسريحي. فقال: انت على حق من الناحية النظرية. لكنك لم تقرأ الجزء المكتوب بخط صغير. الضباط من رتبة عقيد فما فوق لا يستمتعون بهذا الحق. ولهذا فسوف تذهب الى «بورما»، بشرط ان تكون لائقا.

تركت وزارة الحربية مشحونا اتساءل كيف اتصرف. ثم تذكرت ملحوظة «بوبي»

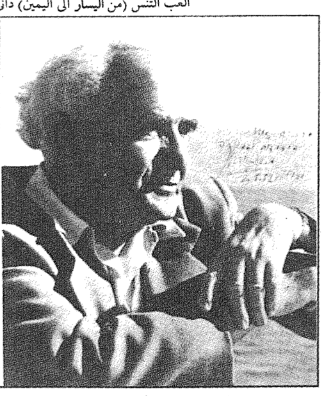
عند اللياقة. كنت قد اصبت بمرض في عيني اليسرى اثناء حرب الصحراء. وكانت عيني تزعجني بين الحين والآخر. والواقع انني اصبحت نصف اعمى، لأنني كنت اعمل في «روما» تحت ضوء خافت. كانت حالة عيني افضل بكثير، ولكنها لم تكن على اتم ما يرام. كان كبير اطباء العيون في الجيش هو العميد «ديوك ايلدر» جراح العيون المشهور. وكنت أعرفه جيدا في فترة ما قبل الحرب.

اتصلت به وطلبت زيارته على الفور، فاستقبلني في نفس النهار. قلت له: لقد عرضت علي وظيفة جيدة في الهند . هلا فحصت عيني واخبرتني بصراحة ان كانت حالتي تسمح بذهابي؟ وبعد فحص العين قال: يمكنك ان تذهب اذا كنت تريد ان تجازف بفقدان البصر من عينك اليسرى. فطلبت منه ان يسجل ذلك على الورق.

رجعت عصرا لمقابلة «بوبي»، الذي قرأ تقرير «ايلدر» وقال: هذا يغير الحال بعض الشيء، اليس كذلك، فقلت: اجل، وصافحته بحرارة وعدت الى شقة والدي. وخلعت بذلتي العسكرية وارتديت حلة مدنية. اعتقد انني ، شاني شأن معظم الناس . علمتني الحرب كثيرا، كنت محظوظا جدا. رغم ان عددا من الناس الذين عملت معهم قد قتلوا او جرحوا، فلم اتعرض لأية اصابة. وباستثناء نوبة ملاريا اصابتني واصابة عيني، كانت صحتي على اكمل مايرام. خدمت في عدة بلدان، وكانت معظم المهام التي اديتها مثيرة. وكان نجاح هذه المهام متوقفا على مبادرتي الشخصية. كنت قبل الحرب اعيش حياة سهلة نسبيا. ورغم انني اجتهدت في عملي في «ماركس اند سبنسر» لمدة عامين، فكنت [illegible] اجد من ألجأ الى مشورته. والواقع انني كنت أعمل دائما تحت الاشراف. اما في الحرب، فكنت اعتمد على نفسي في اوقات كثيرة واتخذ قرارات تؤثر في حياة اخواني الجنود وفي تقدم المعركة، دون ان اجد من استشيره. هذا رغم انني كنت اخضع في آخر المطاف للأوامر. لقد تعلمت شيئا عن المبادرة الشخصية، وأعتقد انني اكتسبت المزيد من الثقة بالنفس. واستطيع ان اقول انني اكتشفت ان لدي مقدرة قيادية وقدرة على تحمل المسئولية. وتعلمت ايضا ان المرء يلقى استجابة طيبة اذا ما احسن معاملة الناس وابدى استعدادا للاشتراك في المخاطرة. والواقع انني تعلمت الكثير عن المعاملة الانسانية الطيبة التي تشبعت بها في «ماركس اند سبنسر» ، وتعلمت عنها المزيد اثناء الحرب. ادركت اهمية ان يراك مرؤوسوك ويجدوا منك التشجيع. وعرفت قيمة العمل الجماعي. وتعلمت شيئا عن التقليد المتبع في القوات البريطانية، والذي يقول ان مسئولية الضابط الأولى هي ان العادات البيروقراطية المضيعة للجهد تتأصل بمرور الوقت، ويتطلب التخلص منها جهودا مضنية.



العب التنس (من اليسار الى اليمين) داني برن وادموند بيرك وسيمون ماركس



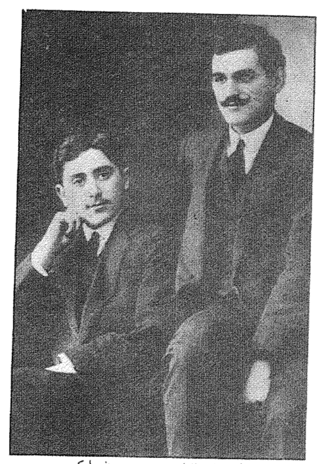
ديفيد بن غوريون في عام ١٩٥٢



في ايطاليا خلال الحرب العالمية الثانية



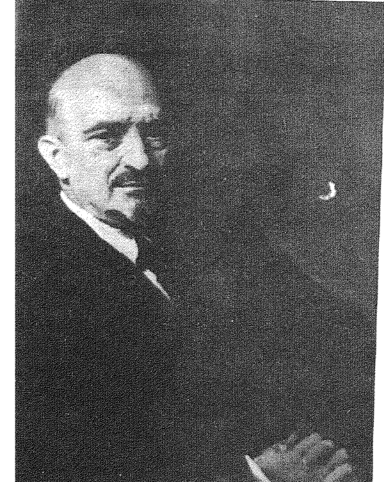
والدتي ربيكا



والدي اسرائيل وعمي سيمون ماركس

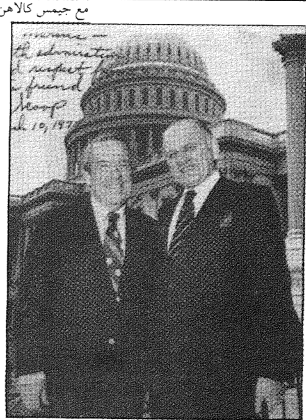


مع اخوي مايكل (الى اليسار) ودانيل (الى اليمين)

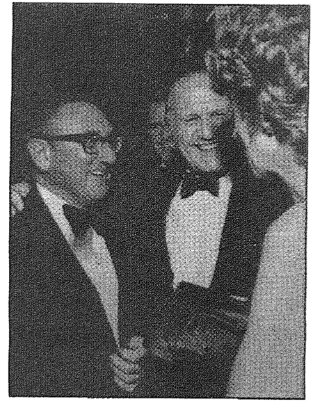


د. حاييم وايزمن، ملهمي

مع جيمس كالاهن وهارولد ويلسون



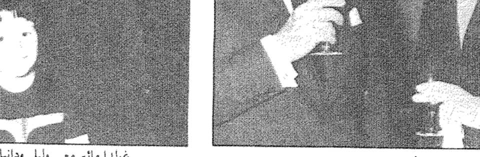
في واشنطن مع السيناتور جكسون



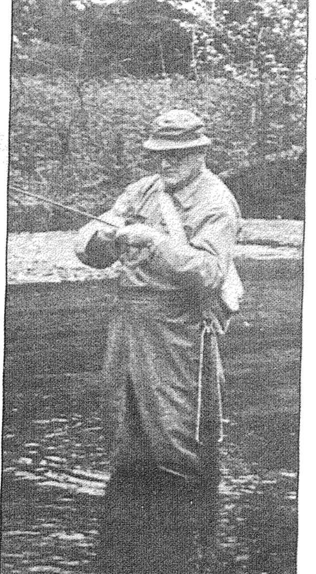
مع نانسي وهنري كسينجر



غولدا مائير معي وليلى ودانيال

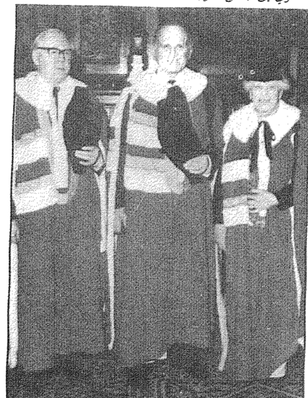


مع تيدي كوليك عمدة القدس



الاستمتاع بصيد الاسماك

دخولي إلى مجلس اللوردات

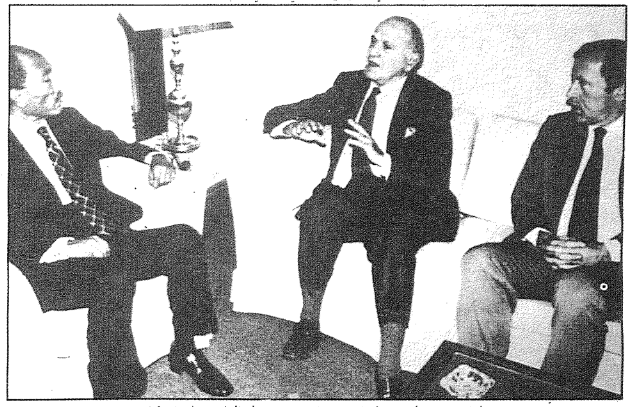


مع تيدي كوليك عمدة القدس



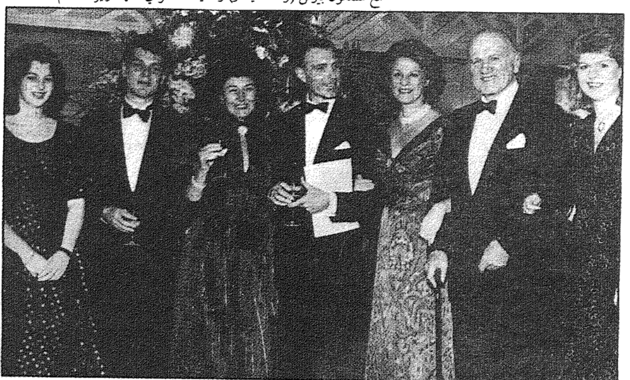
الاستجمام في بربادوس مع فكتور روتشيلد

أرافق الملكة في المعرض الزراعي الملكي عام ١٩٨١



لقاء جمعني والرئيس السادات وديفيد فروست في القاهرة عام ١٩٨١

مع شمعون بيرس (وسط اليسار) والسيدة تاتشر في معهد وايزمان عام ١٩٨٦



لقطة عائلية



ستة أجيال من عائلة سيف

الفصل السادس

رجعت الى «ماركس اند سبنسر» في صيف ١٩٤٥. ورغم ان مبادىء المؤسسة لـ
تتغير خلال فترة الحرب، فان البناء المادي نفسه تغير. كان اكثر من ١٥٠٠ رجل وعد نسا
قد تطوعوا للخدمة في الميدان، ودمرت الغارات الجوية ستة عشر متجرا وألحقت أضرا
بعدد آخر. وصادرت الحكومة اثناء الحرب ١,٥٠٠,٠٠٠ قدم مربع من مخازن الشر
لاستخدامها في تخزين المواد الغذائية، واستخدمت الطابقين العلويين من ادارتنا الرئيس
في «بيكر ستريت» مقرا لاحدى مجموعات العمليات الخاصة. وانقسم المكتب الرئيـ
بسبب المساحة التي صادرتها الحكومة في «بيكر ستريت»، ولدواع امنية. وفي حين ذ
أقسام الادارة الرئيسية والرقابة على البضائع ومشتريات الأطعمة والمستخدمين في «ما
هاوس» في «بيكر ستريت»، تم نقل قسم مشتريات المنسوجات الى «ليسستر»، والا
المالية الى «بات» والادارة العليا الى «بلاكبول». وفي عام ١٩٤٦، اعيدت كل انشطة ا
الرئيسي الى لندن، ولكن نظرا لعدم كفاية المساحة المتوفرة في «بيكر ستريت» بقيت
الاقسام في اماكن اخرى، فظل قسمان في شارع «اكسفورد» ونقلت الادارة العا
«مايل اند». ولم تنقل انشطة المكتب الرئيسي كلها في مبنى واحد الا بعد اكتمال
الادارة الجديد في ٤٧ «بيكر ستريت» في عام ١٩٥٨.

كان المعروض من السلع في سنوات الحرب والأعوام السبعة التالية لها مـ
وتم التركيز على الملابس. ولم تكن هناك بضائع كافية لتغطية ارفف العرض. ونـ
اعداد العاملين بالخدمة او في الأنشطة المتصلة بالحرب، مع تقييد حصص الغـ
طلب الجمهور على تناول الأطعمة خارج البيوت. ولهذا انشأنا المطاعم في عدد مـ
حتى وصل عددها بنهاية الحرب الى سبعين. واصبح توريد الأطعمة من الأقسـ
للربح. ومع استمرار القيود على معروضات السلع لبضعة اعوام اخرى، توسع
توريد الأطعمة، حتى اصبح لدينا ١٠٧ مطعما في عام ١٩٤٧.

اكد «سيمون ماركس» الذي كان قد حصل على لقب سير، في تقريره السنوي عن المؤسسة في الأعوام ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١٩٤٨ ان مبادىء المؤسسة لم تتغير، واننا كنا لانزال نسعى الى السلع عالية الجودة والقيمة. كما اكد اننا واصلنا التعاون الوثيق مع الموردين، وكنا نحاول معا ان نبحث عن وسائل محسنة، مستفيدين من احدث التطورات العلمية والتكنولوجية في رفع مستوى المعروضات . لكن استمرارالخطة القومية لصناعة الملابس وتقنين الأغذية عطلت تقدمنا ، على حد قول «سيمون». الذي اصر على ضرورة بيع السلع المنتجة في المملكة المتحدة قدر المستطاع. كما اكد استمرار اهتمامنا بصالح العاملين عندنا، وتقيدنا بالخطط التي وضعناها لتنفيذ هذه السياسة. واشار «سيمون» الى ان الدخول كانت ترتفع بصفة عامة، غير ان عدم كفاية المعروضات ادى الى ارتفاع التضخم.

كان «سيمون» وابي يشتركان في الادارة. وكان عمي الأصغر «تيدي سيف» قد عين مساعدا للمدير الاداري، وعين اخي مايكل رئيسا لقسم مشتريات الملابس تحت اشراف «تيدي»، وبدأت اتعلم الشيء الأكثر عن أقسام الأطعمة ولعبت دورا متزايدا في تطويرها.

حتى اذا وضعنا في الاعتبار معدلات التضخم بين اواخر الأربعينات والآن، فان مبيعاتنا كانت في تلك الفترة متواضعة مقارنة مع ما هي عليه الآن، حيث تصل المبيعات السنوية الى اربعة بلايين جنيه استرليني:

السنة المالية من مارس ١٩٤٧ الى مارس ١٩٨٦ (بملايين الجنيهات الاسترلينية)		
	مارس ٤٧	مارس ٨٦
المبيعات العامة	١٨,٣٠	٢٣٢٤,٨٠
مبيعات الأطعمة	٨,٠٠	١٤١٠,٠٠
اجمالي المبيعات	٢٦,٣٠	٣٧٣٤,٨٠

غير ان ارقام ١٩٤٨ كانت تشكل تقدما لابأس به بمقياس العصر، وفي الظروف التي كنا نعمل فيها.

كان عدد الموظفين حينها ١٥,٠٠٠ شخص، ونحن نستخدم الآن ما يزيد على ٦٠,٠٠٠ شخص في المملكة المتحدة وحدها.

كان حزب العمل قد تولى السلطة في انتخابات ١٩٤٥ العامة. وكانت خططه لزيادة التأميم قد جعلت الكثيرين ممن يؤمنون بالحرية التجارية يحسون بالقلق على المستقبل. وبدأوا يتطلعون الى خارج بريطانيا لتنمية تجارتهم من خلال تطوير اسواق التصدير وانشاء المصالح في الخارج. وقرر «سيمون» في عام ١٩٤٧ عقد اتفاق مع «ماكس سونتبرج»، مؤسس «وولورث» في جنوب افريقيا، الذي كان عضوا في البرلمان. وحصلت «ماركس اند سبنسر» على حصة اسهم في «وولورث»، وحصلت «وولورث» في المقابل على

حصة في «ماركس اند سبنسر» (ينبغي ان اوضح هنا ان الأمر الوحيد المشترك بين «وولورث» في جنوب افريقيا وسلسلة «وولورث» الكبرى الأمريكية هو مجرد الاسم).

في ديسمبر ١٩٤٧، ذهبت مع «سيمون» وزوجته «ميريام» وابن خالتي وزميلي في العمل «مايكل ساكر»، وابنة خالتي «آن لاسكي» الى جنوب افريقيا لالقاء نظرة على المؤسسة التي دخلنا معها في شركة. كنا قد قررنا الحصول على حصة في «وولورث» دون ان نرى المحلات وطريقة عملها على الطبيعة. كل ما رأيناه كان مجرد صور ورسوم وتقارير عن العمل. كان عائد المؤسسة يصل في ذلك الوقت الى ثلاثة ملايين. وابحرنا على متن «آتلون كاسيل» وامضينا رحلة ممتعة.

التقينا في جنوب افريقيا مع «ايلي سسمان» شريك «سوننبرج»، الذي كان في شبابه تاجرا في «روديسيا» اثناء حكم «سيسل رودس». وطلب «ايلي» من ابنه «ديفيد»، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما، ان يعتني بأمر الشباب منا. واصبح «ديفيد» صديق عمري، ومديرا غير تنفيذي في «ماركس اند سبنسر». وكنت اعتبر آراءه بناءة ومفيدة. لم تكن لديه النية في البداية ان يلتحق بتجارة أسرته او ان يعمل في تجارة التجزئة. لكن زيارتنا جعلته يغير رأيه ويحقق نجاحا باهرا في عمله بعد ترك الجامعة وقضاء بعض الوقت في اسرائيل. والتقى «ديفيد» بابنة خالتي «آن لاسكي»، ووقعا في الحب وتزوجا بعد عامين.

في هذه الزيارة الى جنوب افريقيا، هالت «سيمون» نوعيات ومستويات البضائع التي وجدها في اول متجر زرناه. قال «سيمون» لـ «ماكس سوتنبرج» بصراحته المعهودة: «غير معقول ان تعرض هذه البضائع للبيع. الأكرم ان تهديها للأسقف ليقدمها في حفل خيري». وبعد ان وصلنا الى المتجر الثاني، وفحص «سيمون» البضائع قال «لماكس»: «لا يمكنك حتى ان تهبها للأسقف الأجدى ان تحرقها». وكانت هذه البداية غير المتوقعة لعلاقة طويلة وتعاون مثمر مع «وولورث» جنوب افريقيا.

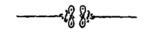
كان ذلك في الوقت الذي كان «سمتس» فيه رئيساً للوزراء، وقبل الاعلان رسميا عن سياسة الأبارتهيد. والواقع اننا تخلصنا من حصتنا في «وولورث» عام ١٩٧١، لكننا ظللنا على اتصال ولازلنا نتعاون. كنت قد قمت برحلتي الى جنوب افريقيا بمفردي. حاولت و «روزالي» ان نعود الى احدنا الآخر بعد خمسة اعوام من الانفصال بسبب الحرب. لكن الفرقة كانت اطول من اللازم. وهكذا اتفقنا على الانفصال، ووقع الطلاق عام ١٩٤٧. واحتفظت «روزالي» بحضانة ابننا «ديفيد» الذي لم أكن قد رأيته كثيرا. كانت الحرب قد بدأت قبل مولده ببضعة اشهر، وقضى الفترة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ مع والدته في امريكا.

عند التحاق «ديفيد» بمدرسة «ربتون»، اعتقد انه كان اليهودي الوحيد. وقد افهم مدير المدرسة ان كونه يهوديا يحتم عليه الا يعمل ايام السبت. واجاب بانه يقدر موقفه،

وانه سيرتب لذهابه الى الهيكل اليهودي في «ديربي» ايام السبت، او لحصوله على دروس في الديانة اليهودية. وعندئذ قرر «ديفيد» انه من الأفضل له ان يحضر المدرسة ايام السبت.

وظللت و «روزالي» صديقين حتى وفاتها بداء السرطان ١٩٦٤. بدأت حياتي تتخذ طريقا مختلفا حين تنازلت بريطانيا عن وصايتها على فلسطين بعد خمسة وعشرين عاما. وقررت الأمم المتحدة بالأغلبية تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية، أملا في ان يتعاون الطرفان في سلام.

لكن رفض الدول العربية المجاورة لقرار الأمم المتحدة، واعلانها الحرب على الدولة الجديدة، وتهديدها بمحو اليهود أحدث ثورة في حياتي، وفي حياة مئات الآلاف من الناس.



الفصل السابع

كنت في شبابي اشد وعيا بكوني صهيونيا عن كوني يهوديا. وكنت من تلامذة «وايزمان» الأوائل. ورغم ان «سيمون» ابدى حماسا والتزاما تجاه الحركة، فان ابي هو الذي قاد العائلتين الى معسكر «وايزمان» في عام ١٩١٣: كان «وايزمان» في ذلك الحين يعمل محاضرا في الكيمياء في جامعة مانشستر، ورئيسا للاتحاد الصهيوني البريطاني. وكان زعيما فعليا للصهيونية العالمية، وان لم يكن ذلك بصفة رسمية. كان ابي قد دان بالصهيونية قبل لقاء «وايزمان» بسبعة اعوام. فقد انضم الى المنظمة الصهيونية في سن السابعة عشرة. لكنه يقول في مذكراته «ما ان وقعت عيناي عليه حتى صار معلمي، وصرت أصغى اليه في انتشاء». وفي الأسبوع التالي قدم أبي «سيمون» الى «وايزمان»، وكتب يقول «لقد اخذ به (سيمون).» ومنذ اول لقاء له مع «وايزمان» في حفل عشاء مع بعض الأصدقاء، بدأ الي يجمع له التبرعات على نطاق لم يعهده من قبل، محققا في ذلك نجاحا كبيرا. واصبح سكرتيرا خاصا غير متفرغ لـ «وايزما»، دون ان يتقاضى اجرا. ثم اشترك ابي و«سيمون» وزوج خالتي «هاري ساكر»، و«هربرت سايد بوتام»، كاتب المقالات الشهير في «مانشستر جارديان» ذائعة الصيت، في تأسيس مجلة «فلسطين»، لسان حال لجنة فلسطين البريطانية، وذلك لايصال آراء الصهاينة البريطانيين الى الحكومة.

كان «وايزمان» قد التقى بمستر «بلفور» في «مانشستر» قبل بضعة أعوام. وفي الأيام الأولى من الحرب العالمية الأولى، توجه للقائه في لندن حين كان «بلفور» وزيرا للخارجية. وذهب ابي معه، والواقع انه دفع تكاليف سفره. وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧، نشرت الحكومة البريطانية اعلان بلفور، الذي وعد «بانشاء وطن قومي لليهود في فسلطين». وحين كلفت اللجنة الصهيونية بالذهاب الى فلسطين لتقديم توصياتها حول كيفية تنفيذ الاعلان، ذهب ابي مع اللجنة باعتباره مساعد «وايزمان» الخاص. كما انه صحبه الى مؤتمر

السلام في فرساي في عام ١٩١٩، والذي تقرر فيه منح بريطانيا الانتداب على فلسطين. وذهب معه ايضا الى مؤتمر «سان ريمو» في ابريل ١٩٢٠، والذي ثبت الاعلان والانتداب.

كان الملك فيصل، ملك سوريا حينذاك، قد رحب باعلان بلفور. وقد دارت بينه وبين الدكتور «وايزمان» عدة حوارات في مؤتمر باريس. وفي احد هذه اللقاءات قال «فيصل» لـ «وايـزمان» «هل ستبعث اليّ مندوبا في سوريا حتى نتعاون معا في تفيذ الاعلان»؟ ورد «وايزمان»: سوف ارسل «ايدر». ورغم كفاءة «ايدر» فقد كان متقدما في السن، وكان الملك يعي ذلك. ومن ثم قال: «لا بأس. ولكنني كنت افضل ان تبعث الشاب «سيف». كان ابي جذابا ومتمكنا ومتحدثا لبقا. لكن كان من المستبعد ان يذهب نظرا لالتزاماته الكثيرة. وعلى اية حال فقد طرد الفرنسيون فيصل من سوريا خلال بضعة اشهر، حتى عينته بريطانيا ملكا على العراق بعد عام. خلال السنوات العشر التالية، ذهب ابي مرارا الى فلسطين كممثل خاص لـ «وايزمان» في اسرائيل. وكان لأمي نشاطها في الحركة الصهيونية هي الأخرى. ففي عام ١٩٢٠ اشتركت امي مع خمس نساء اخريات، بينهن «فيرا» زوجة «وايزمان»، في تأسيس المنظمة النسائية الصهيونية الدولية (ويزو)، التي جعلتها تقضي عدة اشهر من كل عام في فلسطين، ثم في «اسرائيل» حتى وفاتها في عام ١٩٦٦. وكانت تطمح الى تحسين احوال الأطفال والنساء من كل الأعمار والديانات والأجناس من خلال مراكز الرعاية الصباحية ومنتديات الشباب والمدارس والمراكز النسائية والمكاتب الاستشارية. وكانت هي التي بذلت قصارى جهدها في تحويل الجمعية النسائية الى منظمة عالمية، من خلال سفرياتها الى مختلف القارات وتأسيس فروع في عدة بلدان، والتحدث عن أغراض المنظمة وأهدافها ومنجزاتها.

لاداعي للافاضة في الحديث عن التاريخ التعيس لسياسة الحكومات البريطانية المختلفة ازاء فلسطين واسرائيل في الأعوام الثلاثين التالية وعد بلفور، او وصف المآسي التي سببتها لأمثالنا ممن كانوا وطنيين بريطانيين وصهاينة متفانين. كان هناك دائما زعماء مثل «تشرشل» و «لويد جورج» و«وليو ايمري» و«والتر اليوت»، وغيرهم ممن اصروا على دعم تنفيذ وعد بلفور، واعطوا الأمل في ان تفي «بريطانيا بوعدها. لكنهم كانوا اقلية. سوف اكتفي هنا بأن اوجز ما حدث في الستة اشهر التي سبقت اخذي اجازة من «ماركس اند سبنسر» للذهاب الى فلسطين في مايو ١٩٤٨.

بلغت مشكلات بريطانيا ازاء فلسطين ذروتها في فبراير ١٩٤٧. فقد اسقط في يد الحكومة، واعلن وزير الخارجية «ارنست بيفن» امام مجلس العموم ان انتداب بريطانيا على فلسطين سوف ينتهي في مايو ١٩٤٨، حين تنسحب بريطانيا، وترفع مشكلة فلسطين الى الأمم المتحدة. تولد عن هذا الاعلان مشاكل جمة في فلسطين، اذ حاول العرب طرد

اليهـود قبل ان يتمكنوا من اقامة دولة يهودية، ودافع اليهود عن مواقفهم الضعيفة في خوف. وأنشأت الأمم المتحدة لجنة فسطين الخاصة، للاستماع الى دفاع العرب واليهود عن حقهم في السيطرة على فلسطين كلها، او على اجزاء منها. وقدمت هذه اللجنة تقريرها في سبتمبر ١٩٤٧ ، داعية الى تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية، واعتبار القدس منطقة عازلة. وتم قبول التقرير بأغلبية الأصوات في نوفمبر ١٩٤٧.

لم تكن هناك حكومة اسرائيلية في ذلك الوقت بالطبع، لأن الدولة لم تكن قد وجدت بعد.

ورغم خيبة زعماء اليهود ازاء الرقعة الصغيرة التي اعطيت لهم ، فقد قبلوا القرار واقترحوا على الزعماء العرب ان يتعاون العرب واليهود من احل المنفعة المتبادلة. وللأسف ان الزعمـاء العـرب في فلسطين والبلدان المحيطة بها، صوتوا ضد قرار الأمم المتحدة ورفضوا الاقتراحات اليهودية حول التعاون السلمي.

وتلا ذلك ستة اشهر من الحرب غير الرسمية في فلسطين. وكانت حكومة الانتداب البـريطانية، التي كانت لاتزال مسئولة عن الأمن والنظام في فلسطين، تتصرف بأسلوب وصفـه «ابا ايبان» بانه «حياد متعاطف» مكن العرب من العمل بسهولة ويسر في جلب الأسلحـة والرجال من البلدان المجاورة، في حين ضيق على اليهود بكل السبل الممكنة. وكانت الخسائر البشرية جسيمة لدى الجانبين. ودافع اليهود عن انفسهم في عناد، لكن العرب كانت لهم الغلبة الطاغية في الأسلحة والجيوش. ومن ثم كانوا يهاجمون بلا انقطاع في محاولة لمحو اليهود قبل ميلاد الدولة الجديدة. لم يكن لليهود في ذلك الوقت قوة دفاعية متكاملة تماما. وفي ٩ ابريل عام ١٩٤٨، قامت مجموعة «ارجون» الارهابية بمهاجمة قرية «ديرياسين» الغربية ، وقتلت عددا من النساء والأطفال الى جانب الرجال.

في ١٤ مايـو ١٩٤٨، اليـوم التالي لانتهاء الانتداب، اعلن «بن جوريون» رئيس الوزراء الجديد دولة اسرائيل الجديدة. وبعد خمس عشرة دقيقة اعترف الرئيس «ترومان» بالدولة الجديدة نيابة عن الولايات المتحدة، وتبعته روسيا مباشرة، رغم ان هذا يبدو غير معقول في الوقت الحاضر. ثم اعترف بها اكثر من ثلاثين دولة من اعضاء الأمم المتحدة ، وهي الأغلبية في تلك الأيام. لكن بريطانيا لم تعترف بالدولة الجديدة. وفي ١٥ مايو قصفت الطائـرات المصريـة تل أبيب، وسرعـان ماعبـرت الجيوش اللبنانية والسورية والأردنية والعراقية والمصرية الحدود الاسرائيلية. كان بعض المسئولين في وزارة الخارجية البريطانية قد تنبأوا بأن العرب بتفوقهم الكبير في الأسلحة والمعدات سوف يلقون اليهود في البحر اذا ما نشبت الحرب. ولا أظنهم كانوا يعبأون لو حدث ذلك. فقد حسبوا ان دولة اسرائيل الجديدة سوف تكون مصدرا للانزعاج والقلاقل في الشرق الأوسط، وقد صدق حدسهم.

لكنهم تجـاهلوا الحقوق اليهودية وقرار الأمم المتحدة ، وحقيقة ان الأسباب الرئيسية للقـلاقـل في المنطقة كانت، ولا تزال، هي العداوة المتبادلة والقتال الضروس بين الدول العربية المسلمة والطوائف في تلك المنطقة.

قبل بدء القتال ببضعة ايام، تلقيت رسالة من «بن جوريون». فقد كان يتوقع نشوب حرب بعد اعلان دولة اسرائيل. وسألني ان كان بمقدوري ان اسافر الى اسرائيل لتقديم العون. كنت راغبا في ذلك، ولكن كانت هناك مشكلات. فماذا عسى «سيمون» وابي يظنان اذا تركت الشركـة ولو لفتـرة مؤقتـة، وكيف كان يسعني كعقيـد احتيـاطي في الجيش البريطاني، ان ابرر اشتراكي في حرب تقاتل فيها دولة لم تعترف بريطانيا بوجودها ضد شرق الأردن حليفة بريطانيا؟.

وحلت المشكلة الأولى في دقـائق . فقـد رأى ابي و«سيمـون» ان ألبي نداء «بن جوريون». اما عن المشكلة الثانية، فقد قررت ان اتركها حتى يأتي أوانها، فقد كان كل الضباط البريطانيين يحاربون مع قوات بعض البلدان العربية. وخلال ايام من تلقي دعوة «بن جوريون»، كنت قد غادرت لندن الى اسرائيل.

في ١٨ مايو كانت هناك طائرة مجهزة للاقلاع من مطار «بلاكبوسن» جنوب غربي لندن الى «حيفا». واستطعت بالكاد ان استقلها. كانت طائرة بالية من طراز «دي سي ٣» . ولم اكن اعرف وقتئذ انها مربوطة في بعض اجزائها بالأسلاك . وكان الملاح المانيا فذا من أعضـاء سرب «بارون ريختوفن» الشهير في الحرب العالمية الأولى. وكانت رحلة مزعجة ومليئة بالمطبات الهوائية. توقفنا في روما للتزود بالوقود ثم اتجهنا الى «حيفا»، المطار الوحيد المفتوح على الأراضي الاسرائيلية. كانت الحرب قد بدأت بصفة رسمية. وعندما اقتربنا من الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، كان علينا ان نبقى يقظين لأي طائرة عربية. وفي مطار حيفا الصغير التقيت صدفة ببعض الضباط الذين ينتظرون العودة الى بريطانيا بعد انتهاء الانتداب. وكان بينهم اثنان ممن خدمت معهم اثناء الحرب العالمية الثانية. سألاني «ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟» فقلت: «جئت اطمئن على مزرعتنا في «تل موند»! حيث كانت امي تقيم اثنـاء زياراتها الى فلسطين. يرجع اصل هذه المزرعة الى الثلاثينات، حين اشترت اسرتي قطعة ارض تبعد ١٥ ميلا شمال «تل ابيب» بالقرب من قرية «تل موند». كنت قد رأيتها لأول مرة في عام ١٩٣٥، وكانت في معظمها ارضا رملية، حتى انني لم استطع ان افهم لماذا دفع فيها ابي ذلك الثمن الباهظ في تلك الأيام، لكن والداي كانا يريدان مكانا ينزلان فيه في فلسطين. وبعد ان وجدا مصدرا للماء، حولا الرمال الى تربة ممتازة وزرعا الموالح والأفوكادو...

وعدة الى وصولي الى مطار «حيفا». قال صديقاي: «لا يمكنك ان تذهب الى هناك.

الطريق يتعرض للقصف. الأفضل لك ان تهرب، لقد انتهى اليهود.» لم يقولا ذلك بنبرة معادية للسامية وانما في صورة نصيحة لصديق. قلت: يؤسفني ان اسمع هذا لكن طالما انني جئت فيحسن ان القي نظرة.

قالا: «اتعرف ان القدس قد سقطت اليوم؟». الواقع ان القدس القديمة هي التي كانت قد سقطت، حيث احتلها الأردنيون صباح ذلك اليوم.

صدمت لهذا الكلام، لكني لم اضع وقتا في البحث عن وسيلة انتقال تقلني الى «تل ابيب»، التي تبعد ستين ميلا الى الجنوب. وتمكنت من استئجار سيارة. لم تكن هناك طريق ساحلية في ذلك الوقت، فاضطررت ان اسلك الطريق الداخلي الذي كانت بعض اجزائه تتعرض للقصف. لكن النيران كانت متقطعة وعشوائية اذ كان مصدرها القوات العراقية عند «رأس العين»، على بعد حوالي عشرة اميال من «تل ابيب». وصلت «تل ابيب» في ساعة مبكرة من الليل، واستقبلني «روفن سازلاني»، الذي غير اسمه فيما بعد الى «شيلوح». وكان مسئولا وقتها عن المخابرات العسكرية والسياسية. كان منظره اشبه بجاسوس خارق في احد افلام «جيمس بوند». وكانت ملامحه حادة ، افسدها انفجار في مقر قيادة الوكالة اليهودية.

اطلعني «روفن» على موقف المعركة، فقال: انت تعرف موقع الجيش العراقي.

اما الفيلق العربي بقيادة العميد البريطاني «جلوب» فهو في «اللطرون»، على بعد عشرين ميلا شرقي هنا على الطريق الى القدس. اما الجيش المصري فهو في «النقب» على بعد حوالي ٢٢ ميلا جنوبا. والمدعو جيش التحرير العربي على بعد بضعة أميال من «حيفا». اما القدس فهي تحت الحصار. والآن يجب ان اصحبك الى «بن جوريون».

قابلت «بن جوريون» ليلتها. كان رئيس وزراء دولته ذات الخمسة وعشرين يوما، ووزيرا لدفاعها وقائدا عاما للجيش. كان هادئا بشكل ملحوظ، مع العلم بأن العرب شنوا هجوما مكثفا قبل ايام، وكانت مدينة القدس القديمة قد سقطت صباح ذلك اليوم. شكرني لحضوري لمساعدة اسرائيل بكلمات معدودة، فلم يكن من عادته ان يكثر من شكر الناس، مفترضا ان لديهم نفس الاحساس بالواجب الذي يحسه. ثم اخبرني عن سبب استدعائه لي. كان يأمل بصفة عامة ان يأتي اكبر عدد من اليهود الى اسرائيل في أزمتها ليبرهنوا على ايمانهم بدولتهم من خلال تواجدهم الفعلي. (حينها كان هناك حوالي ٦٠٠,٠٠٠ يهودي، وسط ملايين من العرب المعادين في البلدان المحيطة بهم). وكان يعتقد بصفة خاصة ان خبرتي في الحرب العالمية الثانية يمكن ان تسهم الى حد كبير في الدفاع عن اسرائيل ضد العرب. كان يعرف انني خدمت في عمليات وفي هيئة الأركان في عدد من البلدان، وكان يعتبرني جنديا محنكا. كان له رأي مبالغ فيه عن انجازاتي خلال الحرب،

ولكن ذلك كله كان نسبيا بالقياس الى الخبرة المحدودة لمعظم الضباط الاسرائيليين، الذين كان الكثـيرون منهم محـاربـين مقـدامين، لكن معظم خبراتهم كانت في عمليات حرب العصابات، في حين كانت معرفتهم محدودة عن العمليات العسكرية واسعة النطاق. وقد اثبت بعضهم فيما بعد انه من الجنرالات العظام، مثل «ييجال يادين» و «موشي دايان» و «ييجال آلون» و «اسحق رابين».

عند وصولي ، كان رئيس الأركان هو الجنرال «دوري»، الرئيس السابق لجامعة حيفا للعلوم التكنولوجية. لكنه مرض ليحل محله «ييجال يادين» رئيس العمليات.

كان «يادين» ولا شك واحدا من أهم العسكريين الذين صمموا النصر الاسرائيلي. وكان عالم آثار ذائع الصيت عالميا.

تطوع العـديد من يهود فلسطين للخدمة في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية. وتؤكد السجلات ان حوالي ١٠٠,٠٠٠ رجل وامرأة تقدموا للتطوع، لكن الحكومة البريطانية تحت تأثير وزارة الخارجية لم تشجع قبول المتطوعين من يهود فلسطين. وكان قد تقرر في البداية ان يقبل عدد من المتطوعين اليهود يساوي العرب. لكن عددا ضئيلا من العرب تطوعوا وهرب الكثيرون منهم من الخدمة. واخيرا، حين اضطرتنا الحاجة عند تقهقرنا الى الجبهة المصرية في نهاية ١٩٤١، وبفضل اصرار «تشرشل» الى حد كبير، قبلنا المزيد من المتطوعين اليهود. وفي النهاية، خدم ٣٠,٠٠٠ يهودي فلسطيني ، وفي ١٩٤٤ تشكل اللواء اليهودي من ٥٠٠٠ رجل. وحارب ذلك اللواء في ايطاليا، ولكن لم يكن لهذا اللواء ان يتشكل الا بعد الحاح من الزعماء اليهود، وبفضل تدخل «تشرشل» ايضا.

كان هناك الكثيرون من الرجال المعروفين الذين حاربوا في اللواء اليهودي. وكانوا يشكلون وحدة قتالية جيدة، لكن القلائل من الضباط سنحت لهم الفرصة التي اتيحت لي للعمل في مناطق عديدة. ولكن كان هناك شخص او اثنان، مثل الرئيس «هيرتزوج»، خدموا كضباط في فرقة الحرس المدرعة التي كان يقودها الفريق الشهير «هوروكس»، والتي كانت جزء من ثلاثين فيلقا.

في الأسـابيـع القليلة الأولى، قدم الى اسرائيل عدة آلاف من المتطوعين اليهود (الماحال)* من عدة بلدان. كان العديد منهم لديه خبرة بالحرب، ولكنها كانت محدودة في معظم الحالات. ولكن كان هناك جنود بارزون مثل العميد الأمريكي «ميكي ماركوس»، الذي كان واحدا من كبار ضباط الجنرال «كلاي» في غزو «نورماندي». ولكن «ماركوس» قتل بعد ايام من وصولي، حيث اطلق عليه النار جندي حراسة يهودي حين لم يستجب للنداء العبري. لم يكن العقيد «ماركوس» يتكلم العبرية او يفهمها.

في يونيو وصل «ديفيد سسمان»، الذي قابلته في جنوب افريقيا بعد المشاركة بين

«ماركس اند سبنسر» و «وولورث»، باعتباره متطوعا من الماحال. كان ملازما يقود سرية في كتيبة مدفعية. كنا نلتقي بين الحين والحين ليطلعني على ما يحدث في ميدان المعركة.

كانت لدى «بن جوريون» خبرة ضيقة النطاق في حرب العصابات والمقاومة السرية. لكن خبرته في الحرب واسعة النطاق كانت مقتصرة على خدمته كرقيب في الكتيبة اليهودية للجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى. كانت نظرة «بن جوريون» الي على انني جندي واسع الخبرة تعكس دون قصد الوضع العسكري لاسرائيل في بداية حرب الاستقلال.

كان «بن جوريون» مخطئا ولكن، اي انسان له تاريخي الحربي في ذلك الوقت كعضو في اسرة صهيونية شهيرة وصل الى رتبة عقيد في الجيش البريطاني. كان ليبدو اكثر اهلية لتقديم العون مما هو في واقع الأمر. وهكذا اخطر «بن جوريون» هيئة الاركان الاسرائيلية، وسجل هذه الكلمات في يومياته:

«يتم بموجب هذا تعيين «ماركوس سيف» مستشارا لوزير الدفاع لشئون النقل والامداد. ويخول سلطة تفقد موقف المؤن والامداد في المركز وفي شتى وحدات المرافق العسكرية (البرية والبحرية والجوية)، وتقديم المشورة للوحدات المذكورة، وتقديم تقرير الى وزير الدفاع بين الحين والآخر.

شعرت ان من واجبي ان اشرح لـ «بن جوريون» باعتباره وزير الدفاع انني، بوصفي ضابطا احتياطيا في الجيش البريطاني، لااستطيع ان اقسم يمين الولاء لدولة اسرائيل وانه لو عينني، فيجب ان يقبلني من منطلق الثقة. لكنه لم يلق اهتماما لهذا الأمر وقال «يحسن ان تذهب غدا لالقاء نظرة على الجبهات وتطلعني على رأيك».

كانت المنطقة المخصصة لدولة اسرائيل في ذلك الوقت تحتل مساحة جغرافية صغيرة لدرجة ان تنفيذ هذه التعليمات الأولى لم يستغرق وقتا. فقد كانت ابعد نقطة اتفقدها جهة الشرق تبعد اثنين وعشرين ميلا فقط. كانت معنوياتي تنحط اكثر فاكثر كلما انتقلت من نقطة الى اخرى على الجبهة. كانت معظم القوات الاسرائيلية التي زرتها تتمتع بروح معنوية عالية، لكن القلائل منهم حصلوا على قدر يذكر من التدريب. كان الكثيرون منهم من النزلاء السابقين في معسكرات التصفية ومخيمات اللاجئين في اوروبا. كما القت القوات البريطانية على عدد كبير منهم وهم في طريقهم الى فلسطين بعد الحرب، وأودعتهم معسكرات في قبرص، عادوا منها لتوهم. وكان معظمهم لايتقنون اللغة العبرية الى درجة تسمح بفهم الأوامر البسيطة التي تصدر. والى جانب من خدموا باللواء اليهودي، كان هناك عدد من مواليد فلسطين او الذين هاجروا اليها في وقت مبكر، ممن كانت لهم خبرة ممتازة في حرب العصابات. وكان بعضهم قد تلقى تدريبا على يد العميد الراحل «اورد وينجيت» صاحب الصيت في «بورما». وقد كان «وينجيت» ضابطا عظيما علم اليهود في فلسطين كيف ينصبون الكمائن لمن ينصبونها لهم ، اي العرب الذين كانوا ينصبون الكمائن باستمرار لليهود، ويهاجمون المستعمرات الزراعية اليهودية ايام الانتداب

البريطاني . والواقع ان «وينجيت» احسن تدريبهم، والأهم من هذا انه دافع عن قضيتهم كان يؤمن ان اليهود يجب ان تكون لهم دولة خاصة بهم، ويحب الا يترددوا في الاعلان عن ذلك امام اي انسان. ولاتزال اسرائيل مدينة لـ «وينجيت».

كان بين الوحدات اليهودية وحدة «بالماخ» الشهيرة، وهي نوع من قوات المغاوير، عدا ان اسلحتها كانت بدائية. فالبنادق المتوفرة لاتسد حاجة القوات. وانا لااتكلم هنا عن البنادق الآلية، وانما عن البنادق عتيقة الطراز ذات الخمس طلقات في الخزنة الواحدة. ولم تكن هناك مدافع او حتى دبابة واحدة . وكان لدى الاسرائيليين مدافع «هاون» مصنوعة محليا ذات مدى محدود، كانوا يسمونها «دافيدكا». كانت القذائف التي تطلقها هذه الهاونات محدودة المدى، رغم الضجيج المدوي المخيف الذي يصدر عنها. وأعتقد ان اكبر وافضل مدافعهم المضادة للطائرات كان الرشاشات عيار ٢٠ ملليمتر التي تطلق بكفاءة حتى ارتفاع لايتجاوز ١٢,٢٠٠٠ قدم . لم تكن لديهم طائرات حربية . كل ما كان لديهم هو طائرتا «دي سي ٣» قديمتان، وطائرتا «أنسون»، وطائرة «دي هافيلند» تستخدم في النقل، وطائرة «دي هافيلند» اخرى صممت لحمل اثنى عشر شخصا، وكانت تعد القاذفة الرئيسية لديهم. وكان لدى اليهود الى جانب ذلك حوالي ١٢ طائرة «اوستير» مداها ٣٠٠ ميل وسرعتها ٩٠ ميلا بالساعة. كان الاستخدام الرئيسي لهذه الطائرات في الحرب العالمية الثانية هو لتحديد مواقع المدفعية . وكانت قد جهزت للخدمة في ذلك الوقت من خلال تفكيك اجزاء حوالي عشرين طائرة من نفس الطراز كانت مملوكة لنوادي الطيران اليهودية. وكانت هذه الطائرات تشكل في بادىء الأمر «اسطول القاذفات» الرئيسي، حيث كانت القنابل زنة ٣٠٠ اوقية تقذف باليد من الطائرة. ومثلما لمست من خلال العمل والمراقبة المباشرة في منطقة الشرق الأوسط اثناء الحرب العالمية الثانية، كان العرب يملكون الكثير من الأسلحة وعددا من القاذفات والمقاتلات ، وعددا كافيا من الدبابات والعربات المدرعة. كما كان باستطاعتهم تجنيد عدد كبير من القوات في المعركة. وعدت الى مقر «بن جوريون» مكتئبا اخشى اوخم العواقب.

لم أكن قد اخذت في حسباني شجاعة الاسرائيليين وتصميمهم. فقبل توقف القتال كانوا قد تعرضوا لخسائر بشرية من الرجال والنساء والأطفال كانت ، بالقياس الى سكان بريطانيا، تعادل مليوني قتيل وجريح في المملكة المتحدة. ورغم ذلك فقد انتصروا.

واجهتني مشكلة وانا اهم بتقديم تقريري الى «بن جوريون». فرغم ان عدد البنادق مثلا لم يكن كافيا، فلم يكن هناك داع للضرب على وتر واحد بتكرار حقيقة معروفة جيدا، يتم من اجلها عمل كل شيء ممكن. كان الأجدى ان اتحدث عن مسائل يمكن علاجها بالاعتماد على موارد اسرائيل المتاحة. ولهذا قررت ان يكون اول تقرير لي هو حالة ما يسمى بالقوات الجوية الاسرائيلية. كان الاسرائيليون قد بدأوا في ذلك الوقت يشترون طائرات حربية مستعملة من اوربا. وسجل «بن جوريون» في يومياته بعض الملاحظات عن تقريري.

وقد يثير ما كتبه اهتمام اولئك الذين يودون ان يفهموا ما كان على الحكومة الاسرائيلية ان تتعامل ازاءه في ذلك الوقت.

ذهبت لمقابلة «بن جوريون» مع «سيسل مارجو»، وكان طيارا حربيا بارعا في الحرب العالمية الثانية، وقائد سرب في قوات جنوب افريقيا الجوية. الخميس ٢٢ يوليو ١٩٤٨:

جاءني «مارجو» و«سيف» يوم ١١. وكان بصحبة «مارجو» مساعده في جنوب افريقيا «تريفورسيسكين».

قدم لي «سيف» تقريرا عن نتائج استقصائه لوضع القوات الجوية. القوات الجوية ينقصها التمثيل المنسق لدى السلطات ـ الحكومة والجيش. الحكومة لاتدرك حاجات القوات الجوية. انهم يخصصون ميزانيات للحصول على الطائرات، وليس لأغراض تجهيز المطارات والتدريب والصيانة والادوات والاتصال او العربات.

قائد القوات الجوية لم يحصل على تدريب في القوات الجوية. ولا يوجد تخطيط في القوات الجوية. رغم ان هناك مجهودا طيبا على «مستوى القاعدة»، فالترتيبات على مستوى القمة غير لائقة ، رغم حصول بعض التحسينات مؤخرا. نقص الأدوات اليدوية يعطل عمليات الاصلاح. ينبغي ان يكون قائد القوات الجوية في مقر القيادة. قسم الامداد والتموين العام يجب ان يهتم فقط بالتجهيزات والمعدات الشخصية . المعدات التقنية يجب ان تكون من اختصاص فرع الامداد والتموين في القوات الجوية. الاتصال بين القوات الجوية ووكالاتها عبر البحار غير جيد.

المسألة تحتاج الى خدمة مراسلة اسبوعية . ادارة القوات الجوية وامدادها سيئان. الروح المعنوية طيبة في وحدات القتال، ولكنها ليست على ما يرام في الوحدات الأخرى. يجب على القادة ان يزوروا المطارات والورش. الطيارون لم يحصلوا على تدريب كاف على الطراز المستخدم . الاطارات تنفجر عند الهبوط، وقطع الغيار قديمة. الأداء جيد في الجو، لكن المشكلة تكمن في الصعود الى الجو.

ليس هناك تعاون بين المشاة والقوات الجوية والأسطول. حدث في بعض المناسبات ان اطلقت سفن الأسطول النيران على الطائرات الاسرائيلية. يجب تدريب الطواقم الأرضية اثناء فترة الهدنة. يجب تحسين المطارات ووسائل الاتصال، ووضع خطة للقذائف والاسلحة. الواقع ان ترجمة يوميات «بن جوريون» ليست دقيقة بالقدر الكافي. لكنها تبين مدى بدائية المعدات الاسرائيلية وقلتها. ليس لدىّ وثائق تسجيلية للتقرير الذي قدمته . لكنني اذكر انني قلت ان قائد القوات الجوية في ذلك الحين غير مناسب. وقد تم فصله من وظيفته خلال ثمانية واربعين ساعة. وفي تلك الفترة حصلت اسرائيل على واحدة او اثنتين من الطائرات المقاتلة الحقيقية المستعملة.

كان مقر القيادة العامة الاسرائيلية في ذلك الوقت موجودا في مبنى متواضع في وسط

«تل ابيب» كان يعرف باسم «البيت الأحمر». وبعد فترة ليست بالطويلة من وصولي تم نقله الى «رامات جان»، حيث المبنى متسع لايواء عدد من المصالح الحكومية، ومن بينها وزارة الدفاع. كان «بن جوريون» يمضي معظم وقته هناك، وكان مكتبي بالقرب من مكتبه. لكنني حصلت على مكتب آخر فيما بعد بالقرب من شارع «ديزنجوف» في وسط «تل ابيب». وكنت اقتسمه مع اثنين من كبار مساعدي «بن جوريون» المعنيين بالدفاع ، وهما «شكولنيك» و «كوزلوسكي». التقيت في لندن بعد بضعة اعوام بصديق قديم لم اره منذ فترة. وسألني في سياق الحديث: «بالمناسبة، ماذا حل بالرجلين اللذين كانا في مكتبك اثناء حرب كانا يبدوان مثيرين للاهتمام».

قلت له: لقد غيرا اسميهما وحققا نجاحا كبيرا.

فسألني: اتعني انهما نجحا لأنهما غيرا اسميهما؟

فقلت: «كلا. «شكولنيك» غير اسمه الى «اشكول» واصبح ثالث رئيس وزراء اسرائيلي. و«كوزلوسكي» غير اسمه الى «سابير» واصبح واحدا من زعماء اكبر حزب في البلاد، ماباي، ووزيرا للمالية وكبير مخططي التنمية الاقتصادية في اسرائيل.

«قدم «سابير» من بولندا عام ١٩٢٩ واشتغل عاملا في مزارع البرتقال في «كفرسابا» بالنهار، ومحاسبا في الليل. كان ضخم البنية عريض المنكبين اصلع الرأس وعريض الجبهة. كان اشبه بدبابة ضخمة، وكان يتحدث كالمدفع الرشاش. وحتى في شبابه كان مبتهجا بتلك القوة الجسمانية والعقلية، التي جعلته فيما بعد صراف الرواتب الحكومية بلا منازع طوال اكثر من عقد من الزمن. كان مهيب الهيأة، وزاد من هيبته قدرته على العمل بلا كلل لمدة ١٦ ساعة في اليوم. اما عن استقامته ، فقد كان يعيش في بساطة التطهريين حتى يوم وفاته. في الفترة التي عملنا فيها سويا، كان رئيس الامداد والتموين للهاجاناه (جيش الدفاع الاسرائيلي لاحقا). لكنه سرعان ماخلف «اشكول» كمدير عام للوزارة ، واصبح فيما بعد وزيرا للمالية.

حين كنا نعمل سويا في عام ١٩٤٨، كان «اشكول» المدير العام لوزارة الدفاع، قد جاء الى فلسطين من «اوكرانيا» في سن التاسعة عشرة. وحتى في تلك الأيام المبكرة كان يتمتع بتلك السجايا الأساسية - خفة الظل وتوافق الروح والموهبة في التوصل الى التسويات المرضية. الأمر الذي اسهم كثيرا في نجاحه ، وفي النقد الذي وجه اليه فيما بعد. اذكر حادثة معينة مع «اشكول» قبل نهاية اتفاق وقف اطلاق النار الأول بثمانية واربعين ساعة. كان ذلك عصر ٨ يوليو، حين قال «اشكول»: «دعنا نذهب الى احدى المزارع (كيبوتز) في الشمال». ولم تكن المزرعة بعيدة عن «داغانيا» التي كانت واقعة تحت الحصار. وصلنا الى هناك في ساعة متأخرة من النهار. وابتهج المستوطنون بقدومنا وبدت

معنوياتهم مرتفعة. وفي حوالي منتصف الليل خرق الأردنيون او السوريون وقف اطلاق النار، وبدأوا يقصفون المستعمرة. واتجهنا الى الخنادق، حيث قضينا الساعات الثلاث او الأربع التالية، في حين استمر القصف العنيف. وقبل بزوغ الفجر، قال المسئولون عن المزرعة انه من الأفضل ان نرحل والا كنا هدفا سهلا اذا صعدنا التل نحو الطريق الذي يؤدي بنا الى الجنوب تحت ضوء الشمس. واذ نحن نصعد التل تعطلت العربة. وكان «اشكول» اقل مني خبرة بميكانيكا السيارات. رفعت غطاء المحرك وليست لدي أدنى فكرة عما يجب ان افعله او ابحث عنه. وفجأة فتح العدو النار ، وبدأت القذائف تدنو منا بشكل لايطمئن. لم نستطع ان نفهم كيف كانوا يصوبون علينا بهذه الدقة رغم الظلمة. وذهبت الى مؤخرة العربة، فاكتشفت ان «اشكول» لايزال يدوس بقدمه على مكبح السيارة مما كان يجعل الضوء الخلفي الأحمر يتألق في الظلام ويجعلنا هدفا ممتازا. وبسرعةرفع قدمه عن المكبح مستخدما مكبح اليد، فانطفأت الأضواء . واقترحت ان نحاول ادارة المحرك مرة ثانية. وتنفسنا الصعداء حين انبعثت الحياة في المحرك. ورجعنا الى «تل ابيب» في حالة اسوأ، وقد ارهبتنا التجربة. وقد ظلت الصداقة تربطني بـ «اشكول» و «سابير» حتى وفاتهما.

بسبب مسئولياتي ، كان «بن جوريون» يدعوني للمشاركة في المناقشات المسائية التي كانت تدور اثناء حرب الاستقلال. كان يشترك في هذه المناقشات اربعة او خمسة اشخاص في العادة ـ «بن جوريون» و «شاريت» وزير الخارجية، و«كابلان» وزير المالية، و «يادين» رئيس الأركان، وشخص او شخصان آخران احيانا. كنا احيانا نناقش المسائل الاقتصادية، لكننا كنا نتحدث عادة عن الأحداث العسكرية ومتاعب اليوم، وعن خطط العمل المستقبلية. كانت كل واردات التموين العسكري والمدني على قلتها تأتي في تلك الفترة عن طريق «حيفا» في الشمال، وهو الميناء الوحيد العامل في الدولة الجديدة. وكان بالميناء اربعة ارصفة ترسو السفن بمحاذاتها لتفريغها. وكان يتم تفريغ كميات قليلة في الصنادل. لكن بصفة عامة كانت عدة سفن تنتظر التفريغ.

كان عرض اسرائيل عند النقطة الضيقة من السهل الساحلي الممتد من البحر وحتى الضفة الغربية التي كانت في يد العرب في ذلك الحين، يبلغ حوالي احد عشر ميلا. وكانت جبهات القتال الرئيسية والقطاع الأكبر من السكان في الجنوب . وكان على الامدادات مختلفة الأنواع ان تمر على امتداد ذلك الشريط الضيق. وقد اقلقني انه لو شن العرب هجوما عنيفا، فقد تنشطر اسرائيل الى نصفين، ولا يتسنى عندئذ تسليم الامدادات لا الى الجبهات الرئيسية ولا لأغلبية السكان اليهود. وقلت لـ «بن جوريون»: «من الضروري ان نجعل بعض السفن التي تنتظر التفريغ في «حيفا» تأتي الى تل ابيب ـ يافا ، ثم نفرغها في الصنادل. وبذلك ننشىء خطا مباشرا لامداد الجبهات الرئيسية لايعتمد على حيفا وحدها.

ورد «شاريت» الذي كان شديد التمسك بالأساليب القانونية: «المشكلة هي اننا بموجب قانوننا لانملك ان نأمر السفن التي تمدنا بالمؤن ان تنتقل من حيفا، حيث الأمان النسبي، الى مياه تل أبيب ـ يافا الأشد خطورة. ليس هناك ما نستطيع ان نفعله. كانت تل ابيب تتعرض للقصف من جانب طائرات العرب. ودار حديث لم يوصلنا الى شيء. وكان «بن جوريون» شديد الاعجاب بـ «تشرشل»، ليس بسبب دعمه العظيم والمستمر للصهيونية طوال عدة اعوام وحسب، وانما ايضا بسبب شجاعته واصراره ورفضه لقبول الهزيمة، وفوق كل ذلك بسبب استعداده لاتخاذ القرار الحاسم حين ينتاب التردد الناس من حوله وأدركت اثناء حرب الاستقلال ان «بن جوريون» يستجيب، في المناسبات القليلة التي ينتابه فيها التردد، لملحوظة مثل «اتعرف كيف كان «تشرشل» ليتصرف في مثل هذه الظروف؟». وفي تلك المناسبة قلت: «اتعرف ماذا كان «تشرشل» ليفعل في مثل هذه الظروف؟ كان ليصدر الأمر وينفذه بوسيلة او بأخرى، حتى لو بدا انه لا توجد وسيلة قانونية».

والتقط «بن جوريون» سماعة التليفون. ورغم ان الوقت كان متأخرا، اتصل بـ «ايموس لاندمان»، وكان رجلا ضخم الهيأة عظيم المقدرة، وكان مسئولا عن ميناء «حيفا». وسأله عن الوضع في «حيفا» فقال له «ان هناك أربع سفن يتم تفريغها، وست اخرى على ما اعتقد تنتظر التفريغ. فقال «بن جوريون»: «اريد ان تبحر اربع سفن جنوبا خلال ٢٤ ساعة لتفرغ حمولتها في منطقة تل أبيب ـ يافا. وحين قال «لاندمان» انه لايملك الوسيلة لحمل السفن على ذلك. رد «بن جوريون» قائلا: «عدني بان تفعل ما تراه ضروريا، على ان ترسل اربع سفن الى هنا».

وفي ظرف ٣٦ ساعة كانت سفينتان ترسوان فعلا في «يافا»، وقصفت الطائرات المصرية واحدة منهما دون ان يصيبها. وتم التفريغ بنجاح بل انه حقق فائدة اضافية. فعلى اثر هذا الحادث، حذرت بعض الحكومات الغربية العرب بأنه لو تعرضت للقصف اية سفينة تؤدي عملها بصورة قانونية، فان هذه الحكومات ستعتبر هذا العمل تحديا خطيرا على الأقل، ان لم يكن مبررا للحرب، يحتم اتخاذ اجراء مضاد. واصبحت سابقة التفريغ في تل أبيب ـ يافا امرا اعتياديا. ولحسن الحظ ان اسرائيل لم تنشطر نصفين.

كان «بن جوريون» في الأساس رجل سلام، كان مفطوما على القيادة في الحرب والسلم على السواء. خلال فترة الهدنة الأولى من يونيو ـ يوليو، هرب الاسرائيليون اربعة مدافع ميدان عتيقة الطراز. وكان حجمها صغيرا بحيث يمكن حملها في سيارة جيب لاطلاق النار على المواقع المكشوفة. لكن هذه المدافع الأربعة كانت تمثل اضافة حقيقية الى سلاح المدفعية الاسرائيلية التي كانت منعدمة تقريبا. وكان مراقبو الأمم المتحدة

ينتشرون على امتداد الساحل في فترة الهدنة، لأنه كان محظورا على الطرفين جلب اسلحة اضافية. ولم يكن ذلك يشكل مشكلة بالنسبة للعرب، الذين كان بمقدورهم جلب الأسلحة عبر بلدانهم. لكن المدخل الوحيد الى اسرائيل كان عن طريق البحر. وتقرر انزال المدافع بالقرب من «نتانيا»، ولذلك اقمت حفلا في دارنا في «تل موند» لمراقبي الأمم المتحدة المتمركزين في «نتانيا». ودعوت بعض الحسناوات اليهوديات، بعد التشديد عليهن بالا يسمحن بان يفض الحفل قبل الثالثة صباحا تحت اي ظرف من الظروف، حتى يتم انزال المدافع. وتم انزال المدافع بالفعل.

كانت القدس اليهودية لاتزال تحت الحصار، واقتصرت الجراية على ١٠٠٠ سعر حراري في اليوم، تحت تهديد احتمالات استسلام المدينة. كانت مستعمرة «داغانيا» وهي واحدة من اقدم المستعمرات واهمها في الشمال، واقعة تحت الحصار منذ عدة اسابيع، وكانت مطوقة بالسوريين الذين كانوا يهاجمونها بالمدافع والدبابات. ولم تكن المزرعة تملك ازاء ذلك الا البنادق والمدافع الرشاشة الخفيفة وقنابل المولوتوف. وكانت المستعمرة قد نجحت حتى ذلك الوقت في صد الهجمات. لكن «باراتز»، احد كبار اعضاء المزرعة وصديق «بن جوريون»، تسلل عبر الخطوط مستجديا العون قبل ان تستسلم المزرعة.

حين حصلنا على المدافع الأربعة، ذهبت مع «يادين» رئيس الأركان الى «بن جوريون» باعتباره القائد العام، وسألته ان كان يريد ارسال المدافع الى «داغانيا» او الى القدس ان امكن. فأجاب: اثنان الى «داغانيا» واثنان للقدس». وشرحنا ان المدافع الأربعة يجب ان توضع في بطارية واحدة حتى تحقق الفاعلية المطلوبة. وقال: «بن جوريون» انه يدرك ذلك مؤكدا انه يريد مدفعين في «داغانيا» ومدفعين في القدس. وتم ارسال مدفعين الى القدس، لكنهما تعطلا عند «اللطرون» ولم يصلا الى القدس لأنه تعذر دفعهما عبر الطريق المسمى «طريق بورما» الذي كان اليهود قد مدوه.

ووصل المدفعان المتجهان الى «داغانيا» مع كمية من الذخيرة في نفس اللحظة التي كان السوريون فيها يعدون لما يمكن اعتباره الهجوم الأخير بعدد من الدبابات وبقوة نيران لابأس بها. واطلقت القذيفة الإسرائيلية الأولى على المواقع المكشوفة لتصيب دبابة المقدمة السورية التي اشتعلت فيها النيران. وبعد دقيقة أو اثنتين اصيبت دبابة اخرى. وتقهقر السوريون الى غير رجعة. وظلت الدبابة المدمرة في «داغانيا» كتذكار حتى عام او عامين مضيا.

سألت «بن جوريون» فيما بعد لماذا قرر ارسال مدفعين الى القدس ومدفعين الى «داغانيا» معارضا نصيحتي ونصيحة «يادين». فقال: كنت اعرف اننا حتى لو وضعنا المدافع الأربعة معا فلن تحقق نفعا يذكر. كانت المدافع قديمة وصغيرة. لكن حين لايكون

لديـك سوى مدفـع آلي متوسط وبعض البنادق ورأيت قطعتي مدفعية تصلان ، وتجد حجمهما ضخما بالقياس الى الأسلحة التي لديك (مع قلة معرفتك بالمدفعية) فان ذلك يرفع معنوياتك كثيرا ويجعلك تقاتل باصرار اكبر.

لم يكن استيعاب «بن جوريون» للمسائل المالية يضاهي مهمة للحرب والسلام. كانت لديه مكتبة رائعة تغطي مجالات متنوعة من الموضوعات، بدءاً من التاريخ اليهودي وحتى الفلسفة الصينية. وكان قد قرأ كل كتاب فيها واستوعبه في ذاكرته القوية. كان يقوم في حالات نادرة بزيارات سرية الى انجلترا ، بغية زيارة المكتبات، وخاصة مكتبة «بلاك ويل» في اوكسفورد. وقد اخبرني سكرتيره «موشين» عام ١٩٥٠ ان «بن جوريون» ذهب في احدى المناسبات المعينة الى مكتبات اكسفورد بحثا عن الطبعات القديمة من الكتب الكلاسيكية التي كان يعكف على دراستها في ذلك الحين. وبعد عودته الى القدس ، كان يتفاخر امام وزيـر المالية «العازر كابلان» بما اشتراه، وهو يشرح له بحماس الصفقة الرابحة التي انجزها. وساله «كابلان»: كيف دفعت ثمن هذه الكتب؟»، فأجاب «بن جوريون» ببساطة: دفع ماركوس سيف ثمنها هناك، وسوف ارد له القيمة بالجنيه الاسرائيلي»

فقال «كابلان»: اتعرف انك خالفت التعليمات المتعلقة بالعملات الأجنبية لفعلتك هذه؟».

فرد «بن جوريون»: انا لاأرى انني فعلت ذلك. ومن عساه يعنيه ان «ماركوس» دفع ثمن الكتب في انجلترا وانني سددته له في اسرائيل؟». فقال «كابلان»: انا يعنيني الأمر باعتباري وزيرا للمالية. لقد انتهكت القانون بتهريبك العملة خارج البلاد».

وكان كلام «كابلان» عبثا. فلم يقبل «بن جوريون» ان يصدق انه اخطأ. وظل يكرر «ومن يعنيه الأمر؟».

ولما يئس «كابلان» ارسل في طلب «دوليك هوروتيز» الذي كان مديرا عاما لوزارة المالية، طالبا اليه ان يشرح لـ «بن جوريون» المخالفة التي ارتكبها. وجاء «هوروتيز» من مكتبه وبذل اقصى جهده. لكنه عجز عن اقناع «بن جوريون» بأنه خالف القانون. ويئس «كابلان» و«هوروتيز» في النهاية، وقررا مقاضاة المخالف.

كنت على علاقة طيبة لـ «حاييم وايزمان» الذي كان اول رئيس لاسرائيل في ذلك الوقت. ولم تكن العلاقة وثيقة بين «بن جوريون» و «وايزمان». اعتقد ان «بن جوريون» كان يغار من «وايزمان» بعض الشيء، في حين لم يكن الأخير يقدر سجايا الأول تمام التقدير. اذا كان هناك شخص نقول انه الذي اخرج اسرائيل الى الوجود، فقد كان «وايزمان» ذلك الشخص. فهو الذي ضمن اصدار وعد «بلفور»، الذي وعد قبل ثلاثين عاما بانشاء وطن قومي لليهـود في فلسـطين، وكان بمثابة اول خطوة نحو انشاء دولة يهودية. وكان «بن

جوريون» في ذلك الوقت رقيبا في الجيش البريطاني. وكان «وايزمان» هو الذي اقنع الرئيس «ترومان» شخصيا بوجوب اعتراف الولايات المتحدة بدولة اسرائيل الجديدة في ١٤ مايو ١٩٤٨. ومن الجانب الآخر، فان «بن جوريون» كرئيس للوزراء ووزير للدفاع هو الذي قاد نضال اسرائيل ، من اجل البقاء اولا ثم حتى النصر، ضد الانقضاض العربي. كان «بن جوريون» يقود النضال السياسي والعسكري في فلسطين منذ اعوام عديدة، حتى برز كقائد عسكري وسياسي لاسرائيل. اما الرئيس الاسرائيلي فهو رجل بلا سلطة سياسية ، رغم ان من حقه التدخل في أوقات الأزمات لجمع زعماء الأحزاب معا، مثلما فعل الرئيس «هيرتزوج» مؤخرا. ويصبح نفوذه بالغ الأهمية في مثل هذه الظروف.

حين كنت اذهب لمقابلة «وايزمان» في بعض الأحيان كان «بن جوريون» يسألني عن وجهتي ، فأقول له انني ذاهب لزيارة «موسى العصر الحديث». وكان ذلك يغيظه فيسألني: اتعني انك ذاهب لمقابلة الرئيس؟ «فكنت ارد: اجل فيسألني، ومن اكون انا؟، فاجيب: انت «يشوع» العصر الحديث». ولم يكن ذلك يسره، لأنه كان يعتبر «يشوع» اقل اهمية من «موسى».

كان «وايزمان» دائم السعي نحو الاتفاق مع «بريطانيا»، وكان امله لسنين طويلة ان تصبح الدولة اليهودية في فلسطين «دومينيون» الكومونولث الثامن وثيق التحالف مع «بريطانيا»، الذي يساعدها في حماية «قناة السويس»، وهو الحلم الذي لم يتحقق. كان دائم التحدث الينا عن هذا الحلم، وكان شديد الايمان ببريطانيا. اما «بن جوريون»، فرغم اعجابه الشديد بكل ما هو بريطاني، فهو لم يكن يثق بالحكومة البريطانية، وخاصة وزارة الخارجية، لأنه يعتقد ان العديد من كبار مسئوليها كانوا يؤمنون طوال الثلاثين عاما التالية لاعلان بلفور، ان ذلك تعهد ما كان ينبغي لبريطانيا ان تأخذه على نفسها. ولاشك ان كبار مسئولي الخارجية البريطانية كانوا بعيدين عن تقديم اي عون يذكر في تنفيذ اعلان بلفور. كان «بن جوريون» يدرك ذلك، لكن «وايزمان» ابى ان يصدقه. وفي الفترة المؤدية الى تأسيس الدولة، كان دعم «وايزمان» لبريطانيا يكلفه ثمنا غاليا من حيث نفوذه في العديد من الدوائر اليهودية . وكان نفوذ «بن جوريون» يتزايد في الوقت ذاته.

قبل حوالي عامين من تلك الفترة، ذهب «بن جوريون» الى لندن باعتباره واحدا من اكبر الزعماء اليهود، ليطلب الى «بيفن» تقديم ذلك الدعم للقضية اليهودية الذي وعدت به حكومة حزب العمل. ولم يرفض «بيفن» وحده مقابلة «بن جوريون»، ولكن رفض كل زعماء حزب العمل مقابلته، باستثناء «ويليام جويت» رئيس مجلس اللوردات. وآمن «بن جوريون» ان البريطانيين قد فعلوا الكثير لمساعدة العرب، في الوقت الذي يذيعون فيه امام العالم انهم سيقفون موقف الحياد بين اليهود والعرب. وكان يؤمن ان حكومة حزب العمل قد

وضعت النفط العربي في مقام اعلى من وعودها ومبادئها. ورغم انه كان اشتراكيا مقتنعا، فهو لم يكن يطبق نظرياته دون اعتبار للعواقب. وطوال فترة عمله ظل يحارب المتطرفين داخل حزبه وخارجه. وكان يؤمن بامكان تحقيق السلام مع العرب، وناضل من اجل ذلك. كان يعتقد ان نمط الحياة البريطانية ونظام حكومتها هما الأمل في عصره.

التقيت بـ «موشي ديان» مع «يادين». كان من يهود «الصابرا» المولودين في فلسطين عام ١٩١٥. وفي عام ١٩٤٨ كان قد بدأ يضع الغمامة على عينه، ليغطي ما حل بها اثناء محاربته مع البريطانيين في حملتهم على لبنان وسوريا عام ١٩٤١. كان قد التحق بجيش الدفاع الاسرائيلي (الهاجاناه) في صباه. وكان واحدا من اوائل المتطوعين في فرق العمليات الليلية الخاصة تحت قيادة «وينجيت». كان الكثيرون يعتقدون انه يضع الغمامة السوداء على عينه لمجرد الدعاية والشهرة. والواقع انه كان يحتقرها لنفس هذا السبب. كان يجتذب الشهرة مثلما تجتذب الشمعة الفراشات. رغم انه كان خجولا نسبيا في واقع الأمر ورغم ذلك فقد كان سليط اللسان لكن بأسلوبه الهادىء، وكان صريحا مع من لا يوافقون مزاجه. وحتى في تلك الايام المبكرة، حين دفع الخوف على المستقبل بعض الاسرائيليين الى العدوانية، كان «ديان» مثل «بن جوريون» متواضعا في آماله ونواياه. كان مزارعا وجنديا وسياسيا. وبعد استقالته من منصبه كرئيس للأركان اصبح وزيرا للزراعة، ثم الدفاع، ثم الخارجية. كان هدفه هو أمن اسرائيل، ولم تكن ميوله توسعية. وكانت وفاته المبكرة خسارة فادحة. ان الكتابة عن «موشي ديان» تقودني مباشرة الى التفكير في «شمعون بيريز» صديقه وزميله لسنوات عديدة. كان «بيريز» اصغر المجموعة. ولد في بولندا عام ١٩٢٣. وفي ١٩٤٧، حين كان في الرابعة والعشرين، اختاره «بن جوريون» ليكون مسئولا عن الاسلحة والايدي العاملة في قيادة جيش الدفاع (الهاجاناه).

وكان في التاسعة والعشرين حين اصبح مديرا عاما لوزارة الدفاع. وحين كان «بن جوريون» وزيرا وقائدا عاما للقوات، كان يدين بالكثير لـ «بيريز» الذي كان مسئولا الى حد كبير، قبل حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ عن تحقيق ذلك التعاون الوثيق مع الفرنسيين الذي ادى الى تزويدهم اسرائيل بالأسلحة التي ساعدت كثيرا على النصر الساحق في تلك السنة.

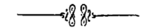
في تلك الأيام المبكرة، التقيت بكل من «جولدا مائير» و «أبا ايبان» وتوطدت صداقتي بهما. وفي ١٩٤٨ اصبحت «جولدا» اول سفيرة اسرائيلية في «موسكو». وقد توثقت معرفتي بها في العام التالي، حين تم انتخابها في الكنيست واصبحت وزيرا للعمل. وسارت علاقتنا على ما يرام. ويرجع ذلك نوعا ما الى اعجابها بنشاط والدتي. وفي ١٩٦٥ انسحبت من الحياة السياسية، ولكن طلب اليها العودة، فعادت على مضض حتى اصبحت رئيسة للوزراء. ورغم عمق معتقداتها الاشتراكية فقد كانت موضوعية. سألتني قبل وفاتها

مباشرة ان كنت قد التقيت بمسز «تاتشر»، التي زارت اسرائيل حين كانت وزيرة للتعليم في حكومة «هيث». فقلت انني قابلتها لكنني لاأعرفها تمام المعرفة. ولما سألتها لماذا تريد ان تعرف كان ردها: في رأيي انها افضل زعيم سياسي بريطاني قابلته منذ احترفت السياسة.

فقلت: انما تقولين هذا لأنك امرأة تتكلم عن واحدة من بنات جنسها. فقالت: انت تعرفني منذ اكثر من عشرين عاما، وتدرك انني لست ممن يقال عنهم مثل هذه الملاحظات. واعتذرت لها.

عرفت «ابا ايبان» في عام ١٩٤٨، حين كان اول مندوب لاسرائيل في الأمم المتحدة وهو المنصب الذي جمع معه منصب سفير اسرائيل في واشنطن عام ١٩٥٠. وفي عام ١٩٥٨، بعد اعوام من عودته لاسرائيل، توثقت صلتي به حين تولى منصب رئيس معهد وايزمان للبحوث العلمية لمدة ثمانية اعوام. ولد «ابا ايبان» في «كيب تاون»، وجاء الى لندن في سن السادسة. وحصل على منحة دراسية في كيمبريدج، حيث كان رئيسا لاتحاد الطلاب. وحصل على تقدير امتياز في ثلاث مواد، وتم انتخابه زميلا ومعيدا في كلية «بمبروك». وهو خطيب بارع، يتقن العربية ضمن اللغات التي يجيدها. وقد اصبح وزيرا لخارجية اسرائيل والديبلوماسي الرائد بها.

من رفاق حرب الاستقلال الذين لا زلت اعمل معهم «تيدي كوليك» الذي يحتل منصب عمدة للقدس منذ اكثرمن عشرين عاما. لكنني سأتحدث عنه بمزيد من الافاضة لاحقا.



الفصل الثامن

بعد اعلان قيام دولة اسرائيل، بدأت الحكومة البريطانية في سحب قواتها واعادتها الى الوطن. وكان واضحا ان سحب كل القوات يتطلب بعض الوقت. ولكن بدا للمراقبين الاسرائيليين ان معدل الاخلاء كان بطيئا بشكل مستغرب. وعلمت وزارة الدفاع الاسرائيلية بعد اربعة اسابيع من اعلان الانسحاب انه لايزال هناك حوالي ١٥,٠٠٠ جندي في «حيفا» تحت قيادة الجنرال «مكميلان». وبدأ «بن جوريون» يشك انهم يعتزمون البقاء هناك. وفي منتصف يونيو قال لي: «اعتقد انكم معشر البريطانيين لن تخرجوا من اسرائيل. سوف تبقى قواتكم في مقاطعة «حيفا» حتى يسلط العرب خناجرهم الى نحورنا، ثم تنتظر الحكومة البريطانية ان نركع أمامها متوسلين اليها ان تبقى وتسترد انتدابها على فلسطين لتحكمها ثانية». فقلت له انني لا أشاركه الرأي. «دعني اذهب الى الجنرال مكميلان لأستفسر منه عن خططه. انني لاأعرفه بصفة شخصية، لكنه يعرفني ويعرف انني هنا ولماذا». وهكذا ، بعد موافقة «بن جوريون» ذهبت لمقابلة «مكميلان». واخذت السيارة الى «حيفا»، حيث استقبلني بترحاب وقدم لي كأسا وسألني عما يستطيع ان يؤديه لي. وبدون مقدمات سألته مباشرة اذا كانت القوات البريطانية تنوي الانسحاب. فقال: «اجل، سنكمل انسحابنا خلال عشرة ايام تقريبا، وسأكون آخر جندي بريطاني عامل يغادر البلاد». وكان ذلك هو ما حدث فعلا، مثلما اخبرني بنفسه بعد عدة اعوام. كان معنى ذلك ان الانسحاب النهائي سيكون في ٣٠ يونيو.

سألته عن رأيه في الموقف عامة فأجاب «سوف يكون القتال عنيفا، وسوف يكسب اليهود، وهذا هو ما يجب.

سألته: «لماذا؟ ان العدو يفوقهم عددا وعدة وتخطيطا. ورغم انهم ارغموه على التقهقر على جبهتين، فان الفيلق العربي لايزال في «اللطرون»، والسوريون بالقرب من

«داجانيا»، والمصريون يقتربون من «تل ابيب»، والجيش المسمى بجيش التحرير لا يزال في «الجليل». ورد «مكميلان»: «اجل، لكن اليهود اصحاب قضية ويعرفون ما يحاربون من اجله. انهم يحاربون من اجل البقاء. ومهما تكن الاحتمالات ضدهم فسوف يكسبون. ويؤسفني اننا لانقدم لهم المساعدة». فقلت له: «سيدي الجنرال. المفروض الا نساعد ايا من الجانبين، فنحن محايدون».

فقال: «"هذا هو المفروض. ولكن هل نحن محايدون فعلا؟"».

وفرغنا من تناول الشراب، ثم اصر على ان يقلني احد ضباطه بسيارة جيب الى الفندق. وبعد دقائق من وصولي الى غرفتي بالفندق، واذ كنت استعد للعودة الى «تل ابيب»، انفتح باب الغرفة بقوة واندفع ثلاثة رجال الى الداخل. كانوا من جماعة «ارجون تفائي ليئومي»، وهي كبرى منظمتين ارهابيتين ـ ثانيهما «عصابة شتيرن» ـ كانتا تعملان بشكل مستقل مسببتين حرجا للحكومة الاسرائيلية الرسمية والقوات المسلحة. وطلبوا ان يعرفوا ماذا كنت افعل مع قائد القوات البريطانية. فاخبرتهم انني جئت الى حيفا كمندوب عن رئيس الوزراء، وانني في سبيلي الى العودة الى «تل ابيب» لأقدم تقريرا لرئيس الوزراء شخصيا. واكدت ان هذا التقرير خاص برئيس الوزراء وحده، وانه من الأفضل ان يغربوا عني. وفعلا ذهبوا.

قابلت «بن جوريون» صباح اليوم التالي وقلت له: «نحن البريطانيين سنرحل عنا، نحن اليهود، خلال عشرة ايام. والأهم من ذلك ان الجنرال «مكميلان» يقول اننا معشر اليهود سوف نكسب».

فقال «بن جوريون»: طبعا سنكسب. هل ساورك شك في هذا؟

فقلت: طوال الأسبوعين الماضيين كنت افكر كيف سأخرج من البلاد على قيد الحياة.

في ٢٢ يونيو، واثناء اول وقف لاطلاق النار، وجدت نفسي شاهدا على حادث كان من شأنه ان يقضي على الدولة الوليدة . كانت جماعة «ارجون» قد اشترت من الولايات المتحدة حاملة لانزال الدبابات اطلقوا عليها اسم «ألتالينا»، وشحنوها بالأسلحة والذخائر ومختلف انواع المتفجرات لحساب اعضاء جماعتهم في اسرائيل. كانت الصفقة قد تمت قبل ميلاد الدولة بأيام قليلة، حين بدت الحرب الشاملة وشيكة، وقبل ان يتم تشكيل حكومة . وفيما كانت «ألتالينا» في الطريق الى اسرائيل، دارت مناقشات بين «بن جوريون» واعضاء حكومته الجديدة وبين «ارجون»، في محاولة لاقناعهم بتسليم «ألتالينا» ومحتوياتها الى حكومة البلاد صاحبة السلطة. ولم يتم التوصل الى قرار. ووصلت «ألتالينا» مساء ١٢ يونيو، اثناء فترة الهدنة الاولى، الى «كفارفيتكين»، على مسافة بضعة اميال شمالي «تل ابيب». وحين

رفضت جماعة «ارجون» تسليم السفينة او محتوياتها، اندلع اشتباك بين المجموعة وقوات جيش الدفاع، قتل فيه ثمانية اشخاص وجرح اربعة وعشرون. وتم سحب السفينة، حيث رست صباح اليوم التالي على بعد مائتي او ثلاثمائة ياردة من تل أبيب. واستمرت المفاوضات طوال النهار لتسليم السفينة ومحتوياتها الى الحكومة .كنت قد ذهبت في صباح ذلك اليوم للاجتماع ب ـ «بن جوريون». وفي منتصف النهار اقلني الى مكان يبعد ثلاثمائة او اربعمائة ياردة عن البحر في الشارع الرئيسي للمدينة. وهممت بالسير الى فندق «كيت دان» الصغير على شاطىء البحر، حيث كنت اقيم. وما ان انصرف «بن جوريون» بسيارته حتى امطرني وابل من طلقات الرشاشات والبنادق جعلني ازحف على اربع لمسافة مائتي ياردة حتى وصلت الى الفندق. كنت قد حوصرت وسط مرمى النيران خلال معركة بين «ارجون» والجيش الاسرائيلي. كانت «ألتالينا» الراسية بالقرب من الشط قد تعرضت لهجوم واندلعت فيها النيران. وفي الفندق الذي كانت المعركة تدور من حوله وجدت اثنين من اعضاء «ارجون»، ابلغاني ان السفينة محملة بقنابل زنة ٥٠٠ رطل ومواد شديدة الانفجار. وتذكرت في هذه اللحظة انفجار «باري»، وقررت ان من الأفضل اخلاء الشوارع القريبة. فقد خشيت ان تقع خسائر فادحة في الأرواح اذا ما انفجرت السفينة. ولكن تبين ان عضوي «ارجون» قد بالغا في وصف حمولة السفينة، فوصفا القذائف زنة ٢ رطل بأنها ٥٠٠ رطل. وغرقت «ألتالينا» في آخر الأمر، بعد ان قتل ستة عشر شخصا آخرين وجرح خمسة وسبعون فيما كاد ان يتحول الى حرب اهلية، على بعد عشرين ميلا من العرب. تم القبض على العديد من اعضاء «ارجون» نتيجة لهذا الحادث. وقد كان لهذا التصرف الحازم من جانب حكومة «بن جوريون» ضد تلك الجماعات المنشقة آنذاك الفضل في ارساء الحكومة الاسرائيلية ابنة الشهر الواحد، كما كان له مغزاه التاريخي. ولم تعد جماعتا «ارجون» و«شتيرن» مقبولتين كمنظمتين مستقلتين لهما قياداتهما الخاصة. على مدى الشهرين التاليين ، تقدم الاسرائيليون على الجبهات كلها، وتم رفع حصار القدس . وفي ٩ يونيو ، بعد ثلاثة اسابيع ونصف من بدء القتال، اتفق العرب والاسرائيليون على وقف اطلاق النار لمدة شهر، بناء على قرار من مجلس الأمن. واستؤنفت المعارك بعد شهر. وكانت معدات اسرائيل وموقفها العام في تحسن. وحين قبل الطرفان وقفا ثانيا لاطلاق النار في ١٨ يوليو، كانت القوات الاسرائيلية قد خرجت عن نطاقها واستولت على بلدتي «الرملة» و «اللد» (التي اصبحت منذ ذلك الحين المطار الرئيسي)، كما استولت على «الناصرة». وهجر عشرات الآلاف من العرب ديارهم. واكتنفت الشكوك مقدرة العرب، او رغبتهم، في محاربة اليهود في اسرائيل. فقد كانت الانقسامات في الآراء على مستوى القيادات العليا العربية تضعف من جهدها الحربي.

ولم يعد هناك ادنى شك في مقدرة الاسرائيليين على مقاومة اية محاولة لالقائهم في البحر.

كان «بن جوريون» يدرك ان ذلك لن يكون اكثر من مجرد السكون الذي يسبق العاصفة. فعكف على تحصين دفاعات اسرائيل. وتحسبا لاقدام العرب على محاولة واسعة النطاق لقطع خط الامداد بالمؤن والعمالة الآتية عن طريق البحر، طلب الي ان ابحث فيما يمكن عمله لتقوية قدرات الأسطول الاسرائيلي.

وزارة الدفاع

٢٧ ـ ٧ ـ ٤٨

الى ماركوس سيف

صورة الى الأسطول

صورة الى القيادة العامة

انت مكلف بتفقد حالة الأسطول من حيث البناء، ونظام الادارة، والاجراءات والضبط والربط، والمعدات والتسليح، والتموين والاتصالات، والتخطيط، والتشغيل، وكفاءة الأسطول البحري في الاطار العام للدفاع. على ان تقوم استنتاجاتك وتوصياتك.

ولك السلطة في زيارة اي ضابط او موظف في الأسطول، الى جانب ضباط القيادة العامة، للاستماع الى اقوالهم وآرائهم.

التوقيع

ديفيد بن جوريون

ثم سجل في يومياته فيما بعد ما يلي:

ـ الأسطول هو اقل المرافق امتلاكا للرجال والخبراء المدربين واصحاب المؤهلات. لكن هناك اشخاصا ذوي خبرة قتالية بحرية في طريقهم الى الحضور لدعمه. انهم لايلقون معاملة لائقة، الأمر الذي يخيب آمالهم. «سيف» يقترح ان يتولى «هاريس» امر «جاهال»... وفي رأي «سيف» اننا ينبغي الا نحصل على سفينة لاجئة اخرى، وانما يجب ان نركز على الأربع التي لدينا بالفعل، ونحولها الى بوارج حربية. وفي مجال العمليات المشتركة بين القوات المسلحة البرية والأسطول، يقترح تعيين «شوماخر» الذي تلقى تدريبا في هذا المجال في الأسطول البريطاني. «كلاين» متحمس، لكنه قليل الخبرة. التنسيق بين الأسطول والجيش منعدم. (سيف) يعتقد ان «شيلومو شامير» يجب ان يعمل كحلقة اتصال بين الأركان العامة والأسطول والقوات الجوية. يجب ان تكون مدرسة المدفعية

مشتركة بين الجيش والقوات الجوية والأسطول، بحيث يتخصص كل في مجاله فيما بعد. هذا هو النظام بالنسبة للرادار والاتصالات وما اليه.

كانت الجهود جارية في ذلك الوقت لجلب المزيد من الطائرات الحربية الى اسرائيل. فجاءت قاذفتان امريكيتان من طراز «ليبراتور»، وتم احضار بعض مقاتلات سلاح الجو الألماني القديمة من تشيكوسلوفاكيا، وحملت طائرات النقل من طراز سي ٤٦ اجزاء هذه الطائرات. وقد هبطت الطائرات على اضواء المشاعل في شمال النقب (ليس بعيدا عن قاعدة مقاتلات مصرية رئيسية)، وتم نقل محتوياتها الى مطار شمالي تل أبيب لتجميعها هناك. وهناك قابلت «عزرا وايزمان»، ابن اخ «حاييم وايزمان»، الذي اصبح فينا بعد قائدا بارزا للقوات الجوية الاسرائيلية ووزيرا للدفاع.

كان قد تطوع في القوات الجوية الملكية في الحرب العالمية الثانية، وكان طيار مقاتلات بارعا خدم في عدد من المناطق، من بينها «بورما». وهو رجل ذو جاذبية ومقدرة كبيرتين، احمل له الحب والاحترام، ولازلت التقي به بانتظام. حتى تم تجهيز هذه المقاتلات للتشغيل. كانت القاذفات العربية، المصرية اساسا، قد هاجمت تل أبيب واجزاء اخرى من اسرائيل، دون ان تلقى جزاءها. وفي صباح احد الأيام، كانت هناك قاذفتان عربيتان تحلقان في تكاسل حول تل أبيب، وتلقيان قذيفة هنا وقذيفة هناك، دون ان تطالهما المدافع الآلية الاسرائيلية المحدودة. واصابت احدى القنابل طابورا من الأشخاص الواقفين في انتظار الحافلة، فوقع عشرون منهم بين قتيل وجريح. وعلى غرة اقتربت مقاتلتان من شمالي المدينة. حسب العرب في بداية الأمر انهما مقاتلتان مصريتان، ولكن سرعان ما اكتشفوا انهما اسرائيليتان، فدارت الطائرتان على عقبيهما وهربتا في اتجاه الجنوب. ورأيت واحدة منهما تتعرض للاصابة فوق «يافا»، في حين اسقطت الأخرى على بعد بضعة اميال في ريحوفوت.

وكانت تلك آخر مرة تقصف فيها الطائرات العربية تل أبيب.

كان شعورا عظيما ان يكون لديك مثل القوات الجوية وعدد اكبر من العربات التي تدعمها على الأرض. لكن اسرائيل كانت تعاني عجزا شديدا في الوقود. كنت قد اجريت مسحا على وضع الامداد، ووجدت ان شركة «شل» قد افرغت كل الخزانات الموجودة في مصافي «حيفا» قبل رحيلها. لكن احد المهندسين الاسرائيليين ابلغني ان الرواسب الطفلية المتبقية في قيعان الخزانات يمكن ان تحتوي على بعض البترول الذي يمكن تصفيته، مع المجازفة باتلاف الخزانات المملوكة لشركة «شل». وأبلغ «شاريت»، وزير الخارجية القانوني المتزمت المجموعة غير الرسمية التي وصفتها آنفا اننا لانستطيع المجازفة باتلاف ممتلكات «شل». ورأى «بن جوريون» اننا يجب ان نخاطر، وأيدت رأيه . ونجحنا في تصفية

الخزانات، واعتصرنا بضع مئات الأطنان من الوقود الصالح للاستخدام، دون الحاق اي تلف بالخزانات.

وخففت هذه المناورة من حدة العجز لفترة محدودة. كما تم احضار بعض الوقود من المكسيك. لكن بقاء اسرائيل كان يتطلب امدادا اكبر بكثير. وطلب «بن جوريون» الى «فيلكس شينار»، وكان واحدا من اقدر الاسرائيليين المهاجرين من المانيا، ان يسافر الى «رومانيا» لشراء الوقود. وسافر على متن طائرة دي سي ٣ واحضر كمية لابأس بها، بعد ان دفع ثمنها نقدا. لم تكن اسرائيل تود ان تعطي ايا من دول الكتلة الشرقية حجة للحصول على تعويضات سياسية في مقابل صفقات بالدين. فقد خفت روسيا الى الاعتراف باسرائيل اعتقادا منها ان اسرائيل يمكن ان تصبح حليفا له قيمته بالشرق الأوسط، اذا ما أدارت بريطانيا لها ظهر المجن. وكان «بن جوريون» يعي ذلك، ويرتاب بشدة في دوافع روسيا. ولذلك كان آخر ما يفكر فيه هو ان يذهب الى احدى دول الكتلة الشرقية مستجديا في مذلة. ولذلك كان حريصا على دفع قيمة اية مشتريات من الكتلة الشرقية. وبحثت مع «بن جوريون» رغبتي في العودة الى لندن لبحث امكانية شراء وقود لاسرائيل من المملكة المتحدة، فحبذ الفكرة وهكذا حلقت عائدا الى الوطن في نهاية سبتمبر.

قدمت نفسي الى «سيمون فوس»، رئيس شركة ترينداد للنفط، وحددت موعدا معه يوم الجمعة التالي على وصولي. واطلعته على الموقف الاسرائيلي، فأبدى تعاطفا مع طلبي. لكنه قال ان تحركات ناقلاته محدودة بقيود معينة، فلم يكن مسموحا لها بالخروج عن نصف الكرة الغربي، الأمر الذي الغى احتمال مجيئها الى اسرائيل. ولكن رغبة منه في مساعدتي، اتصل على الفور بسير «فرانك هوكوود» الذي كان حينها من كبار مديري شل في ذلك الوقت، وطلب منه ان يستقبلني. ودعاني سير «فرانك» على الفور الى مكتب شل الرئيسي في ستراند. وحين التقيت به، رويت له الحكاية برمتها، بدء من تصفية الخزانات في «حيفا» وانتهاء بخوف من اسرائيل من التورط في بدائل سياسته اذا ما حاولة شراء المزيد من النفط من الدول الشرقية. واخبرني سير «فرانك» ان شل على اتم الاستعداد لبيع النفط الى اسرائيل، غير ان وزارة الخارجية تمنعها من ذلك. وقال ان بمقدوري استخدام هذه المعلومات ان شئت، على انه يفضل الا أبوح بمصدرها الا اذا وجدت هذا ضروريا فعلا.

وبعد ساعة ، وقبل مغادرة لندن الى اسرائيل عن طريق باريس، حيث كانت الأمم المتحدة مجتمعة في «باليه دي شايلو» لبحث قضية الشرق الأوسط، ذهبت الى المكتب لتناول الغداء مع ابي و «سيمون». ولدى وصولي وجدت عندهما ضيفا. كان مستر «بيلي»، الذي صار فيما بعد سير «هارولد بيلي» سفيرنا في مصر، وكان مسئولا عن ادارة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية، ومستشار الوزير الخاص لشئون فلسطين. وكانت مصادفة

رائعة من تلك المصادفات التي لاتحدث الا في الحياة الحقيقية. فقد كان هو المسئول الى حد كبير عن حظر بيع النفط الى اسرائيل. وسألته اذا كانت وزارة الخارجية تريد ان تعطي روسيا مدخلا الى الشرق الأوسط، وهي المنطقة التي كانت معارفهم فيها قليلة، والتي كانوا قد فشلوا حتى ذلك الحين في الحصول على اي دعم منها. وكان رده: «كلا بالطبع. ماذا تعني؟». قلت: «لماذا اذن تأبى وزارة الخارجية السماح لشركات النفط البريطانية ببيع نفطها الى اسرائيل؟ سوف يضطر الاسرائيليون الى اللجوء الى الكتلة الشرقية. اتدرك ان سياستكم من شأنها ان تخلق تابعا روسيا رغم انفه في الشرق الأوسط؟

وتظاهر بالاندهاش وقال: هل انت جاد فيما تقوله حين تخبرني ان وزارة الخارجية قد اوقفت مبيعات النفط الى اسرائيل؟ ينبغي الا تصدق مثل هذه الشائعات او الروايات الخرافية»، وسأظل اذكر هذه العبارة حتى آخر العمر.

وعند هذه النقطة وجدت المبرر للكشف عن مصدري، فحدثته عن زيارتي لشركة شل قبل اقل من ساعة ونصف، وعما قاله سير «فرانك هوبوود». فقال في حرج: «الحقيقة ان شل ربما تكون قد سألتنا المشورة، وكان ضروريا بالطبع ان نقول لهم ان هناك خطرا على ناقلاتهم اذا ما باعوا النفط للاسرائيليين، في الوقت الذي تحارب فيه اسرائيل العرب. لأنهم بذلك سيدخلون منطقة قتال لا نستطيع مدهم فيها بالحماية». واجبته بان «حيفا» خالية من المخاطر وان سفنا من بلدان كثيرة تفرغ شحناتها هناك. لكن كان واضحا انني لن اتوصل الى شيء في الحديث معه. ولا أظنه كان يعبأ لو انمحت اسرائيل من الوجود. وسافرت في تلك الليلة الى باريس. وكان اول ما فعلته في الصباح التالي ان توجهت الى «باليه دي شايلو» أملا في لقاء «هكتور مكنيل»، وزير الدولة للشئون الخارجية، الذي كان يرأس الوفد البريطاني. كانت تربطني به صداقة، وكنت اراه موضوعيا في نظرته الى الشرق الأوسط. حين وصلت كان هو المتحدث، فتركت له رسالة مفادها انني سأكون ممتنا لو استطاع ان يقابلني، لأن في حوزتي معلومات هامة. وذكرت انني سأكون في فندق «جورج الخامس» حتى الثانية من بعد ظهر هذا اليوم، لأنني سأحلق عائدا الى اسرائيل. وجاء في الواحدة وخمس وخمسين دقيقة، اذ كنت اهم بمغادرة الفندق. واخبرته كيف ان السياسة البريطانية من شأنها ان تخلق تابعا روسيا رغم انفه في الشرق الأوسط. ولاحظت تغير تعبير وجهه اثناء حديثي. قال. «رباه، نحن لم ننظر للمسألة من هذه الناحية قط. سيصل الرئيس (ارنست بيفن) الى باريس في ساعة متأخرة من عصر اليوم. وسوف افاتحه في الأمر».

وغادرت الى اسرائيل. كنا نستقل طائرة شحن ليس بها تدفئة، وكان الجو باردا وتعطلنا ليلة في اثينا. وبعد رحلة مزعجة وصلنا الى «اللد» في النهار التالي. واستقبلني «ايلي

كيرشنر»، وهو مهاجر من جنوب افريقيا عملت معه عن قرب في اسرائيل، وزف الي نبأ ان شل تجري مفاوضات بشأن بيع ناقلة نفط الى اسرائيل. ووصلت الناقلة في موعدها. واعتقد ان هذه كانت احدى نقاط التحول في مقدرة اسرائيل القتالية. وأحمد الرب على الحزم والسرعة التي تصرف بهما «ارنست بيفن» في هذا الظرف.

على مدى الأشهر القليلة التالية، كانت هناك فترات لوقف اطلاق النار بناء على قرارات الأمم المتحدة، واشرفت عليها قوات مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة قدر استطاعتها. وسعى وسيط الأمم المتحدة في ذلك الوقت، الكونت برنادوت، لايجاد قاعدة للتسوية. وكانت هناك اختراقات للهدنة بين الحين والآخر، ليست من جانب العرب وحدهم وانما من جانب الاسرائيليين ايضا. وقال «هكتور مكنيل» انه بمجرد توصل اليهود والعرب الى اتفاق، فان بريطانيا سوف تعترف باسرائيل. وابلغت «بن جوريون». وتحمل مذكراته وصفا لجهودي في لندن او في مما تستوعب ذاكرتي.
الأربعاء ٦ اكتوبر ١٩٤٨.

رجع ماركوس سيف، بعد ان التقى في لندن بعدد من اعضاء الوزارة: «كريبس»، «لورد اديسون»، «بيفان»، «شينويل»، «دالتون» «هكتور مكنيل»، الى جانب عدد من المحافظين: «لورد سالزبة ري» (كرانبورن)، «ايدن»، ايمري»، «ستانلي»، «مكميلان»، «والتر اليوت» (اعضاء حكومة الظل)، «دنكان سانديز» (زوج ابنة تشرشل)، الى جانب عدد من الأحرار: «كليمنت ديفيز»، «لورد ساموبل». والتقى ايضا بزعماء مجلس التجارة، ومسئولي وزارة الدفاع، واناس من «التايمز»، و«موزلي»، «لورد ليتون»، «كروكشانك» (نيوز كورنيكل)، واشخاص آخرين، وبعض الصحف، ومدير شل، ورئيس اتحاد الصناعات البريطانية.

ابدى «كريبس» تعاطفا. كانت اللامبالاة هي الطابع العام في البداية، لكنهم بدأوا يبدون بعض الاهتمام، وابدى بعضهم ان لديهم ضميرا. عرض «سيف» عليهم مذكرة، ارسلت نسخة منها الى تشرشل. سوف يعترفون بدولة اسرائيل بعد ان تتخذ الأمم المتحدة قرارا. اقر «ايدن» اثناء الحرب ان الجامعة (العربية) قد فنيت. تشرشل و«آتلي» و«دوجلاس» (السفير الأمريكي) و«ايدن» لهم حظوة عند «بيفن». الخلاف بين «بريطانيا» و«مصر» يتعاظم، فالبريطانيون يعتقدون ان «فاروق» لا يحتمل. انه يريد خلق حالة من الاهتياج في الشرق الأوسط لصرف انتباه الرأي العام عن المشاكل الداخلية. «بيفن» كان يريد ارسال المزيد من الأسلحة الى «شرق الأردن» و «العراق»، لكن الوزارة صوتت ضده. طالما ان اسرائيل لاتثير حربا، فلن يسمحوا بارسال الأسلحة الى «شرق الأردن». امريكا

منسجمة تماما مع بريطانيا ازاء قضايا الشرق الأدنى. والواقع ان بريطانيا تقود امريكا في المنطقة.

البريطانيون يريدون استصدار قرار في الأمم المتحدة لتسوية الأمر، يعترفون من بعده بالدولة اعترافا شرعيا. «مكنيل» اخبر «ماركوس» انه لن يكون من السهل حمل الأمم المتحدة على قبول تقرير «برنادوت» في حالته الراهنة...

المسئولون في اتحاد الصناعات مستعدون لارسال وفد الى اسرائيل للبحث في العلاقات غير المباشرة. ويؤمل ان يكون لنصرنا العسكري واخماد مسألة «ألتالينا» والاجراءات المتخذة ضد الارهاب اثرها المؤاتي على «بريطانيا».

شكل شهرا سبتمبر واكتوبر توترا كبيرا في علاقات اسرائيل ببريطانيا والولايات المتحدة. ففي ١٧ سبتمبر اغتيل وسيط الأمم المتحدة «الكونت برنادوت» في القدس على يد ارهابية صهيونية تطلق على نفسها «اعضاء جبهة الوطن الأب». وأودع مئات من اعضاء الجماعة في السجن نتيجة لذلك. لكن معظمهم تغلبوا على الحراس وهربوا في ٩ اكتوبر. وفي الأيام القليلة التالية، مرت قافلة عسكرية اسرائيلية عبر الأراضي التي يسيطر عليها المصريون في «النقب»، لتحرير مستعمرتين يهوديتين معزولتين. وتعرضت القافلة لهجوم من القوات المصرية. ورد الاسرائيليون بشن هجوم مضاد، اسفر عنه تقليص الرقعة التي يحتلها المصريون، وتم الاستيلاء على «بئر سبع». ورغم انه لم يكن قد مر على عودتي من لندن غير اسبوع، فقد تقرر ان اعود اليها على الفور لالتماس اقصى قدر ممكن من التفهم والدعم لاسرائيل، ولدفع مسألة الاعتراف بالدولة من جانب الحكومة البريطانية.

لم يكن شهرا نوفمبر وديسمبر ١٩٤٨ من الأيام المؤاتية للدفاع عن القضية الاسرائيلية في لندن. في ٤ نوفمبراصدر مجلس الأمن امرا بوقف اطلاق النار تجاهله الاسرائيليون. واندلع القتال في «الجليل»، حيث هاجمت القوات الاسرائيلية ما تبقى من جيش التحرير العربي، دافعة اياه الى التقهقر فيما وراء الجبهة اللبنانية. وفي ديسمبر، لم تكن «النقب» قد سلمت بعد الى العرب مثلما قضى تقرير «برنادوت». وكان هناك لواء مصري لايزال معزولا في «الفالوجا». وبلغ عدد العرب الذين شردهم القتال ٦٠٠,٠٠٠ وقد صرحت الحكومة الاسرائيلية مرارا بأنها لا تستطيع السماح بعودة هؤلاء الناس التعساء الا بمقتضى شروط تسوية سلمية نهائية توافق عليها. ومن ثم طرد مئات الآلاف من اليهود من البلدان العربية، او هربوا، للاستقرار في اسرائيل. وفاقت اعدادهم كثيرا اعداد العرب الذين هربوا، او ارغموا على الخروج من اسرائيل. ولكن في حين ان

الاسرائيليين استوعبوا اللاجئين اليهود وصهروهم فيما بينهم، حتى اصبح الكثيرون منهم مواطنين لهم وزنهم ، رفضت الحكومات العربية حتى ان تحاول تسكين اللاجئين

الفلسطينيين واستيعابهم، رغم ثراء هذه الدول واتساع رقعتها وقلة سكانها نسبيا. ووضع اللاجئون في ظروف مزرية، ومروعة احيانا، ليصبحوا فيما بعد سببا جامعا للعداوة المستمرة ضد اسرائيل ، بل انهم وجدوا التشجيع مرارا للانتقام من خلال الأعمال الارهابية والهجمات القاتلة.

ورغم هذا تجمعت الأوراق ضد الاسرائيليين في لندن. والتقيت مرة ثانية بعدد كبير من أعضاء الحكومة والمعارضة الكبار. كان «ديك كروسمان» عضوا بارزا من ممثلي حزب العمل في البرلمان وممن كنت اعرفهم تمام المعرفة. وكان قد انحاز جهة العرب في نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن نتيجة لتعيينه عضوا في اللجنة الأنجلو - امريكية الخاصة بفلسطين، بتكليف من الرئيس ترومان ورئيس الوزراء «آتلي» في عام ١٩٤٦، غير آراءه واصبح صديق العمر لاسرائيل. حاول «كروسمان» ان يدبر لي لقاء مع رئيس الوزراء، ونجح على الأقل في اقناع السكرتارية الخاصة لرئيس الوزراء بارسال خطاب الى وزارة الخارجية للسؤال عما اذا كان ينبغي لـ: «آتلي" ان يستقبلني. ورد صديقي «ايدي تومكينز»، صاحب السجل المتميز في الخدمة الدبلوماسية، على الطلب بهذه الرسالة: القضية الخاصة برئيس الوزراء.

ينبغي ان أعتذر عن التأخير في الرد على خطابك المؤرخ ١٠ نوفمبر، والذي أرفقت به رسالة من السيد «كروسمان» الى رئيس الوزراء ومذكرة اعدها العقيد «ماركوس سيف». يؤسفني ان معلوماتنا عن العقيد «سيف» قليلة، عدا ان والده عضو له نفوذه في «ماركس اند سبنسر»، التي بذل احد مديريها، سيمون ماركس، جهدا متواصلا في دعم القضية اليهودية. لقد كان العقيد «سيف» نشطا جدا في استقطاب الدعم القوي لآرائه. وقد تم توزيع نسخ من مذكرته السابقة على عدد من الشخصيات البارزة ، من بينهم مستشار الخزانة واللورد «هندرسون».

من المعتقد ان زيارة العقيد «سيف» المقترحة لرئيس الوزراء تستهدف التأكيد على النقاط الواردة في مذكرته، والحث على الاعتراف الفوري بالدولة اليهودية ونبذ خطة «برنادوت» التي تؤيد المفاوضات المباشرة بين اليهود والعرب. والأرجح انه سيجادل بأن الدولة اليهودية في صورتها الحالية قد وجدت لتبقى، وان الاعتراف بها الآن من شأنه ان يقوي العناصر المعتدلة فيها على حساب الشيوعية المحتملة.

نحن ندرك ان العقيد «سيف» قد التقى بالفعل بمستشار الخزانة ووزير الدفاع. ونحن على استعداد لاستقباله في وزراة الخارجية في اي وقت يشاء. لكننا ننزع الى الاعتقاد بأنه ليس من الضروري لرئيس الوزراء ان يمنحه الوقت لمقابلته.

أرفق بهذا خطاب السيد «كروسمان» والمذكرة.

إي.إي. تومكينز

١٦ نوفمبر ١٩٤٨

الى صاحب المعالي «كروسمان» عضو البرلمان

شكرا جزيلا لموافاتي بمذكرة العقيد «سيف». واظن انني استوعب تماما النقاط التي يركز عليها.

فهمت انه التقى بالفعل بمستشار الخزانة ووزير الدفاع. لكن مشاغلي كثيرة في الوقت الحاضر، ولا أظن من الضروري ان ادعوه للحضور للافاضة في شرح مذكرته.

سي.ر. آتلي

لم اجد بالطبع اية فائدة من وراء مقابلة «بيفن». ولهذا كنت اريد مقابلة «آتلي».

مكثت في لندن حوالي عشرة ايام في تلك المرة. وقابلت كل من وافق ان يستقبلني: من سياسيين ورجال أعمال ورؤساء تحرير صحف وديبلوماسيين ولم أحقق الا تقدما طفيفا. كان هناك بعض العزاء والتشجيع في جريدة «أوبزرفر»، التي نشرت مقالا افتتاحيا قويا ينادي بالاعتراف الفوري باسرائيل.

التقيت في احدى زياراتي الى لندن باللورد «بيفربروك». اتصلت بالسكرتير طالبا موعدا للقائه، فطلب الي التوجه في مساء اليوم التالي الى «ارلنجتون هاوس» في الخامسة والنصف. ولدى وصولي ادخلني السكرتير الى غرفة يجلس فيها لورد «بيفربروك» مرتديا «الروب دي شامبر»، اذ كان يعاني نوبة ربو. واصطف على جانبي الغرفة عدد من رؤساء ونواب رؤساء تحرير الصحف العديدة التي يشرف عليها، والذين كان يمطرهم بالتوبيخ. ولازلت اذكر الحرج الذي احسست به. هممت بمغادرة الغرفة لكنه ناداني. وبعد ان صرف مستخدميه سألني السؤال الذي غالبا ما يطرحه الناس علي عند اول لقاء لي بهم.

«هل تربطك صلة باسرائيل سيف؟».

قلت: «اجل، انه ابي». وشرحت له انني على دراية جيدة بما يحدث في اسرائيل، وقلت له انني لا أعتقد ان الصحافة البريطانية تكتب بموضوعية. وبدأ يسجل بعض النقاط التي كنت اؤكد عليها. وادركت حين قرأها علي ثانية انه أساء فهمها. فقلت له: ان معي مذكرة توضح الحقائق وقد تكون مفيدة».

فأخذ المذكرة قائلا: ستفي هذه بالغرض. سوف نستخدمها. ثم سألني اذا كنت

أرى والدي كثيرا، فقلت له: اجل. كل يوم تقريبا. ودق الجرس فدخل السكرتير، فقال له: الي بزجاجة بيير جويه ٢٩». وحسبت انني احرز تقدما. ولكن حين وصلت الزجاجة راجعت نفسي: لأنه قال «عبرت الأطلنطي ذات مرة على نفس السفينة مع والدك، وتحدثنا طويلا واستمتعت بصحبته. لكنني لاأظنه راضيا عني هذه الأيام، ونحن لانلتقي مطلقا. وأملا مني في ان احصل على دعم من افتتاحيات صحفه قلت له: انا واثق انك مخطىء. لابد وان هناك سوء تفاهم». فقال: على اية حال، والدك يستطيب النبيذ الجيد. ارجوك ان تقابله غدا وتعطيه زجاجة الشمبانيا هذه مع اطيب امنياتي. وقل له انني سأفتح زجاجة مماثلة في السادسة من مساء غد لأشرب نخب صحته». وفي السادسة من مساء اليوم التالي فتحت وابي زجاجة الشمبانيا وشربنا نخب «بيفربروك». وبعد ثمانية واربعين ساعة نشر مقال افتتاحي، في «اكسبريس» على ما اظن، يعتمد الى حد كبير على المذكرة التي اعطيتها للورد «بيفربوك».

رجعت الى «اسرائيل»، حيث مكثت اربعة اسابيع قبل عودتي الى «لندن» في العام الجديد. وكان الاسرائيليون في ذلك الوقت يحققون انتصارات سريعة. ففي خلال سبعة ايام من القتال، تمكنوا من اختراق مواقع الجيش المصري في جنوب فلسطين، واصبح الطريق الى «سيناء» مفتوحا. كان الجزء الأكبر من الجيش المصري قد تقهقر الى داخل منطقة «غزة». وحين طلبت الحكومة المصرية وقف اطلاق النار في ٥ يناير، وافق الاسرائيليون، وتوقف القتال في ٧ يناير.

كنت قد عدت الى لندن. وليلة السبت ذهبت الى السينما مع «جون كيمحي»، الصحفي البريطاني الشهير والمعلق على الشئون الاسرائيلية والدولية، والذي كنت قد قضيت بعض الوقت معه في «اسرائيل»، حيث ادى عملا جليلا. ولدى خروجنا اشتريت صحيفة المساء «ذا ستار»، لأرى كيف لعب فريق «مانشستر يونايتد». وصعقت عند قراءة العنوان الرئيسي: «اليهود يسقطون ٥ طائرات من سلاح الجو الملكي». وكانت صحيفتا المساء الأخريان تحملان عناوين مشابهة. كان ذلك بعد وقف اطلاق النار. وأصابنا الذهول انا و «جون كيمحي». فقد حدث ذلك في الوقت الذي كنت أحاول فيه من جديد اقناع الحكومة البريطانية بالاعتراف باسرائيل. ولم استطع ان اصدق، مهما تكن شدة الاستثارة، ان الاسرائيليين بلغوا من الغباء ما يجعلهم يسقطون طائرات بريطانية بعد ان بدا واضحا انهم كسبوا حرب الاستقلال. وفي صباح السبت، خرجت كل الصحف البريطانية الرئيسية بعناوين معادية لاسرائيل بصفة عامة، فيما عدا «الأوبزرفر». ففي حين انها نشرت تقريرا وتساؤلات عن الحادث، نشرت معه مقالا افتتاحيا كان قد كتب قبل

وقـوع الحادث، وكان يطرح ان على بريطانيا السعى للتوصل الى اتفاق مع «اسرائيل» وتعترف بها. وفي يوم الأحد نشرت جريدة «بيبول» الواسعة الانتشار عنوانا رئيسيا يقول: «بيفن يطلب الى الامبراطورية مساعدته في وضـع الشيوعيين الاسرائيليين عند حدهم». ما من دولة كانت اقل شيوعية من اسرائيل، لأن الكثير من الاسرائيليين قد جربوا مر الحياة تحت الهيمنة السوفيتية.

كانت الأخبار التي تلت التقارير الأولى عن الحادث متجهمة. فقد قالت المصادر الاسرائيلية ان طياريهم افترضوا ان الطائرات البريطانية تابعة للعرب. فقد كانت تحلق برفقـة طائـرات مصرية. وردت الحكومة البريطانية على الحادث بحشد لواء بريطاني في «العقبة»، ووضعت حاملة طائرات في حالة الاستعداد في «مالطا»، ووضعت قوات بريطانية على متن طراد في «طبرق»، وأرسلت الحكومة البريطانية احتجاجا غاضبا الى الحكومة الاسرائيليـة. واستنكر الاسرائيليون ذلك، محتجين بان القرار بارسال قوات الى العقبة يبـرهن على تحامل بريطانيا في قضية اصطدام المصالح في فلسطين. وارسلت الحكومة الاسرائيلية بدورها احتجاجا شديد اللهجة الى الأمم المتحدة ، تعترض فيه على التدخل البريطاني لصالح طرف واحد.

وفيمـا كنت اتساءل انا و «جون» عما يمكن ان يكون قد حدث، عنّ لنا فجأة، انه بمقتضى المعـاهـدة الانجليـزيـة / المصريـة لعام ١٩٣٦، لايسمح للطائرات البريطانية بالتحليق الى مسافة بعيدة خارج نطاق قناة السويس. فماذا كانت تلك الطائرات البريطانية تفعل بعيدا عن حدودها؟ هل تم الغاء الاتفاقية؟ وعلى الفور اتصل «كيمحي» بالموظف المناوب في وزارة الخارجية وافصح عن شخصيته كصحفي معتمد، واستفسر عما حدث وسأله هل صحيح ان المصريين قد الغوا معاهدة ١٩٣٦ مع البريطانيين؟ فقال الموظف: كلا. لكن بعض الطائرات البريطانية كانت تحلق فوق سيناء». فقلت و«كيمحي» ان ذلك يعني ان الطائرات البريطانية كانت تبعد ٢٠٠ الى ٣٠٠ ميل عن منطقة القناة. وبعد ان جمعنـا الخيـوط سويا، استنتجنا انه من الواضح ان الطائرات البريطانية كانت تحلق بصورة استفزازية مع الطائرات المصرية في المجال الجوي الاسرائيلي، سواء عن قصد او عن غير قصد، او انها كانت تحت كل الظروف خارج حدودها المسموحة. وتأكدنا ان ذلك لم يكن ليحدث، لو لم تصدر الأوامر بمثل هذه العملية من اعلى المستويات.

وفي صبـاح الأحـد ١٠ ينـاير، ذهبت لمقابلة «ناي بيفان»، وكان عضوا بالوزارة وصديقا للأسرة. واستقبلني قائلا: انها ورطة شديدة .. أليس كذلك؟

«وسألته ان كانت الوزارة سوف تجتمع لمناقشة الحادث، فقال: كلا، وحين ذهبت

لمقابلته في وقت لاحق من ذلك اليوم، أبلغني ان لجنة الدفاع ستجتمع صباح اليوم التالي. وسألته: لماذا لجنة الدفاع وليس الوزارة؟

فقال: اجتماع مجلس الوزراء من شأنه ان يضم اشخاصا مثلي ممن سينظرون الى المسألة بشكل موضوعي ، وبصورة ليست معادية لاسرائيل. اما اجتماع الدفاع فلن يستبعدني انا وحدي ، بل سيستبعد ايضا «ستافورد كريبس»، وهو شخص موضوعي بالتأكيد، رغم انه لايبدي ودا خاصا تجاه اسرائيل. ومن ناحية اخرى، فان وزير الخارجية هو نفسه رئيس لجنة الدفاع. و«ارنست بيفن» كما تعرف، ليس متيما بدولة اسرائيل الجديدة».

كنت اعرف ان «ماني شينويل» وزير الدولة لشئون الحرب عضو في لجنة الدفاع. وكنت قد تحدثت آنفا مع «جورج ويج» سكرتيره الخاص في البرلمان. فأرسلت رسالة الى «جورج» حول ما حدث للطائرات البريطانية والسبب في ذلك في اعتقادي الشخصي . كنت في ذلك الوقت قد حصلت على مزيد من المعلومات التي تبينت صحتها الى حد كبير. يبدو ان اثنتي عشرة مقاتلة مصرية ، ترافقها خمس طائرات بريطانيه، قد حلقت فوق المنطقة المذكورة. وكانت اربع طائرات اسرائيلية تحلق فوقها على ارتفاع اعلى. وظن الطيارون الاسرائيليون ان الطائرات التي تحتهم كلها مصرية، وانها تشن غارة. فانقضوا عليها وهاجموها. وفي هذه الأثناء، انسحبت الطائرات المصرية من المنطقة، واسقطت الطائرات البريطانية وطائرة مصرية واحدة. وعلمت ان «ماني شينويل» تبنى هذه الرواية بحماس في نقاشه مع «بيفن». فقد طرح بآن الطائرات البريطانية كانت تحلق برفقة الطائرات المصرية التي كانت تتصرف وكأنها تشن غارة. ومن ثم لايمكن لوم الاسرائيليين على النتائج.

وعاد البرلمان الى الاجتماع في ١٨ يناير، حين طلب «تشرشل» من «بيفن» ان يقدم بيانا عن الأحداث الأخيرة في الشرق الأوسط. وقال «بيفن» انه سيلقى بيانا وافيا في الاسبوع التالي ، ٢٦ يناير، حين يتم عقد منافشة شاملة حول الشرق الأوسط. وما أن علمت بما حدث، جهزت مذكرة* بتاريخ ١٠ يناير ١٩٤٩، تقوم على المعلومات التي حصلت عليها انا و «كيمحي». وفيما يلي مقتطفات من المذكرة:

١ ـ خمس طائرات بريطانية، اربع من طراز «سبيتفاير» وواحدة «تمبست»، اسقطت بواسطة الطائرات الاسرائيلية، او نيران المضادات

٢ ـ طبقا لبيان اصدرته وزارة الطيران يوم السبت ٨ يناير، تم اسقاط خمس طائرات من سلاح الجو الملكي بواسطة الطائرات اليهودية، داخل الحدود المصرية.

ويذكر البيان ان الطائرات البريطانية المتمركزة في منطقة قناة السويس كانت تنفذ مهمة استطلاعية للتأكد من عمق ونطاق الاعتداء اليهودي على الأراضي المصرية.

وذكر ان هذه المهام الاستطلاعية كانت تقتصر بالتحديد على الجانب المصري من الحدود، وان الطائرات البريطانية قد تلقت الاوامر بتجنب الدخول في اشتباك.

٣ ـ ورد في بيان اسرائيلي صدر مساء الجمعة ٧ يناير، ان ثلاث طائرات مصرية قد اسقطت في اشتباك جوي، وان طائرتين من طراز «سبيتفاير» كانتا ضمن تشكيل من اثنتي عشرة طائرة قد دمرتا اثناء قصف الحدود اليهودية شمال شرقي غزة، اي داخل المنطقة التي اعطيت لليهود بموجب قرار التقسيم عام ١٩٤٧.

٥ ـ ثبت انه لم يتسلم الاسرائيليون اخطارا رسميا بأن طائرات بريطانية من ذات الطراز، تحمل علامات مشابهة للطائرات المصرية (دوائر حمراء وبيضاء وزرقاء للبريطانية، ودوائر بيضاء وخضراء للمصرية) سوف تحلق على الجبهة المصرية الاسرائيلية.

١٠ ـ قدر بيان وزارة الخارجية قوة سلاح الجو الاسرائيلي في يونيو الماضي، اثناء الهدنة الأولى، بحوالي اربعين طائرة، بما فيها اربع مقاتلات واربع قاذفات تم تحويلها. وطبقا للبيان فان سلاح الجو الآن قد وصل قوامه تقريبا الى مائة وعشرين طائرة، بينها اربعون مقاتلة (قادمة اساسا من تشيكوسلوفاكيا) وثلاثون قاذفة. ويضيف بيان وزارة الخارجية ان الطواقم الجوية تتألف اساسا من التشيك والبولنديين والأوربيين الشرقيين الذين تلقوا تدريبهم في تشيكوسلوفاكيا.

١١ ـ من خلال خبـرتي الشخصيـة اعلم ان الطائرات الموجودة في يونيو كانت مقاتلات مصرية من طراز سبيتفاير اسقطها اليهود. وكانت بقية سلاح الجو يتألف اساسا من طائرات «اوستير» سرعتها ٩٠ ميلا بالساعة، وهي طائرات غير مسلحة تستخدم لتحديد مواقع المدفعية. وكانت بريطانيا قد باعتها في هيئة خردة من مخلفات الحرب. وقد فكك اليهـود اجـزاء هذه الطائـرات غير القابلة للتشغيل، وتمكنوا من جعل بعضها صالحا للطيران. في هذه الفترة، كان العرب يمتلكون بين ١٠٠ و ١٥٠ طائرة مقاتلة وقاذفة مقاتلة، معظمها سبيتفاير، الى جانب اربعين الى خمسين قاذفة...

١٢ ـ خلال زيـارتين الى اسرائيل، التقيت شخصيا بعدد كبير من افراد الطواقم الجوية. كانوا يتألفون كلية تقريبا من اليهود المولودين في فلسطين، الذين تلقوا تدريبهم في سلاح الجو الملكي (RAF) خلال الحرب، ومن متطوعين من الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية الذين حاربوا مع القوات الجوية للحلفاء.

حدث بالطبع بعض التطور في سلاح الجو الاسرائيلي منذ مايو. في ذلك الوقت اعلنت الدولة انــه لاتوجد قوات جوية. لكنهم الآن يملكون طائرات سبيتفاير وبعض المقاتلات الألمانية، وثلاث قاذفات من طراز «ليبراتور». لكن تقدير وزارة الخارجية البريطانية لقوة سلاح الجو الاسرائيلي كان مبالغا فيه الى حد غير معقول. ثم ان تقريرهم عن ان الأطقم الجوية القادمة من اوروبا الشرقية كان مضللا الى نفس الحد. في الأسبوعين السابقين لموعـد المنـاقشة يوم ٢٦ يناير، قابلت حوالي ستين شخصا. كان هناك تغير مفاجىء في الرأي. ودعـا «حـاييم وايـزمان» الشعب البريطاني الى استخدام نفوذه لاقرار السلام والمصـالحة في الشرق الأوسط». ونشرت «مانشستر جارديان» مقالين افتتاحيين انتقدا وزارة الخارجية البريطانية. ونشرت الأوبزرفر مقالا افتتاحيا يرى ان بريطانيا يجب ان تعترف بالدولة الاسرائيلية على الفور. ونشرت «نيوز اوف ذا وورلد» مقالا لـ «بوب بوتبي» عنوانه «ضعوا حدا لهذا الجنون في الشرق الأوسط»، هاجم فيه سياسة الحكومة. وفي الوقت ذاته، كان «ديك كروسمان» في اسرائيل يعقد لقاءات مع الطيارين البريطانيين الذين اسقطت طائراتهم ويستمع الى رواياتهم. ونتيجة لهذه الاستقصاءات كتب مقاله الشهير في «سنداي بيكتو ريال» الذي كان عنوانه «انا اتهم بيفن». بحلول يوم الأحد ١٦ يناير، كانت الصحف التي توزع ملايين النسخ قد غيرت آراءها وهاجمت سياسة الحكومة في الشرق الأوسط. وفي الأسبوع الأخير كنت أقابل «ناي بيفان» كل يوم ويسألني «لا أعرف ايهما سيعيش اطول، الويسكي الذي عندي ام أزمتكم. لكن المعدل الذي تشرب به انت هذا الويسكي يبين انه سينفد قبل ان تحل الأزمة».

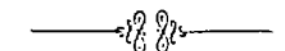
افتتـح «ارنست بيفن» النقاش يوم ٢٦. وتوقع معظم الناس ان يعبر عن بعض الأسف لما حدث، ويبدي نزعة الى تحسين العلاقات مع اسرائيل. ولكن خطابه كان يركز على جانب واحد، وقد كرس معظمه للدعم المتعاطف مع العرب على نطاق كبير، والانتقاد لانشـطة اسرائيل وسياسات الحكومة الاسرائيلية. ولم يظهر «بيفن» اي تفهم لمشكلات اسرائيل. والقى «تشرشل» بعده خطابا قويا انتقد فيه سياسة «بيفن». وتلاه «كليم ديفيز» زعيم حزب الاحرار، ثم «ديك كروسمان» العائد لتوه من اسرائيل. وهاجم الاثنان سياسة وزارة الخـارجيـة. واستغـل بعض المتحدثين المذكرة التي وزعتها. وتعرضت الحكومة صاحبة الاغلبية الساحقة وقتها لانتقادات لاذعة من مؤيديها، حيث امتنع بعضهم عن التصويت وصوت الآخر ضد الحكومة. وكسبت الحكومة هذا النقاش بأغلبية ٩٠ صوتا، وهي صاحبة الأغلبية البرلمانية البالغة ٢٨٦ مقعدا.

وحملت على الاعتقاد ان بالامكان تحقيق تقدم نحو تحسين العلاقات بين بريطانيا واسرائيـل، رغم المـوقف المتعنت من جانب «بيفن» ووزارة الخـارجيـة. وواصلت طوال

الأسبوع عقد المناقشات مع مختلف الزعماء. وفي صباح ٢٩ يناير، اتصل بي «آيفور لينتـون» الممثـل غير الرسمي للحكـومة الاسرائيلية في لندن، وسـألني ان كان يستطيع الحضور الى شقتي في الساعة الثانية عشرة. وحين وصل مرتديا حلة نهاريه قال «هل لديك زجاجة شمبانيا؟».

قلت: اجل. لكن لماذا ترتدي هذه الثياب الغريبة، وفيم تريد الشمبانيا؟».

فقال: جئت لتوي من وزارة الخارجية. لقد منحت بريطانيا اسرائيل اعترافا شرعيا. ونظرا للدور الذي لعبته، رأيت ان من حقك ان تكون أول من يعرف ، لتشرب نخب هذه المناسبة التاريخية».



الفصل التاسع

حين اعترفت بريطانيا باسرائيل اعترافا شرعيا في يناير ١٩٤٩، تمنيت ان يؤدي ذلك الى علاقات ود وصداقة بين الدولتين، والى عودتي الى الوطن لأستأنف عملي في «ماركس اند سبنسر». لكن زملائي في اسرائيل طلبوا الي ان امكث فترة أطول. وبعد موافقة ابي و«سيمون»، قررت ان ابقى في الوقت الراهن لأرى ما استطيع ان اقدمه.

رغم انتقادي لوزارة الخارجية البريطانية لافتقادها الموضوعية في أوقات كثيرة، كان معظم السفراء البريطانيين في اسرائيل رجالا أكفاء. ففي حين انهم كانوا يضعون مصالح بريطانيا في المقدمة، كان عدد منهم متعاونا وودودا. كان «ألكسندر فوكس هلم» و «فرنسيس ايفانز» و «فرنسيس راندال» والمرحوم «باتريك هانوك» و«جون بيت» و«مايكل هادو» و«جون بارنز» و«برنارد ليدويج» رجالا ذوي مقدرة ومكانة، احتفظ الكثيرون منهم بصلات وثيقة مع اسرائيل حتى بعد نقلهم الى مناصب اخرى.

كان همي الأول هو مساعدة الحكومة الاسرائيلية على تنمية اقتصادية. وعملت مع وزير الصناعة الجديد «جاك جيري»، وهو مهاجر من جنوب افريقيا، وكان رجلا قديرا. كان من الضروري للدولة الوليدة ان تبني اقتصادا قادرا على توفير احتياجات سكانها المتزايدين، وان تقنع البلدان الأخرى بتوافر مجالات للاستثمار. فقد كان الاقتصاد القوي احد الضمانات الرئيسية لأمن اسرائيل.

كانت الموالح تشكل الصادرات الرئيسية للبلاد في ذلك الوقت. وكان «ماركس اند سبنسر» من كبار مستوردي الموالح، ولها خبرة بنتها على مر السنين فيما ينشده المستهلك البريطاني . كان من الضروري ايضا ان ينمي الاسرائيليون انتاج وتصدير المنتجات الصناعية والزراعية، حتى يمكن خلق قاعدة سليمة. لم أكن اؤمن ان اسرائيل ستتمكن من التنافس بنجاح مع الصادرات المتنامية للبلدان النامية ذات العدد الهائل من السكان منخفضي الأجور. وكنت ارى ان عليها ان تسعى الى انتاج السلع ذات القيمة والجودة

العاليتين . كان اصرار «حاييم وايزمان» الدائم على رفع مستويات التعليم والبحث العلمي والتكنولوجي من العوامل الرئيسية التي ساعدت على هذا النوع من التنمية الاقتصادية. فاليوم، وبعد سبعة وثلاثين عاما، تتميز بعض صناعات اسرائيل بالتجديد والتطور الشديدين رغم مشكلاتها الاقتصادية الضخمة. فهي تنتج الآن منتجات على درجة تكنولوجية عالية وتسوقها في العالم، مثل شاشات الرادار. ويوجد في الوقت ذاته عدد من المصانع عالية التطور، التي تنتج مصنوعات عادية جدا، مثل الملابس الداخلية الرجالية. وقد بلغت الصناعات من الجودة والقيمة ما جعلها تخلق سوقا رائجة في الخارج.

كان من بين الاسهامات غير المتوقعة التي زادت من عدد السكان الاسرائيليين وساعدت على تنمية الاقتصاد وتنويعه، قدوم اليهود اليمنيين فيما بين ١٩٤٩/ ١٩٥٠. كنت منهمكا في عملية اعادة تسكين عدد ضخم من هؤلاء المهاجرين، وكانت مهمة مجزية وتتطلب براعة. كان العديد من هؤلاء المهاجرين آتيا من عالم القرن الخامس عشر، الأمر الذي جعل التكيف مع الحياة في اسرائيل صعبا في اول الأمر.

كان تصدير الموالح في نمو. وتوصلت الى عدد من الوسائل لزيادة الأرباح المترتبة على ذلك. كان الاسرائيليون ينفقون حوالي ٧ مليون سنويا على استيراد الأخشاب اللازمة لصنع الصناديق المستخدمة في تصدير الموالح. وهو مبلغ هائل بالنسبة الى دولة ناشئة. كان «ساير» مهتما بقضية الاستثمار، فسألني اذا كان من الحكمة ان يستثمر في مصنع للتعبئة. وكنت انا مؤمنا ان استخدام الصناديق الكرتون (الورق المقوى) أكفأ وارخص من الخشب . ولكن بعض الأشخاص ذوي المصالح عارضوا الفكرة، وكان اشدهم معارضة اولئك الذين يستوردون الخشب ويصنعون الصناديق. ووافقت الحكومة في آخر الأمر على الاستثمار في «كارجال»، وهي مؤسسة للتغليف كانت قائمة ولكنها لم تكن رائجة. وقد حصلت هذه المؤسسة مؤخرا على ماكينات صناعة الكرتون عالية الكفاءة من «جلاسجو». وحدث التحول عن الصناديق الخشب المكلفة الى الكرتون المقوى الأرخص ثمنا بالتدريج، وأفاد ذلك صناعة الموالح وميزان المدفوعات الاسرائيلي في آن واحد. وقد اصبحت اسرائيل من الدول المصدرة للصناديق الكرتون المخصصة للفواكه.

بدا ان هذه الدولة الجديدة الصغيرة سريعة الاتساع لم تترك مجالا للنشاط لم تطرقه ـ سواء في التعليم او الزراعة او الصناعة او البناء او الصيرفة والاستثمار. وكان «سيمون» وابي وافرادا آخرين من عائلتي، بينهم «مايكل ساكر» و«تيدي سيف»، يترددون على اسرائيل بصفة منتظمة لتقديم المساعدة. وقضيت وقتا طويلا في اسرائيل. وكانت امي وخالاتي يزرن اسرائيل باستمرار، ويسهمن اسهاما كبيرا في حل بعض المشكلات الاجتماعية التي تزايدت بفعل الهجرة في السنوات الأولى.

كانت «ماركس اند سبنسر» تحت ادارة «سيمون» وابي تنظر دائما الى المستقبل.

وقد دفعها ذلك الى الاتصال الوثيق بالتكنولوجيا الصناعية والزراعية المتقدمة. وتمكنا من منح اسرائيل بعض المعلومات القيمة عن التطورات التكنولوجية. وكانت المؤسسة تشتري في الوقت ذاته كميات متزايدة من المنتجات الاسرائيلية، وعلى رأسها المنتجات الزراعية رغم ان سياسة الشركة كانت، ولاتزال تصر على المنتجات البريطانية. فنحن لانشتري من الخارج الا اذا كانت النوعية والقيمة اللتان ننشدهما غير متوافرتين محليا، او حين يتعذر انتاج السلع محليا، كما في حالة المنتجات الزراعية المدارية . ورغم تحمس المزارعين ورجال الصناعة الاسرائيليين لتحسين ادائهم، فهم لم يكونوا ايسر الناس في التعامل في تلك الأيام المبكرة. كانوا رجالا ونساء حاربوا وكسبوا حربا رغم ان الظروف لم تكن في صالحهم. وكانوا يحققون نجاحا لابأس به في استيعاب وادماج آلاف اللاجئين اليهود القادمين من الأراضي العربية واوربا. وقد دفع ذلك بعضهم الى الاعتقاد بأنهم في غنى عن مساعدة الغرباء، وان كل ما يلزمهم هو الفرصة لعمل الأشياء بأنفسهم. كانوا يؤمنون انهم يعرفون اكثر من غيرهم . وتحت تأثير تجاربهم المبكرة، كانوا يرتابون في نوايا الأجانب ويرغبون عن التعاون معهم. كان همي الأول في السنتين التاليتين هو تكريس جهدي للدولة الجديدة. لكنني بدأت بالتدريج اقضي أطول في بريطانيا. وحتى بعد ان تأسست لاسرائيل سفارة في لندن، بدا ان هناك مجالا لإرساء صلات غير رسمية بيد اسرائيل والحكومة البريطانية. كانت علاقتي قد توطدت في ذلك الحين بمعظم الزعماء السياسيين اليهود، واصبح لدي القدرة على نقل آرائهم الى أعضاء الحكومة البريطانية والعكس بالعكس بصفة غير رسمية. وكان «انتوني ايدن» و «ليو ايمري» و«انورين بيفان» و «هارولد ويلسون» و«جورج براون» و«جورج توماس» من الزعماء السياسيين البريطانيين الذين عقدت معهم الصلات على مر السنين، وتلقيت منهم المشورة السليمة.

كانت اسرتي ترتبط بالصداقة مع آل «لوفات»، الأسرة الكاثوليكية الأولى في «اسكتلنده». وكنت صديقا حميما لـ «هيو فريزر»، الأخ الأصغر للورد «لوفات». ولازلت اذكر جيدا حفل زفاف «هيو» الى «انتونيا» الكاتبة المشهورة وابنة اللورد «لونجفورد» في ١٩٥٦ . كان «هيو» ممثل حزب «توري» في البرلمان، وأصبح فيما بعد وزيرا للدولة لشئون سلاح الجو في حكومة «هارولد مكميلان». وقد قضى معي بضعة ايام في اسرائيل بعد اعلان الدولة مباشرة. وانبهر بما رآه، وبشجاعة الناس واصرارهم ، فأخبرني انه سيتحدث في جلسة بالبرلمان عن الشرق الأوسط، وسيركز فيها على اسرائيل. وقال: «لاتنتظر ان ألقي خطابا صهيوني الطابع».

فقلت: «انا لا انتظر منك شيئا. لكنني اعرف على الأقل انك ستتحدث عن معرفة بما يجري هنا فعلا.

وفعلا القى خطابا اسعدني، شرح فيه بعض مشكلات اسرائيل بأسلوب بناء للغاية.

وكان «هيو» يتردد كثيرا على اسرائيل، ولم يتوان قط في نقد سياساتها وتصرفاتها التي كان يرى فيها خطأ. لكنه كان دائما صديقا مخلصا لاسرائيل مهما تكن الظروف، وحتى اذا كان موالاته هذه تهدد بتحطيم مستقبله السياسي.

كان «فرانك بايرز» من اصدقاء اسرائيل الآخرين، سواء حين كان في مجلس العموم او مجلس اللوردات. وقد اسهم هو الآخر كثيرا في تحسين التفاهم البريطاني / الاسرائيلي من عدة وجوه. وقد ظل يعمل بلا كلل حتى وفاته، لاسقاط الاذعان البريطاني لاجراءات المقاطعة العربية. وكان «بايرز» رئيسا للجمعية الأنجلو اسرائيلية، وهي الرسالة التي حملتها أرملته «جوان» من بعده. وقد توفي «هيو فريزر» و«فرانك باير» اثناء كتابة هذا الكتاب. وكانت وفاتهما خسارة فادحة لاسرائيل وللعلاقات الأنجلو اسرائيلية.

من بين الناس الذين عملت معهم في تلك الفترة «جوليان ايمري» وحفيد سير «وينستون تشرشل»، وكلاهما كان يؤمن ايمان اسرتي بأنه يفعل مايراه صالحا لبريطانيا. ومن الناس الذين قدموا لي النصائح السليمة «جيمس دي روتشيلد»، ابن البارون «دي روتشيلد» عميد الأسرة الفرنسية. وقد استوطن بريطانيا في السنوات الأولى من القرن العشرين وأخذ الجنسية البريطانية. وقد كان له سجل خدمة عسكرية مشرف في الحرب الأولى. وكان رجلا كريما يدعم العديد من القضايا في الخارج والداخل. وكان طوال حياته يدعم فلسطين باصرار، ومن بعدها اسرائيل. وقد قامت المؤسسة الخيرية التي أقامها بتقديم خدمات جليلة في عدة مجالات، من بينها التعليم. وكان سخاؤه هذا صاحب الفضل في توفير التمويل لبناء الكنيست الاسرائيلي الرائع.

تعرفت في فترة حرب الاستقلال بعدد من الناس الذين توطدت صداقتي بهم. وكان من بينهم الزوجان «ابنرز». هاجر الزوج من رومانيا، وهاجرت هي من تشيكوسلوفاكيا في الثلاثينات. وكان «دولفي» رجل أعمال ناجح يهوى العزف على البيانو ببراعة. وكانت زوجته «لولا» امرأة ذكية جذابة وقوية الشخصية. وقد أصبحت خياطة مشهورة، وكانت سفيرا غير رسمي لاسرائيل لايقدر بقيمة. وقد ساعدتني كثيرا في تدبير اللقاءات مع الناس بشكل غير رسمي

واصلت عقد اللقاءات المنتظمة في اسرائيل مع «بن جوريون» و«اشكول» و«سابير». كان «بن جوريون» يريدني ان استقر في اسرائيل بصفة دائمة، لكنني كنت ارفض ذلك وحين سألني عن السبب قلت: «اعتقد ان بامكاني افادة اسرائيل اكثر من خلال المامي المستمر بما يحدث هنا ومحاولة شرح التطورات لزعمائنا في بريطانيا. ثم انني اعتزم مواصلة عملي في «ماركس اند سبنسر»، مع بقائي على اتصال وثيق باسرائيل».

وأجاب «بن جوريون»: كنت افضل ان اسمعك تقول انك قررت البقاء في اسرائيل لرعاية المصالح البريطانية بها. هذا افضل لنا».

فشكرته قائلا ان هذا ليس في نيتي.

سألت «بن جوريون» مرة ان يعطيني احدى صوره الموقعة فأجاب: ليس من عادتي أن أوزع صوري».

فقلت: ليس السبب انني أريد صورتك لنفسي. لكنني محتاج اليها في أمر ما. ففي بعض الأحيان أود ان أناقش مشكلة اسرائيلية مع شخص ما، ولا أريد أن أفتح الموضوع بنفسي». وقلت له في النهاية: «الواقع ان وجود صورتك يثير مناقشة عن اسرائيل».

فقال وقد ارتسمت الابتسامة على وجهه: انهم يعرفونني، أليس كذلك؟

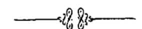
فقلت: كلا. لكن صورتك ستكون جنب احدى صديقاتي. انها «روزالين راسل» الممثلة. وحين يسألني الناس اذا كانت هذه «روزالين راسل» أقول «اجل»، فيسالوني من هذا الرجل الأشيب الذي بجانبها؟ فأقول «انه بن جوريون». وهكذا يبدأ الحديث عن اسرائيل».

وضحك «بن جوريون».

ورجعت الى لندن في اوائل ١٩٥١، حين قال «سيمون»: ان علي ان اقرر ما ان كنت سأعود لأستأنف العمل في «ماركس اند سبنسر»، ام سأهجره الى الأبد.

كنت قد بقيت على اتصال مع «الزا»، التي تحدثت عنها آنفاً وذهبت لزياراتها مرتين في «نيويورك»، وقدمت لزيارتي في لندن، وكنت اتصل بها هاتفيا.

ولدى عودتي الى لندن تزوجنا، لكن الأمور لم تسر على ما يرام كما كنا نأمل. كانت ناجحة في عملها وتترقى بسرعة في الشركة. كلانا كان يتمتع بشخصية قوية. ورغم اننا كنا متفقين في عدة نواح، فلم يكن الهدوء هو طابع حياتنا. كانت تفضل «نيويورك» على «لندن». وانفصلنا بعد ثمانية عشر شهرا، وحصلنا على الطلاق بعد ذلك.



الفصل العاشر

حين رجعت الى المؤسسة في ١٩٥١، كان العجز في الملابس وتقنين الطعام لايزالان مستمرين. لم نكن قد تمكنا بعد من اعادة بناء اغلبية المتاجر التي دمرتها الحرب. واسهم ذلك كله في الحد من تقدمنا. كنا نتطلع الى اليوم الذي نتغلب على كل تلك المصاعب. كان من أولوياتنا تطوير تجارة الأغذية التي عوقها التقنين اثناء الحرب، بعد ان كانت قد بدأت تحقق تقدما في عام ١٩٣٦. وفي الخمسينات، حين توقف التقنين وبدأت السلع تتوافر، بدأنا في ازالة الكافيتيريات من المتاجر تدريجيا. ورغم انها كانت عملية مربحة، فانها كانت تشغل فراغا كبيرا يمكن استغلاله بصورة افضل في تطوير اقسام الملابس التقليدية، واقسام الأطعمة الجديدة المتنامية.

بمجرد عودتي من اسرائيل، اوضح لي «سيمون» ان مهمتي هي التركيز على تطوير قسم الأطعمة. ورقيت الى درجة ادارية عالية، لكنني لم أعين في المجلس حتى ١٩٥٤، حين قرر «سيمون» وابي انني اهل لذلك. فلم تكن تجارتنا تعرف المحاباة. كان مكتبي يقع في نفس المربع الذي يضم فرع «ماربل آرش». وكانت ادارة الشركة موزعة في ذلك الوقت على ثلاثة أماكن: وكانت بعض المكاتب في «بيكر ستريت» بمبنى «مايكل هاوس» القديم، وبعضها في مباني «نيسن» في «بادنجتون ستريت»، والبعض الآخر فوق المتجر. وحتى اكون قريبا من مقر عملي، اشتريت شقة من الممثل «ستيوارت جرينجر» على بعد ميل في «هايد بارك جيت»، وانتقلت اليها انا و «الزا» في ١٩٥١.

بدأت عندئذ اتعلم المزيد عن التجارة بشكل منظم من خلال «سيمون» وابي. كان شغلي الشاغل هو فهم فلسفة التجارة والمبادىء التي أرسوها على مر السنين وان أطبقها. ويمكن ايجاز هذه المبادىء فيما يلي:

١ ـ ان نقدم للعملاء مجموعة متنوعة من البضائع الجيدة حسنة التصميم، التي تحمل علامة الشركة المسجلة «سانت مايكل»، وبأسعار معقولة

٢ ـ ان نشجع الموردين ان يستخدموا احدث واكفأ فنون الانتاج القائمة على آخر التطورات في العلم والتكنولوجيا.

٣ ـ استخدام معايير مرتفعة لمراقبة الجودة بالتعاون مع الموردين.

٤ ـ البحث عن مصادر التوريد في المملكة المتحدة قدر المستطاع.

٥ ـ تبسيط الاجراءات التشغيلية حتى تسير التجارة بكفاءة معقولة.

٦ ـ ايلاء الرعاية للعلاقات الانسانية الطيبة مع العاملين والعملاء والموردين.

كانت وسيلتنا في تطبيق هذه المبادىء تتطلب جهدا ذهنيا وجسمانيا. وهي لم تكن تشغل جزء كبيرا من كل يوم عمل في الليل والنهار وحسب، وانما كانت تمتد الى معظم عطلات نهاية الأسبوع ايضا. وكان الحوار لاينقطع بين «سيمون» وابي وانا و«تيدي»، وغالبا اخي «مايكل» ينضم الينا. تلك هي الأيام التي بدأت احس فيها بشخصية «سيمون» اكثر فاكثر. كان زعيما في مجاله، ومعترفا به في شتى انحاء العالم كشخصية بارزة في فن ادارة البيع. وقد تعلمت الكثير منه. في الأوقات التي كنت أفرغ فيها من زيارة الموردين والمتاجر، كنت اتناول غدائي في المكتب مع «سيمون» وابي وبعض المديرين الآخرين. وكنت أقضي الكثير من عطلات الأسبوع مع «سيمو» في «سننجديل»، او مع ابي في الشاليه الخاص في «يركشاير». وكان العمل هو محور حديثنا في الغالب

كان هناك اجتماع دوري كل نهار اثنين يرأسه «سيمون»، ويحضره المديرون وبعض كبار الاداريين. وكان «سيمون» يستنفد معظم الاجتماع في استعراض الأخطاء التي اكتشفها طوال الأسبوع في اسلوب استبعاد البضائع او اضافتها. فقد كانت له عينا صقر في ملاحظة التشطيب السيء للثياب، فكان يلمح أدق الأخطاء على بعد ياردات. وكان من عادته ان يحضر السلعة المعيبة الى المكتب نهار الاثنين ليلقيها على المكتب مصحوبة بقذائفه الكلامية الصريحة. لم يكن «سيمون» موهوبا في تمالك النفس ازاء السلع المعيبة او الرديئة، ولم يكن يرضى بالحلول الوسط. كان من ملاحظاته مثلا: كيف وصلت هذه النفاية الى الأرفف؟ كيف مرت هذه المنتجات المقززة من قسم رقابة الجودة في المصنع وفي المؤسسة؟ كان يتكلم ويتصرف وكأنه قد تعرض لاهانة شخصية، لأنه كان ينظر الى كل ما نبيعه على انه يمثله هو شخصيا. ولذلك كان يأخذ كل عيب مأخذا شخصيا. وكان يتوقع اجراء تحقيق دقيق في الخطأ الذي ابلغ عنه، وهذا ما كان يحدث. لم يكن يحدونا أمل في ان يغيب الأمر عن ذاكرته، لأن ذاكرته كانت قوية. وكان «سيمون» يؤمن بالتكرار ولا يتردد في تكرار نفسه، وبصورة اعنف. فاذا لم نستوعب الدرس في المرة الأولى، لم يكن يتردد في

تكراره مرة ومرتين وثلاثا. ولاشك ان معايير الجودة التي تراعيها «ماركس اند سبنسر» حتى الآن تدين بالكثير لاصرار «سيمون» ومثابرته. لم استغرق وقتا في اكتشاف ان «سيمون» يولي تطوير قسم الملابس اهتماما اكبر من أقسام الأطعمة. فقد كان مهتما بتجارة الملابس ويفهمها جيدا. ولم يكن ذلك راجعا الى رواجها، فقد كان احيانا يركز على اشياء لاتباع بسرعة. فقد كان يحب الجلود مثلا، ويحاول باستمرار ان يعرض حقائب جلدية جيدة، رغم ان الحقائب لم تنجح مطلقا فيما بعد الحرب لسبب او لآخر. لم يكن يحب الأطعمة في تلك الفترة. وكان من بين أسباب هذه المقاومة اللاشعورية لمجموعة الأغذية خوفه من ان يؤدي ادخالها الى تغيير طبيعة «ماركس اند سبنسر». وقد سبب لي موقفه هذا بعض المشكلات، لأنني كلفت بتوسيع أقسام الأطعمة.

أعلنت ذات يوم بكل فخر انني ادخلت مجموعة جديدة من المعلبات، فانقض علي قائلا:

لن تحولني الى بقال.

فأجبت: ليس في نيتي ان افعل هذا.

فقال: «لن تفعل هذا. وهناك شيء آخر أقوله. حين اخرج من هنا، فسوف تخرج قدماي اولا. هذه هي الطريقة الوحيدة التي سأخرج بها».

وتبين فيما بعد ان هذه الكلمات كانت نبوئية.

لم يكن موقف «سيمون» من تجارة الأطعمة راجعا الى تحامل ضد الأطعمة في حد ذاتها. صحيح ان حياته كانت بسيطة، لكنها كانت موسرة. ورغم انه كان يستمتع بالنبيذ بين الحين والآخر، فلم يكن ذواقة مثل ابي. واعتقد ان موقفه من الأطعمة كان نابعا من خوفه من ان تتحول «ماركس اند سبنسر» الى واحد من محلات السوبر ماركت التي كانت قد بدأت تنتشر، اذا ركزت على الأطعمة بشكل كبير. ورغم حدة لسانه وميوله النقدية وآرائه الساحقة، فهو لم يحاول ابدا مداراة انفعالاته او المبالغة في ابداء تحامله الى الدرجة التي تعوق مسار التجارة. فكان ينفجر ويعود ليهدأ وكأن شيئا لم يكن. وكانت هذه صفة مشتركة بيني وبينه. ولعل هذا هو السبب في اننا كنا نأخذ موقف التحدي بين الحين والآخر، ونتفق في الآراء في كثير من الأحيان.

كان «سيمون» محافظا في اتجاهه السياسي. كان يعتقد ان سياسة التأميم التي اتبعتها حكومات حزب العمل بين ١٩٤٥ و ١٩٥١ كانت وبالا على بريطانيا، وان أعضاء حزب العمل اليساريين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على البلاد. ورغم ذلك فقد كان صديقا لبعض زعماء حزب العمل، وخاصة «ناي بيفان»، الذي كان صديقا مقربا من ابي كما سبق وذكرت.

كانت نظريتــه الواضـحة عن الادارة هي ما يعرف الآن بنظرية الادارة من خلال الزيارات الميدانية، حيث تأتي المعرفة من خلال المشاهدة والاستماع. وقد ساعدنا كثيرا في تطبيق هذه النظرية التغير الذي ادخلناه على الادارة في ١٩٥٧/٥٦ نتيجة لسياسة التبسيط. فقد أتاحت هذه السياسة وقتا أطول لكبار المديرين لزيارة أقسام المشتريات وتفقد المتاجر والتردد على الموردين والتحدث مع العاملين والزبائن.

لم يكن «سيمون» ممن يهوون الجلوس وراء المكاتب. كان هدفه الرئيسي أن يطلع على ما يحدث في المتاجر، ليعرف الرائج والراكد من السلع، ويتحدث مع صغار الموظفين، وخاصة مساعدي المشتريات، ويستمع الى آراء العملاء. وكان نشطا في الشركة، شأنه شأن كل فرد من أفراد الأسرة. كان يريد كل العاملين ان يدركوا انها تجارة تديرها الأسرة. كان هدفه ان يكون القائمون على الادارة معروفين لدى اكبر عدد ممكن من العاملين، وان يفهم الكل ان رخاءهم هو الشغل الشاغل له ولأعضاء مجلس الادارة. وقد اعطى مثالا يحتذى به في ذلك. وقد بلغ نجاحه في تنفيذ سياسته حد انه اصبح من الطبيعي لكل العاملين ان يشعروا بالانتماء الى عائلة «ماركس اند سبنسر».

حين قلت آنفا ان سيمون كان يريد الوصول بتجارته الى اقصى درجة ممكنة من الكفاءة، بدلا من جمع ثروة لنفسه، كان ينبغي ان اضيف ان سببا معينا كان وراء رغبته في الثروة. اعني بذلك مبدأه في تقديم الدعم للقضايا الجديرة بالمساعدة. وقد تنوعت مثل هذه القضايا وتعددت. كان «سيمون» مثلا أحد مؤسسي «فيلق الطلبة العسكريين» في فترة ما قبل الحرب، وكان من بين اهتماماته الأخرى كلية الجراحين الملكية. وكان من أعضائها البارزين «آرتش ماكيندو»، الذي اشتهر بما حققه في جراحة التجميل التي أجراها لمصابي الحرب اثناء الحرب وبعدها. وكان سيمون سخيا في عطاياه للكثير من القضايا في بريطانيا وفلسطين. ان مساعدة الآخرين جزء من التقاليد اليهودية ، بل من الديانة اليهودية. ولكن الأمر بالنسبة لـ «سيمون» لم يقف عند هذا الحد، فقد كان يستمتع بالعطاء بدافع غريزي.

توثقت علاقتي بـ «سيمون» في الخمسينات، وكان طابعها الحب المتبادل. ولم يكن ذلك لمجرد اننا ننتمي الى أسرة واحدة، رغم ان «سيمون» كان مولعا بأقاربه. كان الود متبادلا لأنني كنت أحب صراحتــه وتفانيه في العمل وتحمله للمسئولية، واهتمامه بأمر مستخدميه. وكنت أيضا احترمه كرئيس. واعتقد انه كان يحبني لأنني كنت أتحداه. كان «سيمون» صارما مع أفراد الأسرة صرامته مع الغرباء فيما يتصل بالعمل. لكنه كان يحترم من يتمسك بآرائه ويثبت صحتها. اعتقد انه كان يقدر بلائي في الحرب وما فعلته في السنوات الأولى من استقلال اسرائيل. لكن موقفه ازائي كان به نوع من تكافؤ الأضداد

كنت في تلك الفترة قد بدأت أحرز تقدما ملموسا في «ماركس اند سبنسر»، وربما انني كنت اكثـر أعضاء جيلي نشاطا في حدود الأسرة. لكنني لم اكن ابن «سيمون». كانت نقطة ضعف «سيمون» تكمن في نزعته الى ايلاء اهتمام مفرط الى أقرب أقاربه. كان له ابنة تدعى «حنـا» وابن يدعى «مايكل» بالغ في تدليلهما من الناحية المادية. لكنه لم يشملني بهذا التدليل، فكنت ألقى منه من النقد اللاذع اكثر مما القى من الاطراء. وكان لذلك الفضل في انني تعلمت اكثر.

كان موقفه من التطوير الذي احدثته في قسم الأغذية في الخمسينات يثير الجنون، فاليوم يدعمني وغدا يثبط عزيمتي. قال لي في احدى المناسبات في عام١٩٥٣: «اعتقد انك تفعل شيئا عظيما في مجال الأغذية، فقد بلغت المبيعات ١٧ مليونا. قد نصل بهذا الرقم الى خمسين مليونا يوما ما». تذكرت هذه الكلمات يوم اعتزالي الرئاسة في عام ١٩٨٤، حين وصل رقم المبيعات الى ١,١ بليون جنيه. ولكن بعد أيام من هذه الحادثة وجدته يقول لي في ثورة: «لا تتصور ان بامكانك ان تجعل مني بقالا». كان يصب جام غضبة في حالات ثورته على قسم المعلبات. تركنا مكتب «بيكر ستريت» ذات مساء وتمشينا الى متجر «ماربل آرش» للاطلاع على سير العمـل قبـل موعـد الاقفال مباشرة. ولما دنونا من المتجر، كان «سيمون» يقول ان المعلبات ليست تخصصنا. وقررت لحظتها ان استخدم اسلوبا اعتدت اللجوء اليه مع «سيمون» محققا بعض النجاح بين الحين والآخر. قلت له: ربما تكون على حق. افضل شيء ان ننفض ايدينا كلية من المعلبات». كنا في هذه اللحظة قد وصلنا الى المتجر، وكان الحارس يهم باقفال الباب. ووضع «سيمون» قدمه داخل المحل ليمنع الباب من الانغلاق وقال: «لنحتفظ بقدمنا في مجال المعلبات مثلما اضع قدمي عند هذا الباب». ولا تزال المعلبات جزء من تجارتنا، والواقع انها تتطور الى حد كبير.

كانت بعض آراء «سيمـون» حول الأغذية ناتجة عن موقفه من التغيير. لم يكن لينجح لولا استعداده للتكيف، لكنه كان محافظا بطبعه. وكثيرا ما كان يستغرق وقتا في تعديل موقفه ازاء فكرة مقترحة. لكن التغيير كان يتم بصورة اسرع حين يكون هو صاحب الفكرة الجديدة. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب الذي تصرف به ازاء ادخالي لنظام «الخدمة الذاتية» وماكينات الصرافة المتعددة في قسم الأغذية. لاشك ان هذا النوع من البيع بعد امرا عاديا اليوم، لكنه كان بدعة في ذلك الوقت. ادخلت هذا النظام في متجرين او ثلاثة من باب التجـربـة. وذهب «سيمون» يوم الجمعة الى احد هذه المتاجر، واستدعاني صباح الاثنين الى مكتبه وانفجر قائلا: «لن تحولني الى بقال، وخاصة بقال خدمة ذاتية. لن اقبل هذا النظام، وعليك الغاؤه». وألغيت النظام في المتاجر التي يتردد عليها «سيمون»، ولكنني

نقلته الى المتاجر التي يستبعد ان يزورها ايمانا مني بان النظام سيفرض نفسه في النهاية باعتباره افضل وسيلة تتيح للعملاء انتقاء ما يريدونه ودفع قيمته بسرعة معقولة.

وبعد فترة ذهب «سيمون» الى «ليدز» ليتسلم درجة فخرية. كان ذلك قبل عطلة بنك «ويتسون»، وكانت عطلة تنشط فيها مبيعات الأغذية. وكان فرع «ليدز» يستخدم نظام الخدمة الذاتية. وقام «سيمون» بزيارة المتجر، ولدى عودته الى لندن استدعاني وقال: أتعرف شيئا. ان متجر «ليدز» قد طور نظاما ممتازا لعرض السلع ودفع ثمنها. هناك ماكينات صرافة على أطراف قسم الأغذية، يحمل اليها العملاء الأطعمة التي اشتروها في سلال او عربات صغيرة. هذا النظام يوفر الوقت، وهو نظام مريح وغاية في الكفاءة. فكرة رائعة. اعتقد ان علينا ان نعممه في متاجرنا».

قلت له: الفكرة تبدو عظيمة، وسأذهب لبحث الأمر مع مديري العمليات لايجاد افضل السبل لتعميمها».

كنا نختلف احيانا في المسائل السياسية. لم يكن «سيمون» رجعيا، والواقع انه كان محافظا ليبراليا. لكنني لا استطيع ان اتصوره يعطي صوته لأي حزب آخر. كان وطنيا عظيما يؤمن بالامبراطورية البريطانية. وكان شأنه شأن «حاييم وايزمان»، يأمل ان تتحول فلسطين الى الدومينيون الثامن في الكومونولث. كنت انتمي في تلك الفترة الى الجناح اليساري من حزب المحافظين، وكانت بعض عناصر فلسفة الحزب لاتروق لي. كان «سيمون» آسفا على سياسة التأميم، ورغم انني لم اكن من مؤيدي التأميم، فقد كنت اتذكر ما حدث ابان الركود فيما بين ٢٩ / ١٩٣١، ورأيت بعيني ما ترتب على سياسة المحاباة في الادارات العليا من سوء الادارة وتدهور الشركات الهامة، ومن ثم زيادة نسبة البطالة. كما ان العديد من اصحاب الأعمال لم يكونوا يدركون اهمية حسن معاملة مستخدميهم، او ما اسميه اليوم سياسة العلاقات الانسانية الطيبة في العمل. كنت قد رأيت المطالب المعقولة التي يقدمها زعماء الاتحادات العمالية المعتدلون، والتي كانت تقابل بالرفض ، وباقصاء هؤلاء الزعماء عن مناصبهم واحلال اصحاب الأفكار المتطرفة مكانهم. ادى كل ذلك الى تساؤلات حول بعض معتقدات المحافظين. وحين كنت افصح عن هواجسي كان «سيمون» يقول: انت بعد صغير، ولكنك ستتعلم يوما ما. وبغض النظر عن ولائه للمحافظين، واستعدادي لاثارة الشكوك في معتقداته، وتعارض آرائنا السياسية، فنحن لم نصطدم بصورة جدية في النواحي السياسية. واعتقد انه كان يضع الشخص فوق الحزب.

حين كنت مشغـولا بكسب التأييد للاعتراف باسرائيل، وجدت مستمعا متعاطفا ومؤيدا في «أنورين بيفان» كما يذكر القارىء، واستمرت صداقتنا.

دعـوت «ناي» ذات مساء لتناول مشروب قبل العشاء مع «سيمون» في شقته في «جرورفينور». وكان «سيمون» قد دعا عشرة من حزب «توري» المتعصبين الى العشاء. واستمتـع «سيمون» بصحبة «ناي» حتى انه دعانا الى تناول العشاء معه. كان «ناي» متألقا. وهيمن على زمام الحديث وسط اهتمام الحاضرين وسرورهم. كان كلامه منطقيا وهو يسوق بعض مبادىء حزب العمل بصورة بناءة ومعتدلة. وانبهر «سيمون»، رغم اختلافه في الرأي، واقر ان «ناي» قد اسهم اسهاما كبيرا في نجاح الأمسية.

لم ينج احد ممن يحيطون بـ «سيمون» من انتقاداته، سواء من الأقارب او الزملاء. وكان هذا النوع من المعاملة يمتد الى أخواته وأولادهن. لكن المستثنى الوحيد كان ابي لأنه، في اعتقاد «سيمون»، لايخطىء. كان يحترم آراءه وأحكامه، وكانت كلمة واحدة منه كفيلة بمؤاساة ضحايا ثورة «سيمون».

حين أرجع بالذاكرة الى تلك الفترة، واسترجع ما قيل لي منذ ذلك الحين، أميل الى الاعتقاد بأن أسلوب معاملته لي يرجع نوعا ما الى احساسه المتزايد بانني سأخلفه يوما ما كرئيس للادارة. لم يكن لدى «سيمون» اعتراض شخصي علي ككبير المدراء لكنه، شأن الكثيرين من الزعماء العباقرة، لم يكن يريد ان يكون خليفته انسانا عاديا ، كأي انسان. ولم يكن «سيمون» يأمل في ان يخلفه ابنه، فقد كان واضحا منذ البداية ان «مايكل» لم يكن مؤهلا لمنصب كبير المدراء، لانفسيا ولا ماديا. وكان «آليك ليرز» زوج ابنته منافسا، لكنه لم يكن ذي خبرة كافية في الادارة اليومية. اما اخي الأكبر «مايكل» فقد وصل الى مجلس الادارة قبـلي. وكان بارعا في التجارة وله معرفة جيدة بالملابس وخبرة في معاملة النـاس. وكـان محترما داخل الشركة وخارجها. لكنه لم يكن طموحا او مشاكسا مثلي. والواقع انني رقيت متخطيا اياه الى رتبة اعلى. لكنه لم يغر مني، او على الأقل لم يظهر هذه الغيرة. كان «مايكل ساكر» ابن اخت «سيمون» على مقدرة كبيرة. وقد اصبح فيما بعد نائبا للرئيس ومديرا اداريا مشتركا. وقد كان له اسهام كبير في المؤسسة. اما «جبرييل» اخو «مايكل» الأصغر، فلم يكن لديه ذلك التفاني المستمر في العمل الذي يعتبره «سيمون» ضروريا. وكان عمي «تيدي» الأخ الأصغر لأبي، وكان يتوسط جيلي وجيل «سيمون» وابي، كان يسير في الاتجاه السائد في الخلافة. وقد خلف أبي كرئيس واظهر مقدرة عظيمة على التمييز، وخاصة في مجال الملابس.

اما خارج الأسرة فكان هناك عدد من الشخصيات ذات المقدرة، من بينها «جان

ليواندو» الذي يكبرني ببضعة اعوام. التحقنا سويا بالمؤسسة كمديرين تحت التدريب. وحققنا تقدما هائلا. والتحق هو بمجلس الادارة قبلي، لكنه قرر الانسحاب وقبل منصب رئيس وكبير المدراء في مجموعة «فيبلا كارنجتون».

رغم انني لم أقدر هذا الأمر في حينه، فقد كان ابي و«سيمون» على ثقة، في السنوات الأخيرة من حياة «سيمون»، انني سأصبح رئيسا وكبيرا للمدراء. وربما ان هذا كان السبب في انني كنت ألقى معاملة خشنة من «سيمون» اكثر من اي شخص آخر، في الحياة الخاصة وأمام زملائي في المجلس.

بعد تعييني في منصب مدير بفترة قصيرة، قمت بزيارة لأحد المتاجر تركت آثارا طويلة المدى على مستقبل الشركة. سبق ان اشرت الى النظام الذي ادخلناه في اوائل الثلاثينات، والذي كان يحتم على الملتحقين الجدد بالادارة ان يقضوا عامين في المتاجر لفهم جوانب العمل، قبل انضمامهم الى الادارة الرئيسية. اذكر ان القاعدة لم تنتهك الا مرة واحدة. كان ذلك منذ اكثر من ثلاثين عاما في ١٩٥٤. قمت بزيارة متجر «اوكسفورد» صباح السبت. واذ نحن نغادر قسم الأغذية لتفقد الأقسام الأخرى، قال لي مدير المتجر «مستر جيبسون»: اذا كان «رينر» لايعرف الكثير عن قسم الأغذية، فأرجو ان تلتمس له العذر. فهو لم يمض عليه هنا الا اسبوع. انه موظف جديد التحق بالمتجر منذ اشهر قلائل». والواقع انني كنت منبهرا بخبرة «رينر» واقتراحاته، ولذلك عدت للتحدث معه. تبينت انه درس في «سيلوين» بجامعة «كيمبريدج» للحصول على درجة الكهنوت، لكنه اكتشف انه لم يخلق لها. ثم انشأ مشروعا صغيرا للبيع بالتجزئة في بلدته. ولما وجد المجال غير متسع بالقدر الكافي، التحق بـ «ماركس اند سبنسر».

وفي نهار الاثنين، ذهبت الى «نورمان لاسكي» مدير المستخدمين و«سيدريك وولف» رئيس العمليات. وقلت انني اود ضم «ديريك رينر» الى مجموعة الأغذية. لكنهما رفضا، لأنه لم يكمل فترة العامين المقررة في المتجر. فقلت: «انها قاعدة جيدة، لكن القواعد لها استثناءات، وهذه مناسبة جيدة للاستثناء» ولم يقبلا. لكنني صممت على رأيي. وسألاني ان كنت أوافق على ترك «رينر» في متجر «اكسفورد» لتقديم العون اثناء فترة العطلة. وبعد حصوله على اجازته، يمكنه ان يأتي الى المكتب الرئيسي في نهاية اكتوبر. وكنا في يونيو. فقلت: «اجل». لكنهما انزعجا بسبب اصراري على فرض الأمر عليهما.

وبعد بضعة اسابيع، ذهبت الى متجر «واتفورد» فوجدت «رينر» هناك. ولما سألته قال انه قد تم نقله بعد زيارتي لمتجر «اكسفورد» مباشرة. وذهبت الى الادارة نهار الاثنين

مهددا بانني سأرفع الأمر الى الرئيس اذا لم ينقل «رينر» الى المكتب الرئيسي يوم الاثنين التالي. وتم نقله فعلا. وقد اصبح ذلك الشاب الآن هو «اللورد رينر»، رئيس «ماركس اند سبنسر» وكبير مدرائها.

كنت قد انخرطت في هذه الفترة في النظام الذي اصبح يعرف الآن بـ «تبسيط العمليات». ذهبت يوما الى مكتب «سيمون»، فوجدت عنده خبيرا في الحاسبات الالكترونية يشرح لنا لماذا ينبغي ان نستخدم الحاسبات. لم تكن لدينا حاسبات في تلك الفترة، والواقع اننا لم نستخدمها قبل عدة اعوام. وبدأ سيمون بسؤال الضيف عما يمكن ان تفعله الحاسبات. فأجاب الضيف: كل شيء تقريبا. فالتفت «سيمون» نحوي قائلا: «نحن لانريد كل شيء ـ ما الذي نريده بالضبط؟ لقد آن الأوان لكي نتدارس تجارتنا جيدا لنرى اي الأنظمة لم يعد ضروريا، وايها يلزمنا». كانت نفقاتنا تتزايد في تلك الفترة بسرعة وتلتهم الكثير من أرباحنا المتزايدة.

في اليوم التالي ذهب «سيمون» الى متجر «ريدنج»، ووجد عددا من الفتيات يملأن ما كنا نسميه «بطاقات التصنيف» التي تبين التفاصيل الخاصة بالمقاسات والألوان والمبيعات والمكان ونسبة الطلب، معلومات اخرى عن كل ميادين العمل تقريبا. ثم كان موظفو المكتب يعدون قوائم كل اسبوعين تبين اجمالي المبيعات والسلع المطلوبة ثم يرسلونها الى المكتب الرئيسي. كان حجم المعلومات والأرقام والبيانات التي تسجل باليد ضخما، علاوة على تزايده. وفي يوم الاثنين التالي، دعانا «سيمون» الى اجتماع وقال: «لقد أرسينا عددا من الدعائم التي تقوم عليها مؤسستنا. لابد من اعادة العملية برمتها لتبسيطها والتخلص من الدعائم غير الضرورية». وكلفني «سيمون» بتشكيل فريق للنظر في نظام الادارة والتشغيل، وتحديد ما هو ضروري وما يمكن الاستغناء عنه. فقد كان سيمون يؤمن ان الكثير من الأعمال الكتابية غير ضروري.

قمت بمساعدة الفريق المقسم الى مجموعات صغيرة بفحص عدة اوجه في المؤسسة وكنا نعقد اجتماعا كل اسبوعين لنناقش ما يمكن استبعاده او تطوير كفاءته. اخبرت اعضاء الفريق في اول الأمر اننا نريد آراءهم حول كيفية تبسيط العمليات وتطوير كفاءتها وطمأنتهم ان احدا منهم لن يفقد وظيفته مهما تكن النتيجة. اذكر انني بحثت في احدى المرات مسألة «البطاقة الوردية» مع المدير والعاملين في احدى المتاجر. وكانت البطاقة عبارة عن استمارة من ثلاث نسخ بها تفاصيل حول السلع التي تم استلامها. كانت نسخة تذهب للمكتب الرئيسي، والثانية تظل في ادارة المخازن والثالثة تذهب الى ادارة المتجر. وكانت نفس البيانات موجودة في الوثائق الأخرى. وبدأت تجربة استبعاد هذه البطاقة من

اربعـة متـاجـر. وفي نهاية الشهر قمت بزيارة ثلاثة من المتاجر الأربعة، وسألت المدير والمختصين اذا كانوا قد افتقدوا تلك البطاقات. واجمعوا كلهم على انه لاداعي لاعادتها. وهكذا استبعدت البطاقات الوردية من المتاجر كلها، ووفرنا ٦ ملايين استمارة في السنة.

في تلك الأيام، كان الحصول على تأشيرة دخول الى روسيا ايسر كثيرا من السماح لأحد موظفي المبيعات بالدخول الى المخازن. فحين يحتاج البائع الى سلع معينة، كان عليه ان يملأ استمارة ويعطيها لموظف المخازن، الذي يتولى بدوره احضار السلع. فقررت ان يذهب موظف المبيعـات بنفسـه الى المخزن لاحضار البضائع. وعارض كبير المحاسبين بحجة ان هذا سيرفع نسبة السرقات. فقلت له: «هذا كلام فارغ. ان ٩٩ بالمائة من موظفينا امناء، والواحد في المائة سيسرق مهما فعلنا». وحين ازلنا الجدران المحيطة بالمخازن، وفرنا فراغا اكبر للسلع، اتاح لنا العمل بصورة افضل. ولم تزد نسبة السرقات.

حين انتهينـا من مهمتنـا، كنا قد تخلصنا من ٢٦ مليون نوع من الاستمارات والوثائق، ومن بضع مئات من ساعات الحضور، الأمر الذي جعل الموظفين اكثر مواظبة وبعنا الف خزانة ملفات، واصبح العمل في صورة افضل.

كان رقم المبيعـات في عام ١٩٥٥، ١٠٨ ملايـين جنيه، وصل الى ١٤٨ مليونا في ١٩٦٠ (رغم التضخم). وكان عدد العاملين ٢٦,٤٠٠ في عام ١٩٥٥، وصل الى ٢٢,٤٠٠ في عام ١٩٦٠. ارتفعت نسبة المبيعات ٣٦ في المائة خلال تلك الفترة، وهبط عدد العاملين بنسبة ١٥ بالمائة. وكنا قد خفضنا اسعار معظم المعروضات الرئيسية، ورفعنا الرواتب والمزايا والأرباح. شعرت بسعادة كبيرة حين التحق ابني ديفيد بالشركة في اكتوبر ١٩٥٧، وقضى عامـين في المتاجر المختلفة مثلما فعلت انا. واصبح مديرا مناوبا في عام ١٩٦٨، ومديرا في عام ١٩٧٢. وتحمل مسئوليات متنوعة، حتى اصبح مديرا ناجحا للمستخدمين في عام ١٩٥٧.

حالفني التوفيق حين اصبحت مديرا للمستخدمين والعمليات بأن عملت مع فريق رائع. كنا نتعلم باستمرار كيف نحسن أداءنا، وخاصة فيما يتعلق برخاء العاملين. فقد انخرطنا في تطوير هذا النظام فعلا في اوائل الثلاثينات، وحققنا تقدما كبيرا على مر السنين. كنـا نوفـر للعـاملين عيادات للأسنان ووجبات مخفضة ، فأعقبنا ذلك بادخال وحدات تصفيف الشعـر والعناية بالقدمين لخدمة العاملين في المتاجر . فاذا كان العمل يتطلب الوقوف لمدة طويلة، فان العامل يرحب بان يجد في المتجر من يعتني بقدميه. واذا كانت النسـاء تردن الخروج في المساء، فانهن يردن تصفيف شعورهن. ولما وجدنا ان بعض العـاملين يضحـون بسـاعة الراحة للذهاب الى الحلاق، أسسنا محلا للحلاقة لخدمة العاملين في كل متجر. وجدنا من خلال التعامل مع مشكلات العاملين المختلفة ان سرعة

اتخاذ القرار تشعر العامل المعني بالرضا. ومن ثم خولنا مديري المتاجر ومساعديه السلطة لاتخاذ الاجراءات فيما يتصل بمشاكل العاملين بين الحين والآخر. فيستطيع المدير في الظروف الطارئة ان يعطي منحة او قرضا حتى ١٠٠ جنيه، او ان يمد الأجازة المرضية مدفوعة الأجر اكثر من حدودها اذا دعا داع. وتعد هذه الاستجابة الفورية لمطالب الأفراد من الملامح الرئيسية لسياستنا في الاعتناء بالمستخدمين.

كان هناك بعض الحالات التي لايسمح فيها لمدير المتجر بالتصرف. ومن بينها مثلا الاجازة المرضية الطويلة، وحالات العاملين الذين يعتنون بأفراد عائلتهم، او الذين يحتاجون الى قروض بسبب تعرضهم لمتاعب مالية. وللتعامل مع هذه المشكلات، تم في عام ١٩٣٣ انشاء اللجنة الاجتماعية التي تجتمع كل اسبوع اذا ما كانت هناك حالات كافية للدراسة. ويطلب من هذه اللجنة اتخاذ قرار خلال اسبوع. واذا تعذر ذلك، فيجب اخطار الموظف المعني لطمأنته ان حالته قيد البحث. ويتألف اعضاء هذه اللجنة من كبار المستخدمين والعاملين في اقسام الادارة والمعاشات، وموظفي المتاجر.

لا زلت اذكر حالة معينة من خمسة وعشرين عاما. كانت تتعلق باحدى عاملات النظافة التي كانت تخدمنا منذ عشرين عاما. كانت امرأة بشوشة تحظي بحب العاملين كلهم. جاءت هذه السيدة الى العمل ذات يوم بوجه عابس مكتئب ولزمت الصمت طوال اليوم. واكتشف المدير انها وزوجها قد شقيا حتى يمنحا ابنهما تعليما جيدا. واصبح ذلك الابن مهندسا مؤهلا، وحصل على عمل في امريكا الجنوبية، حيث التقى بفتاة احبها واتفقا على الزواج. ولم يكن لديه من المال ما يكفي لدفع تكاليف سفر والديه لحضور الزفاف، ولم يكن يملكان مصاريف الرحلة. وتبين ان هذا هو سبب اكتئابها. واقترح اعضاء اللجنة ان نمنحها اجازة وندفع مصاريف رحلتها لحضور الزفاف ووافقت اللجنة بعد مداولات. وتم منح السيدة اجازة ١٤ يوما، واعطيت مصاريف السفر. وذهبت لحضور زفاف وحيدها.

ضربت هذا المثل على حسن العلاقات الانسانية امام مديري احدى الشركات الكبرى فقال: «لا بد وانك مجنون حتى تفعل ذلك من اجل عاملة نظافة. فقلت: «لو كان عندك مديرا في منظمتك اعوزه المال في ظرف مشابه، الا تمنحه الاجازة وتقرضه المال؟»

فقال: «هذا امر مختلف. كنت سأعطيه ذلك بالطبع».

فقلت: «لماذا تقتصر هذه الامتيازات على المدراء، ولاتمتد الى عاملة نظافة وهبت العمل عمرها وولاءها واخلاصها؟»

ولم يجد ردا مقنعا. كان من سياستنا على الدوام ان نشجع موردينا على تطبيق اسلوب مشابه لأسلوبنا ازاء عامليهم، حسب ظروف العمل، وكان توفير الظروف الانسانية المناسبة والاجور العادلة واحترام الفرد من العوامل الهامة التي اسهمت دون شك في

زيادة كفاءة موردينا وانتاجيتهم، وفي الحد نسبياً من المشاكل الصناعية التي يواجهونها.

يمكنك ان تعرف الكثير عن مستوى الشركة عامة، من خلال مستوى دورات المياه فيها. فاذا كانت رديئة المستوى، ثق ان مستوى المصنع كله سيكون رديئا. اعتدت في زياراتي للموردين ان اتعمد البحث عن دورة المياه، حتى ان بعض المديرين كانوا يقولون: «احترس، لقد جاء دان مفتش دورات المياه».

كان «سيمون» قد بدأ يعاني نوبات قلبية خفيفة في اوائل الستينات، وكان ذلك بعد انضمامه الى رتبة النبلاء في ١٩٦١. لكنه استمر في الحضور الى المكتب بانتظام بعد تحسن حالته. ورغم انه حد من نشاطاته، فقد ظل الرئيس العام للشركة. وكان من الصعب جدا في هذه الفترة اقناعه بسلامة اجراء معين، الأمر الذي عوق بعض التطورات الجديدة بالتنفيذ. لم يكن «سيمون» مطلقا سهل القيادة، لكنه كان يتمتع باحترام الجميع وحبهم رغم نزعته النقدية. لكن مرضه زاد من صعوبة التعامل معه. ولذلك لعب ابي دورا هاما في هذه الفترة، فهو لم يكن يريد ازعاج «سيمون» بسبب مرضه. لكنه لم يكن يريد ايضا ان يعوق تقدم العمل، وقد استطاع ان يقنع «سيمون» بوجوب اجراء بعض التطورات التي كان يعارضها في بادىء الأمر.

كانت غرفة الطعام الخاصة بـ «سيمون» تقع في الطابق السابع، وكان ذلك قبل مرضه. لكنها انتقلت الى الطابق الأول الى جوار مكتبه. وكنت اتغدى معه عادة حين كنت اعمل بالمكتب الرئيسي ولا يكون عندي ارتباطات. وفي احد ايام ١٩٦٤ قال لي: «هل ستتغدى معي اليوم يا ماركوس؟».

قلت: كلا، لقد دعوت «وودرو وايت».

فقال: احضره معك. ولما جاء «وودرو» اخبرته اننا سنتناول الغداء مع «سيمون»، وحذرته ان «سيمون» قد اصبح صعب المراس وكثير الجدال، حتى يعد نفسه لذلك. وتناولنا الغداء مع «سيمون» وابي، وكان «سيمون» عاقلا جدا ومضيافا وحلو الحديث. وحين خرجت لأودع «ودرو» قال لي: «انا لا أفهم ما قلته عن «سيمون». انه في حالة ممتازة. لم اره قط في هذه الحالة». ووافقته الرأي.

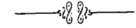
وبعد دقائق من انصراف «وودرو» كنت في مكتبي في الطابق السادس، حين اتصل بي احد المساعدين ليطلب مني الحضور الى مكتب «سيمون». حين وصلت الى هناك، وجدت «سيمون» ممددا على محفة وفوقه غطاء، وقدماه بارزتان منه. كان ابي يجلس الى جانب المحفة وهو يبكي في هدوء. بعد انصرافنا انا و«وودرو»، ـ ذهب «سيمون» مع اخي «مايكل» الى قسم المعاطف. وبعد ان ابدى بعض الانتقادات المبررة حول البضائع قال

لمايكل: «هيا نرجع الى مكتبي». وحين هم «مايكل» بفتح الباب، احس بيد تنزلق على ظهره. كان «سيمون» قد هوى على الأرض. وفي ظرف ثوان كان قد فارق الحياة بسبب نوبة قلبية شديدة. وقلت لنفسي وانا أراه محمولا الى الخارج ، انه ذهب مثلما كان يريد، محققا النبوءة التي اطلعني عليها قبل سنوات، حين قال انه ان ذهب فسوف تخرج قدماه اولا. وكانت هذه نهاية عصر.

كنت قد طلقت «الزا» في ١٩٥٣، وبدأت اصادق «بريندا بيت» التي كانت ممثلة طموحة وجميلة ومحبوبة جدا. كانت مولودة في الصين، وقد اعتقلها اليابانيون مع اسرتها في اوائل الحرب، حيث قضت ثلاثة اعوام ونصف في سجن شنغهاي.

تزوجت «بريندا» عام ١٩٥٦، وقضينا عيد الميلاد في «سان مورتيز». لكنها اصيبت في حادث اثناء مشاهدتنا لسباق التزحلق، وكانت اصابتها خطيرة. كان عليها ان تقضي عدة اسابيع بالمستشفى. وبقيت وحدي في الفندق ، راغبا عن الاشتراك في الرياضات الشتوية التي لم أكن اجيدها . وخفت ان يصيبني مكروه واترك «بريندا» وحدها.

ولدت «اماندا» ابنتي من «بريندا» عام ١٩٥٨. وانفصلت عن «بريندا» عام ١٩٦١، وحصلنا على الطلاق فيما بعد. والواقع انني الذي كان صعب المراس وكانت الغلطة غلطتي. لكننا لازلنا صديقين.



الفصل الحادي عشر

كان سوء صحة «سيمون» وعجزه عن العمل بكل طاقته سببا في احساسه بالاحباط وميله الى الافراط في النقد مثلما ذكرت. وقد عوق من تقدم المؤسسة احجام زملائه عن مجادلته. ولكن بعد وفاته في عام ١٩٦٤، استعادت التجارة قوة الدفع.كان الكثيرون منا قد نشأوا تحت رعاية «سيمون» وتشبعوا بفلسفته وتعلموا مهاراته. وكنا قد تشربنا بمواقفه ازاء رفاهية العاملين واهتمامه بالعملاء . وكان فخره بالشركة وادراكه لمكانتها في المجتمع قد انتقلا الينا ايضا. وطوال اربعين عاما، كان ابي هو الأنا الثانية لـ «سيمون». ولذلك فلم يكن غريبا حين تولى الرئاسة، ان يقود الشركة بنفس القوة التي خلقها «سيمون»، حتى بعد رحيله عنا.

قد يتكون انطباع لدى القارىء من خلال وصفي لما أحرزناه في اواخر الخمسينات واوائل الستينات، ان تقدم «ماركس اند سبنسر» كان طاغيا في مجال التنظيم والادارة وادارة الأفراد. ولاشك ان سياسة الأفراد والمبادىء التي أرساها سيمون وابي، ونفذها العاملون على مر السنين، قد اسهمت كثيرا في نجاحنا، بفضل تفاني العاملين في عملهم. ولكن تطور «ماركس اند سبنسر» لم يكن يقتصر على ذلك.

تحولت «ماركس اند سبنسر» من سلسلة ناجحة من المتاجر الى مؤسسة وطنية. وكانت الجودة والقيمة والتنوع والجاذبية التي تتميز بها بضائع «ماركس اند سبنسر» تترك انطباعها الكبير على المجتمع. وعم احساس بأن قيمة منتجاتنا وامكان الثقة بها قد بلغا مستوى الامتياز. وذاعت سمعتنا في الاعتناء بانتقاء الأغذية ومراعاة الجوانب الصحية بها، ونلنا تقدير العملاء. وساد الرضا عن نوعيات الملابس التي نعرضها بين فئات متزايدة من الناس.

كان تحسين نوعية الثياب، التي تشكل الجزء الأكبر من تجارتنا، راجعا الى عدد من العوامل. كانت الحرب قد عجلت بخطى التقدم العلمي والتكنولوجي. وامكن استخدام

بعض هذه التكنولوجيا الجديدة في تحسين المواد الخام المستخدمة في الملابس. وتوافرت لنا تشكيلة كبيرة من الأنسجة مرتفعة الجودة، الأمر الذي ادى الى اختيار افضل للثياب والتصميمات الجذابة. حين خرجنا من حالة التقشف والتقنين بعد الحرب عبر عملاؤنا، وخاصة النساء، عن ترحيبهم بالتحرر من سنوات الاختيار المحدود، بالسعي وراء تشكيلة أوسع من الثياب الخفيفة متنوعة الألوان والتصميمات. كان الرجال والنساء على السواء يريـدون التخلص من تلك الأيام التي بدا فيها ان الكل يرتدون زيا موحدا اشبه ببذلة العمال. وبدأوا ينتقون الثياب البسيطة المريحة.

كنا قد أسسنا قسما للتصميمات في عام ١٩٣٨، لكن التطور الهائل الذي طرأ عليه كان تحت قيادة «هانز شنيدر» الذي انضم الى الشركة عام ١٩٤٩.

كان يتمتع بمعرفة وحس جيدين تجاه ما تنشده عميلاتنا. واستطعنا تحت قيادته ان نؤلف فريقا للتصميدات اسهم اسهاما كبيرا في تطور قسم الملابس النسائية، الذي كان يشكل اكبر الأقسام عندنا. وانشأنا قسما للتصميمات المطبوعة يقدم الاستشارات لأقسام المشتريات والى الموردين حول الأنماط والألوان المرغوبة. وابتكر هذا القسم تصميمات جديدة للثياب والأوشحة. وظل «سيمون» على اطلاع دائم على المنتجات التي تعرضها كبار المحلات في بريطانيا واوربا. وكانت زوجته «ميريام» نعم العون في ذلك بفضل رقي ذوقها. ونتيجة لذلك وجدنا ان الملابس التي نعرضها، والتي كانت تشتريها الفتيات العاملات وذوات الدخل المحدود، قد بدأت تجتذب عددا متزايدا من نساء الطبقة المتوسطة وأصحاب الدخول المرتفعة.

وادى القضاء التام على البطالة في الخمسينات الى رفع القوة الشرائية. وكنا اكثر ارتباطا من اي مورد آخر للثياب بما يمكن اعتباره ثورة اجتماعية مصغرة.

وبالتعاون مع موردينا، كنا الرواد في تطوير الأقمشه الرجالية الاصطناعية التي تتميز لسهولة الاعتناء بها. ومثلما قال ابي، فقد بدأنا بداية سريعة، وهذا هو ما احدث الفرق كله.

كنا في ذلك كله نساعد على تحقيق تلك الديمقراطية في الطلب، التي كانت طابع بريطانيا في مرحلة ما بعد الحرب، والتي كان ينبغي ان تساعد على خلق مجتمع اقل انقساما وغيرة. فيما بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٦، ضاعت «ماركس اند سبنسر» نصيبها في سوق الملابس البريطاني من ٥ الى ١٠ في المائة. وفي العقد الواقع بين ٥٦ و١٩٦٦، اصبحت الأرباح ثلاثة اضعاف ما كانت عليه. وزادت مبيعات الأغذية والملابس بين ٥٦ و١٩٦٦ من ١١٩ مليونا الى ٢٣٨ مليونا، بزيادة مائة في المائة، مع العلم بأن التضخم زاد في تلك الفترة بنسبة ٣٢ في المائة. وبصفة عامة، كانت هناك زيادة ضخمة في حجم السلع التي نبيعها.

اهتز ابي بشدة لوفاة «سيمون»، لكنه كتب في مذكراته «منذ وفاته احسست بأنني اكثر تحررا في جانب ما. فقراراتي واحكامي لم تعد مرتبطة بالآخرين مثلما كانت مرتبطى بـ «سيمـون». وخلال الأعوام الثلاثة التي تولى فيها الرئاسة، لم يحاول ان يتدخل في النواحي التي كان يدرك انه لايملك موهبة «سيمون» فيها. ورغم انه تمسك بالاشراف العام على الشركة. فقد اعطى مسؤولية متزايدة عن تطوير قسم الملابس لاخيه الاصغر «تيدي»، الذي كان يدعمه اخي «مايكل» و «جان ليواندو». امٰ انا فقد ركزت على تطوير قسم الاغذية المتنامي.

كان من ضمن النواحي التي تم تطويرها في مجال تجارة الأغذية، تحسين المستويات الصحية التي كنا نشجع موردينا على مراعاتها. وقد امتد هذا التحسين الى المزارع التي كانت تورد المنتجات الطازجة الى المتاجر مباشرة، او الى مصانع التعليب التي نتعاون معها. كان هذا التشجيع يسبب الازعاج في بعض الحالات ، ولكن معظم الموردين ابدوا تعاونا كبيرا. وقد وجدت في هذا المجال عونا كبيرا من «ناثان جولدنبرج»، وهو اخصائي اغذية بارز له وزنه على المستوى القومي.

كان «جولدنبرج» يأبى الرضوخ للحلول الوسط في المجالات التي يعتبرها هامة. كنا قد بدأنا التعامل مع شركة عالمية لانتاج البسكويت. ولم يكن مدير الشركة راضيا عن تصنيع منتجاته تحت اسم «سان مايكل». اما «جولدنبرج» فلم يكن متأكدا ان مستويات النظافة العامة في المصنع ترقى الى الحد المطلوب. وذات ليلة قدر ان يبقى في المصنع. وبعد ان توقفت الأفران عن العمل عاد الى المكان الذي توجد فيه الأفران، وأضاء الأنوار كلها. وعلى الفور انسحبت اسراب من النمل الأحمر عائدة الى مكانها تحت الأفران. كانت هذه المخلوقات تعيش على الدفء المنبعث من الأفران ، وتتغذى على الفتات المتساقط منها اثناء العمل. وذاعت حكاية هذه الزيارة الليلية، وطلب رئيس الشركة ان يعود الى التعامل معنا، فلم نقبل الا بعد ان تأكدنا من مراعاتهم للمواصفات الدقيقة. اما من جانبنا، فقد كنا نرفع من مستوياتنا طوال الوقت. كان أساس سياستنا هو تدريب العاملين على النظافة الشخصية والصحة العامة. ويتضمن كتيب الصحة العامة الذي يوزع في مطابخ «ماركس اند سبنسر» وحجرات طعامها جملة تقول: «النظافة العامة جزء من فلسفتنا... وهي تقوم على ادراك الفرد لمسئوليته تجاه تنفيذ التعليمات الخاصة بالتعامل مع الأطعمة، والنظافة في كل خطوة . كنا نصر على ان يحاول كل موظف ان يزيل اي نوع من الأقذار التي يلحظها.

كانت هناك قواعد صارمة في المطابخ وغرف الطعام تتعلق بحفظ الأطعمة وطرق طهوها وتقديمها. وكانت نفس هذه القواعد تطبق مع الموردين، في المزارع والمصانع على حد سواء.

كانت سياسة الاصرار على المنتجات البريطانية قد أرسيت منذ وقت طويل، قبل ان

اقرر تطبيقها في قسم الأغذية. ولم تكن هذه مسألة هينة او خالية من المصاعب. ففي الستينات كنا نبيع نوعا من الجزر يزرع في هولندا، وكان من نوعية ممتازة تلقى اقبالا كبيرا. واقترحت ان نزرع هذه السلالة من الجزر في بريطانيا. لكن الخبراء قرروا ان هذا غير ممكن. ولم استطع ان اصدق ذلك، لأن المقاطعات الشرقية تتمتع بنفس نوع التربة والمناخ السائدين في هولندا. وجرت اول تجربة في مطار مهجور، لكنها باءت بالفشل.

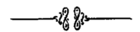
ثم التقيت بعائلة من «لنكولنشاير» مولفة من «تيم تينسلي» وزوجته الهولندية الخبيرة في الأمور التكنولوجية. كان «تينسلي» يزرع ٢٠٠٠ اكر، وكان يعتقد هو وزوجته ان بالامكان زراعة الجزر الهولندي فيها. وطلبنا اليهما ان يجربا. وفعلا نجحت التجربة التي بدأت بصورة متواضعة، ونمت علاقة تجارية بين «تينسلي» و«ماركس اند سبنسر» على مدى السبعة عشر عاما الماضية.

استخدم الزوجان في البداية عشرين عاملا، وكان حجم تعاملهما معنا ٤٨,٠٠٠ جنيه في السنة الأولى. وبلغ هذا الرقم عشرين مليونا في ١٩٨٦. ولكن هذا الرقم لايقتصر على الجزر وحده. بلغت مساحة المزرعة الآن ٤٠٠٠ اكر، ويقوم الزوجان باعداد معلبات السلاطة من الخضروات الطازجة التي تنتجها المزرعة. وقد زاد عدد العاملين في المزرعة ومصنع التعليب من عشرين الى الف ومائة. ويبين هذا ما يمكن تحقيقه اذا تعاون المزارع بصورة وثيقة مع عملائه، وانتج ما يريدونه. ونحن نشجع موردي الأغذية على تحسين مستوى ظروف العمل والأجور، مثلما نفعل مع مصنعي الثياب. وأنجح هؤلاء الموردين هم اولئك الذين اتبعوا هذه السياسة.

في الستينات، كان السوق مليئا بأنواع الدجاج المجمد، الذي كان معظمه من نوعية رديئة. وكنا نؤمن ان هناك طلبا على الدجاج الطازج ذي النوعية الأفضل رغم ارتفاع ثمنه بعض الشيء. وجدنا صعوبة في البداية في البحث عن المورد المناسب. ولكن «الكولونيل كوربيت» عضو البرلمان السابق عن حزب «توري»، كان رئيسا لاتحاد تعاوني لانتاج الدواجن في «هيرفورد». ابلغنا «كوربيت» انه يستطيع ان يورد لنا الدجاج الطازج، وكانت تلك بداية لتطور رئيسي ادى الى جعلنا اكبر موزعي الدجاج في البلاد.

بدأت في عام ١٩٥٩ في سياسة اختيار الشبان النابغين النشطين واتخاذهم مساعدين لي. وكانوا يقضون بين العام والنصف والعامين معي، حتى اذا اثبتوا جدارتهم، اوكلت اليهم مهاما اكثر مسئولية في الشركة.

وكان «سيمون سسمان» من الأشخاص الذين استثنيتهم من هذه القاعدة. وقد رجع الى جنوب افريقيا ليصبح رئيسا لمجموعة الأغذية في «وولورث»، التي لانزال على علاقة وثيقة بها.



الفصل الثاني عشر

التقيت في اواخر الخمسينات بـ «ليلى مورتزكي» (ني سباتز). وكانت جذابة وذكية بصورة غير عادية. وتزوجنا في عام ١٩٦٣، وولدت ابنتنا «دانيللا» في عام ١٩٦٥. كانت «ليلى «قادمة من «لفوف»، ذلك الجزء من «بولندا» الذي كان تابعا للامبراطورية النمساوية/ الهنغارية التي كانت تعرف آنذاك باسم «ليمبرج». وكان والدها يعمل في الأخشاب وله غاباته الخاصة، وكان موسرا يملك بيتا في «لفوف» وآخر في الريف.

و«ليلى» يهودية ، كانت امها صهيونية. اما والدها فلم يكن يهتم لا بالصهيونية ولا بفلسطين. كان وطنيا بولنديا لايرى، او لا يريد ان يرى ماكان يحدث في المانيا وأوربا بعد تولي «هتلر» للسلطة. وحين اندلعت الحرب وغزت «ألمانيا» «بولندا»، قال والد «ليلى» ان بريطانيا وفرنسا ستهبان لنجدة «بولندا» وان ألمانيا سرعان ما تنهزم. لم يكن هناك ما يدعوه الى القلق، فالأسرة تستطيع ان تبقى في «لفوف». وسرعان ما انهارت أوهامه حين بدأ الألمان يتقدمون صوب «بولندا» وقصفوا «لفوف» بعنف. وقرر الأب ان من الأفضل ان ترحل الأسرة عن «لفوف» الى الريف حتى تنتهي الحرب. ونجحت الأسرة في الهرب.

وانتقلت «ليلى» مع والديها واخيها الى قرية بالقرب من الحدود الرومانية. ولكن الألمان بدأوا يتوغلون أكثر فأكثر في «بولندا» من جهة الشمال الغربي. ثمهاجمت «روسيا» شرقي «بولندا». وعندئذ قرر والد «ليلى» ان يحاول الفرار مع اسرته عبر الحدود الى «رومانيا». ولم تأخذ الأسرة معها الا ما استطاعت ان تحمله. ولحسن الحظ انهم اخذوا معهم بعض العملات الذهبية والحلى لأنهم حين بلغوا الحدود صاح فيهم رجال الشرطة الرومانيون «ارجعوا ايها اليهود». واستطاعوا بالرشوة ان يغيروا موقف احد الحراس، الذي سمح لهم بالعبور بصحبة عدة آلاف من الهاربين من الألمان الزاحفين على البلاد. وتم ارسالهم الى مخيم اللاجئين، حيث عزلوا اليهود. واستطاع والد «ليلى» بالرشوة ان

يخرج اسرته من المخيم، حيث اتجهت الأسرة الى «بوخارست»، والتحقت «ليلى» بالليسيه فرانسيه.

لم يكن والد «ليلى» يرغب في الذهاب الى فلسطين. وحاول ان يحصل على تأشيرة دخول للولايات المتحدة، حيث كان شقيقه يقيم منذ بعض الوقت، لكن طلبه قوبل بالرفض. ولكن الأسرة نجحت في النهاية في الحصول على أوراق مكنتهم من الهجرة الى فلسطين. وكان من حسن حظهم ان استقلوا آخر باخرة غادرت أوربا بصورة قانونية الى ذلك الملاذ في ١٩٤٠. وقضت «ليلى» السنوات الثماني التالية في فسلطين. وتعلمت في اسرائيل وفي جامعة «جنيف»، حيث درست على يد الأستاذ الشهير «رابارد» وحصلت على درجة في العلوم السياسية والاقتصادية. ثم درست للحصول على درجة الماجستير في «لندن سكول اوف ايكونومي».

بعد وفاة زوجها الأول بالسرطان في كندا في سن مبكرة، عادت الى لندن. وظلت في حالة معنوية سيئة حتى ساعدها صديق في الحصول على وظيفة في السلك الديبلوماسي الاسرائيلي. والتقيت بها أول مرة حين كانت تعمل في السفارة الاسرائيلية في لندن. وهي امرأة ذات مقدرة عالية وطاقة وحماس فائقين. مضى على زواجنا ثلاثة وعشرون عاما في سعادة غامرة. وقد كانت «ليلى» نعم العون لى في عملي.

كان يوم زواجنا من الأيام الباردة المثلجة. كنا نعتزم قضاء شهر العسل في «بربادوس». ولما تأخرت الطائرة حتى الثامنة من تلك الليلة، اقام لنا اخي «مايكل» وزوجته «دافني» حفل كوكتيل صغير في الطريق الى مطار «هيثرو». وشربت عدة كؤوس. وقرر «مايكل» ان يأتي ليودعنا. وتأخرت الطائرة بسبب الثلوج، وشربت بضعة كؤوس اخرى. لم تكن هناك طائرات نفاثة في ذلك الوقت، واستغرقت الرحلة الى «باربادوس» سبعة عشرةساعة . لم أنم في الطائرة وتناولت كأسا او كأسين. وحين وصلنا الى الفندق في «باربادوس» عصر اليوم التالي، حيتنا الادارة بكأس روم. كنت مرهقا، لكنني قررت ان اخرج لأتمشى، اذ كنت اعرف ان «فيكتور روتشيلد» يملك بيتا على بعد بضع مئات من الياردات على الشاطىء. ووجدناه هناك. هنأنا هو وزوجته وأصرا ان أتناول كأسا من الروم احتفالا بالمناسبة. رجعت الى الفندق مترنحا بعض الشيء، وبعد الاغتسال نزلت مع «ليلى» لتناول العشاء. كانت امسية دافئة وكان المطعم جميلا، وطلبت زجاجة من النبيذ الأبيض وتناول كل منا كأس، وشربت نخب عروسي، وفي ثوان بدأت الغرفة تدور بي بسرعة رهيبة. ساعدتني «ليلى» في العودة الى غرفتنا، ووضعتني في الفراش . صحوت بعد اثنتى عشرة ساعة دون ان يصيبني الصداع. وهكذا فقد قضينا ليلة زفافنا في الطائرة، وقضيت الليلة

الثانية غائبا عن الوعي. لم تكن هذه البداية التي تبشر بالخير. ولكن لعل هذا احد اسباب نجاح زواجنا على امتداد الثلاثة والعشرين عاما الماضية.

في السنوات الخمس او الست التالية، كنا نقضي شهر يناير او فبراير مع «فيكتور روتشيلد» وزوجته في «باربادوس». تعد الفترة من اكتوبر الى ديسمبر، قبل عيد الميلاد، من اشق الفترات على اصحاب التجارة. ولذلك فانا مدين بالكثير لـ «فيكتور» وزوجته لحسن استضافتهما لنا بعد اشق فترات السنة. كنا نقضي اوقاتا رائعة نستمتع فيها بالشمس والسباحة والاسترخاء والحديث الحلو. وكانت هذه اجازتنا السنوية الرئيسية. واعتقد ان هذا كان من بين الاسباب التي ساعدتني على الاحتفاظ بنشاطي وعافيتي.

وفي «باربادوس» ايضا بدأت صداقتنا مع «تشارلي» و«جيريل سميث ريلاند». وقد شغل تشارلي منصب رئيس مجلس الجمعية الزراعية الملكية منذ عدة اعوام. وهو صاحب فضل كبير، هو و«فرنسيس بمبرتون»، في شغلي لمنصب رئيس الجمعية الزراعية الملكية بعد عشرين عاما في ١٩٨٥/٨٦.

في عام ١٩٦٤ اتصل بي وزير الزراعة «كريستوفر سومز» ليسألني هل يمكن ان تتبرع «ماركس اند سبنسر» بمقعد في جمعية التسويق الزراعي في كلية «واي». وحين قلت كلا، قال انه يود ان يحادثني في الأمر، فدعوته الى الغداء. قلت له بعد الغداء: «سنتبرع بنصف المقعد بشرط ان يتبرع المزارعون بالنصف الآخر.

وبهذه الطريقة سوف يبدون اهتماما حقيقيا، الأمر الذي قد لايحدث لو تبرع الغرباء بالمبلغ كله». وبعد تدبير مسألة المقعد، كانت هناك مأدبة غداء في مبنى البرلمان، وطلب الي ان القى كلمة. وبعد انتهائي نهض احد افراد عائلة مشهورة من المزارعين وقال: «لقد استمعت الى السيد «سيف» في دهشة . منذ متى نلتزم نحن الفلاحين بزراعة ما يريده المستهلك؟ على المستهلك ان يقبل ما نزرعه». وجذبه زملاؤه واقعدوه. ولكن مما يؤسف له ان هذا لايزال موقفا سائدا الى حد كبير في عالم الصناعة والزراعة حتى يومنا هذا.

في يناير ١٩٦٦، تحدثت في مؤتمر اكسفورد العشرين للزراعة. وكان موضوع الخطاب «السوق المتنامية للمنتجات عالية الجودة». شرحت للحاضرين التقدم الذي احرزناه في توسيع سوق المنتجات الغذائية عالية الجودة بالتعاون مع المزارعين التقدميين ومجموعات الأغذية ومؤسسات تصنيع الغذاء. وتحدثت عن الفواكه والخضروات والدواجن واللحوم الطازجة والمعلبة والبيض . وشرحت ان عملاءنا على استعداد لدفع ثمن اعلى نظير الحصول على سلعة عالية الجودة وخالية من التلف ومذاقها طيب. واوضحت للحاضرين ان اعضاء مجلسنا وكبار منفذينا واسرهم يتناولون الأطعمة التي نبيعها، وانا

نؤمن انه اذا لم يكن الطعام صالحا لنا ولأسرنا، فهو لايصلح للآخرين. والواقع اننا نطبق نفس المبادىء على معروضاتنا من الثياب وسواها حتى يومنا هذا. وهذه احدى وسائل المحافظة على مستويات الجودة. ولكننا بالطبع ارتكبنا، ولازلنا نرتكب بعض الأخطاء.

ألقيت خطابا آخر بعد ثلاثة اعوام، تناول موضوع العلاقات الانسانية الطيبة في العمل. وكانت المناسبة هي المؤتمر السنوي لمعهد المديرين في «قاعة البرت». كنت مجهولا وسط مجموعة من الخطباء المتميزين، الذين كان من بينهم «ايان ماكلاود» مستشار الخزانة في حكومة الظل. وكان هناك ايضا «رونالد ريجان»، محافظ كاليفورنيا السابق، و«بربارة كاسل» التي كانت عضوا في الوزارة لشئون التوظيف والانتاج، وسير «جون بتجمان» الشاعر، وسير «ديريك بريتشارد» رئيس معهد المديرين.

كرست «بربارة كاسل» جزء من خطابها للحديث عن اهمية العلاقات الصناعية الجيدة، وابدت عدة انتقادات مبررة للفرقة بين الادارة العليا وموظفيها. وختمت حديثها بقولها: «ينبغي ان ندرك، سواء اردنا ام لا، أن القوة الحقيقية تكمن الآن في الورش وفي صغار العاملين». وكان كلامها صحيحا الى حد كبير.

لكن بعض ممثلي النقابات العمالية اليساريين المتطرفين كانوا ينظرون الى قوتهم على انها ترخيص لاحداث الشغب، بمبرر او بدون مبرر. ومن ثم فان سلطة ملاحظي العمال، وبعضهم ممتازون ، كانت معرضة للخطر الى حد كبير. كان عنوان خطابي «العلاقات الانسانية» ـ ناجحة ام فاشلة». وكانت الأفكار التي عبرت عنها مغايرة بعض الشيء لأفكار «كاسل». وهذا هو بعض ما قلته: اعتقد ان من اهم المشكلات التي تواجه الصناعة اليوم هي ارساء العلاقات الانسانية الطيبة، وهي العلاقة التي يرسيها القائمون على الادارة بينهم وبين كل فرد يعمل في منظمة معينة. والادارة هنا شاملة، فقد تكون حكومة او صناعة مؤممة او نقابة تجارية او مشروعا خاصا.

ان الوضع يدعو الى الاكتئاب ، ما لم نتعامل بشكل اكثر تعاطفا واصرارا واحترافا مع قضية العلاقات الانسانية الأفضل على نطاق ارحب. ان مثل هذه العلاقات لايمكن ان تفرض من الخارج على اية صناعة، من قبل الحكومة مثلا. رغم ان الحكومة تحاول ان تفعل ذلك من آن لآخر... ان العلاقات الانسانية الجيدة لا يمكن ان تنمو الا اذا آمنت الادارة العليا بأهميتها، وعملت على تنفيذ هذه الفلسفة بصورة فعالة.

لابد ان تعتني الادارة بالأفراد الذين توظفهم في كل وجه من وجوه عملهم اليومي. وانا لا أتكلم هنا عن التعاطف وفعل الخير ، وانما عن الرعاية المعقولة التي وجدنا انها تأتي بالتجاوب على كل المستويات، مع بعض الاستثناءات القليلة. ويعبر هذا التجاوب عن نفسه

من خلال الولاء للمؤسسة والتعاون مع الادارة واستقرار العمالة بصورة افضل، وتقبل الأساليب الجديدة والحديثة طوعا. ان غالبية العاملين تحت هذه الظروف يفخرون باتقان عملهم. ويتولد عن هذا كله ارتفاع في الانتاجية والأرباح، يساعد الادارة على توفير التسهيلات التي تحظى برضا العاملين المجتهدين، وعلى دفع اجور افضل تقوم على الزيادة الحقيقية في الانتاج. ومن ثم فهي تفيد الفرد والمؤسسة والمجهود القومي. واستطردت اشرح الرأي القائل بان رجال الأعمال يولون اهتماما مفرطا بالماكينات والأنظمة، ولا يهتمون بالبشر القائمين عليها. ثم شرحت كيف ان السياسة التي كنت ادافع عنها تعبر عن نفسها بشكل ملموس، فقلت:

اولا: في سياسة الأجور المطردة، ما لم تكن الأجور مرضية ومتزايدة لن يحدث تحسن في الانتاجية، وستكون العلاقات الانسانية سيئة. يجب ان تحرص الادارة على توفير اسباب الراحة للعاملين، من غرفات لتناول الطعام الى مطابخ وحجرات للترفيه ودورات مياه.

يجب ان تكون هذه الأشياء مقبولة الى حد ان يستطيع المديرون ان يستخدموها. فاذا لم تكن المرافق مناسبة لكبار رجال الادارة، فهي لاتصلح للعاملين ايضا.

رغم الرعاية الصحية التي تقدمها الدولة، فهناك خدمات كثيرة ناقصة ومجالات واسعة للرعاية الصحية في العمل... شركتي توفر لعامليها مرافق للارشاد الطبي وطب الأسنان وعيادات للكشف عن سرطان الرحم والثدي.... قد تكون هذه الخدمات بسيطة، لكنها تبرهن للعاملين على ان الادارة مهتمة بهم وانها تدرس مشكلاتهم الخاصة.

وخلصت الى القول بأنه اذا كان مقدرا للمشروعات الخاصة ان تلعب الدور الهام الذي تقدر عليه، والذي يعد حيويا بالنسبة للاقتصاد القومي، فأعتقد ان من واجبنا جميعا ان نحرص على تطبيق المبادىء التي تحدثت عنها، مع تعديلها حسب ظروف كل مشروع. وان لم نفعل ذلك، فسوف تنمحي فعالية المشروعات الخاصة وقيمتها. ومن ثم فان الدولة تحكم سيطرتها وملكيتها على هذا النوع من الصناعة الذي تستطيع المشروعات الخاصة ادارته بكفاءة اعلى، اذا ما احسنت ادارتها.

مما يؤسف له ان ثمانين في المائة مما قلته عام ١٩٦٩ عن عجز الادارة العليا عن تنفيذ سياسة جيدة للعلاقات الانسانية لايزال مطبقا الى حد كبير حتى يومنا هذا.

رغم ان «سيمون» وابي و«تيدي» وكثيرون غيرهم تحدثوا مرارا عن اهتمامنا بما يسميه الآخرون العلاقات الصناعية، فان خطابي امام معهد المديرين هو الذي سلط الأضواء على سياسة «ماركس اند سبنسر» فيما يتصل بأهمية العلاقات الانسانية في

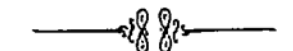
الصناعة. وادى ذلك الى جذب الانتباه نحوي. واعتقد كثيرون، بعضهم من اصدقائي، انني ضعيف من ناحية العلاقات الصناعية، وساذج او ممل. وعرضني ذلك للنقد.

ورغم ذلك، فان عددا اكبر من رجال الادارة العليا يتبنون السياسة التي تحدثت عنها، وان كانوا اقلية. وتشمل هذه الأقلية عددا من انجح المنظمات الصناعية والتجارية واكثرها ربحا في العالم. ولا استطيع ان افهم ماذا يمنع زعماء الحقل الاقتصادي من ادراك قيمة العلاقات الانسانية الطيبة في العمل.

فيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ زادت مبيعات الأغذية في «ماركس اند سبنسر» من ٢٤ مليونا الى ٩٧ مليونا. وفي النصف الثاني من الستينات، بدأنا في تطوير شبكة قومية لتوزيع الغذاء ونقله، مكنتنا من ضمان وصول المنتجات الغذائية التي تنتجها المزارع ومعامل التعليب الى كل متاجرنا في حالة ممتازة خلال ست وثلاثين ساعة.

لم تكن الحياة كلها «ماركس اند سبنسر» والادارة وزيادة المتاجر والموردين واسرائيل. ففي اواخر الخمسينات واوائل الستينات اصبحت صياد اسماك بارعا. املك انا و«ليلى» بيتا في المزرعة التي بناها ابي على مر السنين. وهناك نهر صغير يخترق خلال المزرعة ويصب في «كينيت»، وبعد مكانا ممتازا لصيد سمك الأطروط. وفي المزرعة يحيط بنا الأصدقاء. تزوجت اختي «جوديت» اسرائيليا يدعى «ابراشا شخترمان» وانتقلت للاقامة في اسرائيل. لكن صديقتها «اورسولا» التي تزوجت من «بيترآدم» تملك بيتا في المزرعة و«بيتر» هو الذي علمنى الصيد.

اصبحت حياتي انا و«ليلى» حافلة بالأصدقاء من مختلف دروب الحياة، اصدقاء الطفولة، واصدقاء المهنة واصدقاء من عالم السياسة. وقد احتفظت على مر السنين باهتمامي النشط باسرائيل، وكان الأمل يحدوني دائما في ان اسهم اسهاما كبيرا في تحقيق السلام بين اسرائيل وجيرانها العرب (حيث لي بعض الأصدقاء). من بين الصداقات التي نميناها في تلك الفترة تلك التي وطدناها مع الناشر «جورج ويدنفيلد»، وهو رجل مثقف وذكي للغاية. وهو يدعم اسرائيل بشكل بناء ومستمر. ومنذ اصبح عضوا في مجلس اللوردات، تحدث بشكل منتظم ومقنع في المداولات المتعلقة بالشرق الأوسط.



الفصل الثالث عشر

منذ عودتي الى انجلترا في ١٩٥١، واظبت على زيارة اسرائيل ثلاث مرات في العام، وفي ذهني ثلاثة أغراض: اولا مساعدة اعضاء الحكومتين البريطانية والاسرائيلية على تبادل الرسائل عبر القنوات غير الرسمية، ثانيا: محاولة تقديم العون لاسرائيل في حقل التنمية الاقتصادية، وثالثا: لانخراطي بشكل انشط في شئون معهد «وايزمان» للعلوم.

بعد احدى زياراتي في ١٩٥٣، أعددت مذكرة تحت عنوان «الاستقرار في الشرق الأوسط»، أشرت في اهم فقراتها الى العداوة العربية المستمرة لاسرائيل، ومعارضة الحكومات العربية لبريطانيا ايضا في تلك الفترة. وفيما يلي اوجز الفقرتين الأوليين من المذكرة:

١ ـ لايزال الاستقرار في الشرق الأوسط هدفا منشودا من أجل السلام العالمي وقد سعت السياسة البريطانية بجد من ١٩١٨ الى ارساء التعاون الوثيق مع الدول العربية التي خلفتها في المنطقة، ايمانا منها بأن هذه الدول سوف تتحد تحت قيادة بريطانيا العظمى. وقد اثبتت هذه السياسة فشلها، وخاصة في سنوات الحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥. فالدول العربية لاتظهر قدرا من الوحدة الا في معارضة القيادة او التوجيه من قبل بريطانيا، او اي قوى غير عربية، وفي عداوتها لاسرائيل. ولا يوجد جهد عربي موحد لتحقيق التنمية الاقتصادية في المنطقة، او لارساء الاستقرار، او حتى التنسيق العسكري الفعال. والحكومات غير مستقرة، اذ تتكاثر المؤمرات والثورات، ويتوقف الحفاظ على القوة على استثارة عاطفة الجماهير ضد القوى غير العربية التي كان لها نفوذ في المنطقة. اما الهدف المعلن للحكومة المصرية الحالية فهو القضاء على السلطة البريطانية في المنطقة.

٢ ـ تركيا واسرائيل هما الدولتان الوحيدتان اللتان تنعمان بالاستقرار في الشرق الأوسط، وتتبعان السبل الغربية في التنمية. وقد قويت علاقة بريطانيا بتركيا الى حد كبير.

غير ان علاقاتنا باسرائيل لم تحقق الا تقدما يسيرا. ثم انتقلت في المذكرة الى بحث مشكلات اسرائيل الاقتصادية وتنميتها. وفيما يلي اورد الفقرة الأخيرة:

١٤ ـ لم تنجح المفاوضات الجارية حاليا بين بريطانيا العظمى ومصر في التوصل الى اتفاق، فسوف يكون من المهم، بل الأهم في الظروف التي ستنشأ على الأرجح، ان ترسي بريطانيا العظمى قاعدة للتفاهم الأوثق مع اسرائيل. هذا التفاهم من شأنه ان يكون له قيمته الكبرى في الحفاظ على القدر الفعال من النفوذ البريطاني في المنطقة.

وزعت هذه المذكرة على عدد كبير من الشخصيات ، كان من بينها رئيس الوزراء سير «ونستون تشرشل» ووزارة الخارجية بالطبع. وتم اطلاعي فيما بعد على ردود أفعال بعض كبار المسئولين في وزارة الخارجية، الذين رأوا ان المذكرة تتناول القضية من طرف واحد وانها منحازة الى اسرائيل اكثر من اللازم. وورد التعليق التالي من «بيتر رامزبوتام» المسئول بوزارة الخارجية، الذي اصبح فيما بعد سفيرا لبريطانيا في واشنطن:

ـ السيد «ماركوس سيف» مدير مؤسسة «ماركس اند سبنسر» المملوكة لأسرته... وهو رجل مخلص ويؤمن بمستقبل اسرائيل ايمانا صادقا ... لابد وان المذكرة المرفقة قد تم توزيعها على مراكز النفوذ هنا على نطاق واسع. وهي مكتوبة بشكل جيد، ولكنها متفائلة اكثر من اللازم حول مستقبل اسرائيل الاقتصادي.

لايزال الوقت مبكرا على اصدار حكم قاطع على قابلية الاقتصاد الاسرائيلي للبقاء (الفقرة الثامنة)، فالأدلة الحالية تسير الى العكس على حد ظني. والفقرة الثانية عشرة تتجاهل حقيقة ان نفط الشرق الأوسط سيذهب الى «حيفا» وان الكميات ستتزايد هذا العام (ما لم نستطع اقناع شركات البترول بوقف هذا) ـ لكن ربما يكون هذا الحذف في محله.

الدرس الجدير بالفهم موجود في الفقرة الرابعة عشرة

ب.رامز بوتام ١٨ / ٥

ربما انني كنت مفرطا في تفاؤلي ازاء اقتصاد اسرائيل. ولكنها كانت ولاتزال تحرز تقدما ملموسا في عدة نواح، رغم متاعبها الاقتصادية الحالية.

في اكتوبر ١٩٥٧، ذهبت الى القدس مع زوجتي في ذلك الوقت، «بريندا»، لأزور «بن جوريـون» الذي كان لايـزال رئيسـا للوزراء. اتصلت بمنزله حال وصولي الى الفندق، فأبلغتني زوجته «بولا» العائدة لتوها من المستشفي ان قنبلة قد ألقيت في قاعة الكنسيت، محدثة اصابات بسيطة في خمسة وزراء، بينهم رئيس الوزراء، واصابات خطيرة للسيد

«شابيرا» وزير الشئون الدينية. وتبين لاحقا انها كانت قنبلة يدوية القاها يهودي عراقي مختل في الخامسة والعشرين.

بعد ان اخبرتني «بولا» ان «بن جوريون» يريد ان يراني، ذهبت مع «بريندا» الى المستشفى في الصباح التالي، ووجدت حشدا كبيرا من الناس في الخارج. واصطحبنا شخص الى غرفة «بن جوريون». كانت الضمادات تغطي رسغيه وساقيه، لكنه كان في حالة جيدة. كان أول ما قاله ان سألني ان كنت قد أصبت من قبل بقنبلة يدوية.

سألني اثناء الحديث اذا كان في مقدوري تقديم المساعدة في مسألتين تتصلان بالمملكة المتحدة. ووعدته ان ابذل ما في وسعي. وفي هذه الأثناء جاء ضابطان معنيان بالمسائل العسكرية والأمن لتوقيع بعض المستندات العاجلة المتصلة بالحادث...

في عام ١٩٥٦، وبعد سلسلة من عمليات الاعتداء الارهابية العربية على الأراضي الاسرائيلية، والتي أحدثت خسائر عديدة في الأرواح، هاجمت اسرائيل القوات المصرية في «سيناء» و«غزة» وهزمتها في المعركة المسماة «حرب المائة ساعة». واحتلت اسرائيل قطاع غزة في الوقت ذاته. واضطرت اسرائيل الى اعادة المنطقة تحت تأثير الضغوط الدولية. كان مراقبو الأمم المتحدة متمركزين على خط وقف اطلاق النار المتفق عليه في «النقب» بين اسرائيل ومصر. ورفض «ناصر» اي شكل من اشكال المفاوضات السلمية، وقام ببناء القوات المسلحة المصرية والقوات الجوية. واعلن في ١٩٦٧ انه عازم على القاء اسرائيل في البحر. وبدأ يحشد عددا من الفرق في «سينا» جنوبي خط وقف اطلاق النار. ورغم الاعتراضات الدولية، بما فيها حكومة بريطانيا، شرع في محاصرة مدخل خليج العقبة، الذي كان يشكل خط الاتصال الرئيسي بين اسرائيل وشرق افريقيا والشرق الأقصى. وكان عبور قناة السويس محظورا بالطبع على السفن الاسرائيلية، خلافا لما يقضي به القانون الدولي. واستمر «ناصر» في حشد قواته المسلحة وفي تهديده بمحو اسرائيل، رغم الاحتجاجات.

كان بعضنا يؤمن بأن بقاء اسرائيل في خطر. اذكر نقاشا مع «فيكتور روتشيلد» يوم السبت ٣ يونيو، قبل اندلاع الحرب بيومين. ارسلنا رسائل الى رئيس الوزراء «هارولد ويلسون»، والى «روبرت شتراوس» في الجمعية الديمقراطية الأمريكية على ما اذكر، نلتمس منهما ان يستخدما نفوذهما لمنع «ناصر» من تنفيذ وعيده. وبدا ان الحرب وشيكة. واندلعت الحرب بالفعل يوم الاثنين الخامس من يونيو، وبادرت اسرائيل بضربة جوية سحقت الجزء الأكبر من سلاح الجو المصري. ورغم هذه الانتكاسة، كان «ناصر» يعلن عن انتصارات ساحقة. وفي الأيام الأولى من هذا الأسبوع كان أصدقاء اسرائيل في «لندن» يصدقون البيانات المصرية، وتملكهم القلق من احتمال هزيمة اسرائيل والقضاء

عليها. وأراد عدد منا ان يذهب الى اسرائيل باسرع ما يمكن لتقديم كل مساعدة ممكنة. وذهب ستة منا فعلا: «سكوتي موريسون»، «جيكوب» ابن «فيكتور روتشيلد»، «ستيوارت يونــج» رئيس هيئة الاذاعة البريطانية، «هيمان كريتمان»، «ديفيد سسمان» وانا. حين وصلنا الى اسرائيل مساء الأربعاء تنفسنا الصعداء لما وجدنا الوضع العسكري مختلفا تماما عما توقعناه. كان الاسرائيليون قد قطعوا شوطا طويلا نحو النصر، دافعين القوات المصرية خارج سيناء، بعد صد هجوم اردني.

علمت فيمـا بعـد ان «نـاصر» لم يكتف بادعـاء انتصاراته العظيمة، وانما ابلغ «حسين» ملك الأردن انه ان لم يشترك في الهجوم على اسرائيل، فلن يجني نصيبه من ثمار النصر. بل انه اوحى اليه انه سيعد خائنا للقضية العربية. وكان الاسرائيليون قد بعثوا برسائل الى الملك حسين، الذي كان يحتل الضفة الغربية ونصف القدس في ذلك الحين، ليبلغوه ان اسرائيل لن تتخذ اي اجراء ضد الأردن، مهما تكن نتيجة الحرب، شريطة الا يتـدخـل هو في الحرب. ولكن مما يؤسف له ان حسين صدق ادعاءات «ناصر» الكاذبة بالنصر وتهديداته بأنه لن يجني ثمار هذا النصر. وهكذا هاجم اسرائيل من الضفة الغربية وذلك الجـزء من القدس الذي يحتله. ولكن بانتهاء الأسبوع كان المصريون قد انهزموا هزيمة نكراء، وتم حمل الأردنيين على التقهقر. ومن ثم سيطرت اسرائيل على القدس كلها والضفة الغربية، واحتلت سيناء حتى قناة السويس.

يوم السبت ١٢ يونيو ذهبت الى مكتب «اشكول»، وكان رئيسا للوزراء عند ذاك. وتم ابلاغي انه بمفرده . ولكن حين دخلت وجدته في بذلة الميدان وبصحبته جنرال لم أكن أعرفه. كان الجنرال قد عاد لتوه من «القنيطرة» على مرتفعات الجولان، وكان يبحث مع رئيس الوزراء في خط وقف اطلاق النار المقترح. اعتذرت وهممت بالارتداد على عقبي، لكن «اشكول» قال: «اجلس يا ماركوس». والتفت نحو الجنرال قائلا: من الأفضل ان نتحدث بالانجليـزية لأن عبرية «ماركوس رديئة». وبعد فروغهما من الكلام، هنأته على انتصار اسرائيل، لكنه قال ان القلق يستبد به، واضاف: «نحن نسيطر الآن على القدس كلها، ولن يغفر لنا العالم ذلك».

قلت: لماذا؟ هل يعتزم الاسرائيليون اتخاذ اي اجراء ضد العرب او المسيحيين في القدس؟

فقال: كلا.

فسألت هل ستمنعون المسيحيين او المسلمين او اليهود من العبادة في اماكنهم المقدسة؟

فقال: كلا.. لن نمنعهم . اننا نرغب في العيش في سلام في هذه المدينة التي كانت مقسمة من قبل، وسنمنح اقصى قدر من الحرية للجميع.

فقلت: في هذه الحالة، ليس هناك داع لقلقك من حكم القدس من الناحية النظرية. لكنك قد تكون على حق، فالعالم لن يغفر لاسرائيل انتصارها. ان العلاقات العامة في اسرائيل كانت ولا تزال في حالة مروعة. اقترح ان تنشئوا وزارة للعلاقات العامة، وبدلا من الاكتفاء بايضاح ما تعتزمون عمله في القدس، تشرحون سياسة اسرائيل العامة، وخاصة فيما يتعلق برغبتكم في مسالمة جيرانكم العرب. هذه مسألة يسيء العالم كله فهمها، ويتعمد معظم الزعماء العرب اساءة ترجمتها».

والواقع انه قد جرت محاولة لانشاء هذه الوزارة، لكن وزارة الخارجية الاسرائيلية كانت ولا تزال تتحكم دائما في العلاقات العامة الخارجية، رغم عدم اتقانها لهذه المهمة. وسرعان ما قضي على المشروع. كنت أؤمن قبل حرب الأيام الستة بأن القدس المقسمة اذا ما قدر لها ان تتوحد فسوف تصبح من اصعب الأماكن في العالم من حيث التعايش السلمي ، وذلك بسبب العداوة بين العرب واليهود. كنت أؤمن ان الأماكن المقدسة المسيحية سوف تشكل مصدرا آخر للاحتكاك. وكنت مخطئا. لم اكن أحسد «تيدي كوليك» الذي يشغل منصب عمدة القدس منذ عشرين عاما، منذ توحدت المدينة، ولكنني راقبت كيف كان العرب واليهود يتعاونون بصفة عامة في مدينتهم المقسمة تحت قيادة «تيدي كوليك». وانه لمن الخطأ ان نقول ان الانسجام التام سائد، ولكن ما من مكان اليوم في الشرق الأوسط اكثر أمنا من القدس، حيث يعيش اليهود والعرب والمسيحيون معا في سلام. ورغم الانتكاسات الطفيفة بين الحين والحين، فان التعاون بين العقائد المختلفة في تحسن. وكلما ذهبت الى القدس لاحظت تقدما لم يكن ليحدث لولا زعامة «تيدي كوليك». ان ما حققه في القدس يعد مثلا حيا على ان الناس يستطيعون ان يتعايشوا في سلام، حتى اذا بدا ان الظروف كلها تؤدي الى النزاع. وقد اعيد انتخاب «كوليك» اربع مرات حتى الآن، بدعم كبير من المواطنين العرب. والحق ان كل اليهود والمسلمين والمسيحيين مدينون له.

من بين الاسرائيليين ذوي المقدرة الفائقة الذين ربطت الصداقة بيني وبينهم «ديفيد كيمحي» المدير العام للخارجية الاسرائيلية منذ أعوام عدة. وهو رجل يتمتع بالخبرة والفطنة الفطرية والحكمة، ويلعب دورا صعبا بجدارة فائقة. ان اسرائيل لمحظوظة لأن لديها رجالا مثل «تيدي كوليك» ، و«ديفيد كيمحي».

انه لمن التضليل ان أعطي انطباعا بأنني قد قدرت آراء كل الاسرائيليين في الحكومة ومراكز السلطة الأخرى وتوافقت معهم ، وانهم احسوا جميعا بنفس الشعور نحوي. كانت

هناك بعض الشخصيات ذات الآراء المتطرفة، والذين لم اشترك معهم في شيء، ولم استطع ان اؤثر عليهم. وكان امثال هؤلاء يرغبون في كثير من الأحيان عن التحدث معي، وكنت ابادلهم نفس الموقف.

كنت قد بدأت انهمك في تلك الفترة في نشاط معهد «وايزمان» للعلوم. وكان المعهد قد نما كثيرا منذ نشأته عام ١٩٣٤، وبدأ يكتسب سمعة عالمية. وكان يتلقى الدعم والتعاون من كبار العلماء المتميزين، يهودا وغير يهودعلى حد سواء، من مختلف البلدان. وكانت نشاطاتـه مدعومة بالمنح التي تقدمها الحكومة والشركات التكنولوجية والعلمية المهتمة بأعماله، الى جانب التبرعات التي كان يتلقاها من الأصدقاء والمؤيدين في الخارج. في عام ١٩٥٦، اصبحت رئيسا لمؤسسة معهد وايزمان في المملكة المتحدة، بعد وفاة «سيجموند جستتنر» المفاجئة. وقد لعب «جستتنر» دورا رئيسيا في مساعدة معهد وايزمان في الوقوف على قدميه . وكان قد قدم هو وزوجته الكثير لاسرائيل، ولاتزال زوجته تمارس نشاطها في هذا المجال. في الوقت ذاته اصبحت عضوا في مجلس المحافظين الدولي التابع للمعهد. واستمـرت رئـاستي لمؤسسه معهد وايزمان في لندن حتى ١٩٧٢، حين خلفني «ديريك كليمان»، الذي انخرط في الشئون الاسارئيلية بدافع حبه لأبي واعجابه به.

سبق ان شرحت كيف بدأ معهد وايزمان حياته تحت اسم «معهد دانييل سيف» بناء على اقتراح الدكتور «وايزمان» بعد وفاة اخي «دانييل». وشرحت كيف صار وايزمان اول رئيس له. وسرعان ما بدأ المعهد يسهم اسهاما قيما في المعرفة العلمية والتنمية في اسرائيل، حيث كانت اكتشافاته المؤكدة تطبق عمليا في عام ١٩٤٤ سأل بعض الأصدقاء وايزمان عما يريده كهدية لعيد ميلاده السبعين. وكان رده انه لايريد شيئا. وعندئذ قال الأصدقاء «سوف نقدم لك هدية في عيد ميلادك السبعين. ولذلك فمن الأفضل ان تكون شيئا تريده انت». فكان رد وايزمان: اذا كنتم تريدون ان تقدموا لي شيئا ، فاعملوا على توسيع معهد «سيف».

اصبح «ماير ويزجال» الذراع اليمنى للدكتور وايزمان. وكان صحفيا بارعا ومنتجا مسرحيا له مواهب عديدة. كان من تلك المواهب براعته في جمع التبرعات للقضايا الجديرة. الحق انـه كان عبقريا في هذا المجال. قال يوما لوايزمان: لو سألنا الناس ان يقدموا التبرعات لمعهد سيف، فسوف يكون ردهم ان «دعوا آل ماركس وساكر يوسعون معهدهم بانفسهم». لكننـا لو غيرنا اسم المعهد الى «وايزمان»، فسوف يختلف الأمر. اعتقد انه سيكون بمقدورنا الحصول على الأموال الضخمة اللازمة للتوسع في نشاط المعهد».

وأجاب وايزمان: لقد أسس آل سيف المعهد بناء على اقتراحي وطلبي. وليست لدي النية ان اسمح بتغيير اسم المعهد. ولا أريد اثارة هذه المسألة من جديد».

ورد «ويزجال»: وهو كذلك . لن أثير الموضوع مرة ثانية. لكنه اتصل بابي في لندن وقال: اذا امكننا تغيير اسم معهد سيف الى «معهد وايزمان» فسوف أتمكن من جمع مليون دولار» (كان ذلك مبلغا ضخما في تلك الأيام). وأجاب ابي: طبعا يمكنك تغيير الاسم. لكن لاتبع «وايزمان» بالبخس. اعتقد ان بمقدورك ان تجمع خمسة ملايين دولار. وفعلا تم جمع الملايين الخمسة، وتم تكديسها لشراء عدد من المعامل الجديدة والمعدات الهامة للمعهد. قيل انه لو كان هناك جائزة نوبل لجمع التبرعات لكان المرشح الوحيد هو «سيجموند ويزجال».

توفي الدكتور «حاييم وايزمان» في ١٩٥٢، ولكن المعهد استمر في التطور على مدى السنوات العشرين التالية. واصبح «ويزجال» كبير المستشارين. وكان رئيس مجلس المحافظين الدولي في ذلك الوقت امريكيا متفانيا من بوسطن يدعى «ديوي سبتون».

في عام ١٩٦٢، كنت قد انتخبت نائبا لرئيس مجلس المحافظين الدولي لمعهد «وايزمان». وفي ١٩٦٦، كان على ابي ان يكون الخطيب الرئيسي في اكبر حملة تبرعات في تاريخ المعهد، وهي العشاء السنوي في نيويورك الذي يحضره حوالي الف مؤيد وضيف. ومرض ابي قبل موعد السفر، وطلب الي ان احل محله. وكانت تلك اول مرة اخاطب فيها حشدا بهذه الضخامة. دار حديثي كله تقريبا عن تعرف الأسرة بالدكتور «وايزمان» في عام ١٩١٣، وتأثيره علينا، وتأسيس المعهد ، وتوقعات «وايزمان» لما يمكن ان ينجزه المعهد في حقل العلم بصفة عامة، ومن اجل اسرائيل بصفة خاصة، ومن اجل السلام قبل كل شيء. ولقي خطابي استحسان الحاضرين، وكان ذلك احد الأسباب التي أدت الى انتخاب رئيسا لمجلس المحافظين الدولي في عام ١٩٧٦، بدعم امريكي كبير.

اخذت جهودي في جمع التبرعات «لمعهد وايزمان» منحى غير مألوف بفضل المرحوم «جارفيلد وستون». الذي تعرفت اليه في منتصف الثلاثينات ، حين بدأ في تأسيس «شركة وستون للبسكويت» في بريطانيا. وكان «وستون» كنديا ذا مقدرة عالية، وقد آسس امبراطورية تجارية ضخمة لها مصالح في شتى ارجاء الدنيا . كانت علاقتي به طيبة منذ البداية، رغم احساسي بمعاداته للسامية بعض الشيء، وببخله رغم ثرائه. وتبين انني مخطيء كلية.

في اوائل ١٩٦٧، دعاني «جارفيلد» الى الغداء. وتوقعت ان يكون لقاء عمل يحضره بعض زملائه. واكتشفت اننا سنتغدى بمفردنا ، وانه لايرغب في الحديث عن العمل. تبينت اثناء الغداء ان جزء كبيرا من ثروة «وستون» مستثمر في مؤسسة خيرية تقدم التبرعات دون ذكر مصدرها.

سألني ان كنت أعرف رئيس شركة كبيرة في جنوب افريقيا كان قد ابتاعها. فقلت

أجل وسألته لماذا يطرح هذا السؤال، فقال: انه يهودي من أرفع طراز، واود أن أعينه في مجلس الادارة». وبدأ «وستون» يتحدث عن الدين الذي تحمله المسيحية لليهودية . ولما فرغ قلت له: «انت انسان محظوظ. يمكنك ان تبدأ في سداد الدين». ولما سألني عما أقصده، حدثته عن مختلف المستشفيات والجامعات ومعاهد البحوث في اسرائيل ، وقلت انه ربما يود تقديم بعض الدعم الذي تحتاجه تلك المؤسسات بشكل ملح. ووعد ان يتدارس الأمر. ولدى عودتي الى مكتبي، كتبت اليه اشكر له الوليمة واذكره بما ناقشناه. وردت السكرتيرة برسالة ابلغتني فيها ان «وستون» سافر في جولة حول العالم».

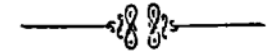
لم أسمع اخباره لعدة اشهر. وذات يوم اتصل بي هاتفيا وقال: كنت افكر في حديثنا. اود ان اقدم شيئا صغيرا لاسرائيل، لدعم احدى القضايا التي حدثتني عنها». واستطرد يقول: اود ان اتبرع بمبلغ لمؤسسة «وايزمان». فسألته: ماذا تريد ان تفعل، فقال: اريد التبرع بربع مليون جنيه لصالح صندوق اسرائيلي يتم استخدامه في تقديم المنح مثلما يتراءى لك». واستطرد يقول: أعرف ان مشاغلك كثيرة. لكن محامي موجود هنا (وتصادف انه صديقي مستر كريمر)، وسوف أعطيه التعليمات. هل يمكنك ان تمنحه خمس دقائق من وقتك اليوم؟»

قلت: «اذا كان الأمر يتعلق بربع مليون، فهو مدعو الى تناول الشاي معي عصر اليوم». وكانت تلك هي بداية «مؤسسة جارفيلد وستون» الاسرائيلية، التي لم تقتصر تبرعاتها على معهد وايزمان فقط، وانما امتدت الى مشروعات اخرى، اتصل بعضها بالتعاون العربي الاسرائيلي ورعاية الطفولة. وفي بعض المناسبات الأخرى، قدم جارفيلد تبرعات اضافية كبيرة لعدد من القضايا الجديرة، بعد ان زار اسرائيل بنفسه. وبعد عدة سنوات دعاني «جارفيلد» الى الغداء، وحدثني عن كيفية بنائه لامبراطوريته التجارية. وسألني ان كان هناك ما أبغيه منه، فأجبت بالنفي. وسألني وهو يوصلني الى المصعد «اتمانع لو تبرعت بمائة الف اخرى لصالح البحوث في معهد وايزمان»؟

فقلت: لامانع عندي بالطبع. ان هذا ليسرني.

وفي اليوم التالي كتبت اليه اشكر له دعوتي الى الغداء، وكرمه ودعمه للمعهد. وتلقيت رسالة من السكرتيرة قالتْ فيها ان «وستون» سافر الى كندا. وبعد اربعة ايام توفى «جارفيلد» في «تورنتو».

ان رجلا بالغ المقدرة والكرم، وواحدا من اولئك الحريصين على تكريس جزء كبير من ثرواتهم لصالح الناس الأقل حظا. او لصالح البحوث التي تخدم البشرية. لقد كان مثالا لأناس كثيرين لهم قيمتهم.



الفصل الرابع عشر

في ١٩٦٥ عينت مساعد مدير اداري لـ «ماركس اند سبنسر»، ثم مديرا اداريا مشتركا في ١٩٦٧. وادى ذلك الى تزايد مسئولياتي، لكنني احتفظت بالمسئولية المباشرة عن قسم المستخدمين وتنمية المجموعة الغذائية . وفي ١٩٧٢ اصبحت رئيسا للمجلس ومديرا له، واحتل «تيدي» منصبا رئاسيا. كان هذا بالنسبة لي انجازا ، فلطالما كنت أطمح الى قيادة الشركة التي نشأت فيها، والتي عملت بها سبعة وثلاثين عاما، باستثناء فترة الانقطاع اثناء الحرب العالمية الثانية والعامين والنصف التي قضيتها في اسرائيل. لم يكن في نيتي ان أجري اي تعديل على مبادئنا، اللهم الا التركيز بشكل اكبر على قيمة هذه المبادىء. لكنني كنت اعتزم تجربة بعض الأقسام الجديدة، وتراءت لي امكانات التوسع في الخارج.

كان أساتذتي هم «سيمون» وابي، فقد كان كلاهما يتفقان على المبادىء، ويركزان كل على ناحيــة معينــة. ركــز «سيمون» على الأهمية الحيوية لعرض سلع عالية الجودة والقيمــة. في حين ركــز ابي على أهميــة العــلاقات الانسانية الطيبة بالعاملين والعملاء والموردين. كانا قد حولا الشركة من سلسلة متواضعة من المتاجر والمحال الصغيرة الى المؤسسة البريطانية الرائدة في مجال سلع التجزئة، ذات السمعة القومية، وربما العالمية.

كان «سيمــون» هو القــائد، ولكن الأسلوب الذي كان يقود به الشركة، وسيطرته المــطلقــة عليها اصبحا غير مناسبين مع التوسع الجديد. كان من الضروري ان ننمي القيادات الادارية القادرة ونخولها المسئولية. وعلى كل فلم اكن مثل «سيمون» او ابي، ولم تكن لي امكاناتهما.

لم تكن هناك ضرورة لتغيير مبادىء راسخة اثبتت جدارتها. وكان شغلي الشاغل، الى جانب تنمية القيادات الادارية القادرة التي تتحمل المسئوليات الكبرى، ان انمي اولا

مبدأ الانتاج في المملكة المتحدة، ومن ثم أزيد فرص العمالة. وثانيا ان احسن العلاقات الانسانية، ليس في شركتنا وحسب، وانما في مواقع الموردين وان اشجعهم على اتخاذ نفس النهج في منظماتهم، وثالثا ان ازيد من انخراطنا واسهامنا في المجتمعات التي نتعامل معها، ورابعا: ان انمي «ماركس اند سبنسر» في الخارج. وقد ساعدني كثيرا في ذلك اخي «مايكل» و«مايكل ساكر» اللذين قاسماني الادارة، و«ديريك رينر» و«بريان هوارد» و«هنري لويس» و«ريك جرينبري» وعدد من الشباب الذين يقودون الشركة الآن الى آفاق جديدة. لم يكن لدينا في ذلك الوقت مديرون غير منفذين ، فقد كانوا جميعا منفذين ومسئولين عن اقسام مختلفة. كان المديرون الاداريون مسئولين عن عدد من المجموعات التي يرأسها مديرون منفذون. كان قسم ملابس السيدات هو اكبر اقسام البضائع . اما قسم الملابس الرجالية فكان اصغر حجما، لكنه كان ينمو بانتظام . اما الأحذية فكانت ضمن قسم السلع الكمالية. على مر السنين اصبح اخصائيو التكنولوجيا يشكلون قطاعا مهما في مختلف اقسام البضائع، وكانوا يعملون بشكل جيد شيق مع هذه الأقسام. وبلغ عدد هؤلاء الاخصائيين ٣٠٠ موظف. وقد لعبوا ، ولازالوا يلعبون، دورا هاما.

اصبحت زيارة المتاجر والموردين تشكل جزء هاما من سياستي، وكنت مسرورا ان علاقتي بكل من العاملين والموردين قد توثقت وسادها الود. كنا لانزال نطبق نظام المركزية ، رغم اننا كنا نصغي بعناية الى آراء الاداريين والمدراء واقتراحاتهم. كنا نرتكب الأخطاء بالطبع، لكننا لم نكن نتردد في ادراك اخطائنا قبل ان تعود علينا بخسائر جمة.

كان اسبوع العمل يبدأ بالنسبة لي يوم الأثنين، فاجتمع بالمديرين، وتدور بيني وبين كبار المدراء مناقشات غير رسمية، اعقبها بزيارة عدد من الأقسام للاطمئنان على سير العمل. وكنت أطلع كل أسبوع على سجل مبيعات خطوط الانتاج الجديدة، واستمع الى توصيات زملائي.

كنت ابدأ اجتماع الاثنين باستعراض ما رأيته في المتاجر خلال الأسبوع السابق. فأركز على ما أراه خطأ، ثم نستعرض كل ما تم خلال الأسبوع من خطط ومشكلات وتطور او تدهور، ثم نتحدث في الأسابيع المقبلة، فيعرض كل شخص رأيه الخاص. وكان من ضمن الموضوعات التي تثار دائما سياستنا في السعي نحو الانتاج المحلي.

قررنا في عام ١٩٧١ ان ننشىء قسما للبذلات الرجالية. ولكننا وجدنا للأسف ان منتجي البذلات الرجالية في المملكة المتحدة قد توقفوا عن الانتاج. ولم نجد في بريطانيا كلها الا مصنعا واحدا يستطيع توريد ما نحتاجه، وهو شركة «اكتيفون». وبدأ المصنع توريد كميات متواضعة في ١٩٧٢ ومن نوعية ممتازة. اما بقية احتياجاتنا فكنا نستوردها من

البلدان الاسكندينافية وايطاليا واسرائيل. كان ١٠ بالمائة من مبيعاتنا في السنة الأولى من مصادر محلية و٩٠ بالمائة مستوردا من الخارج.

في ١٩٧١، كنت ازور متجرنا في «نيوكاسل»، والتقيت صدفة بـ «ساندي ديوهيرست»، وكان جده «اسحاق ديوهيربت» هو الرجل الذي اقرض جدي «مايكل ماركس» تلك الجنيهات الخمسة الشهيرة التي بدأ بها خردوات البنس الواحد في ١٨٨٤. كانت مؤسسة «ديوهيرست» لاتزال مملوكة للأسرة. وبدأت المؤسسة تنتج لنا تشكيلة من الملابس. وكنا في الواقع نشتري حوالي ٩٠ بالمائة من انتاجهم، وهذا ليس بالأمر الذي تعودنا ان نفعله. لكن «ديوهيرست» كان موردا ممتازا على الدوام، وقد ظلت علاقتنا قوية منذ اكثر من مائة عام. سألني «ساندي» ذات يوم: «لدينا مبلغ لابأس به، فهل لديك اقتراح حول كيفية استخدامه في تطوير تجارتنا؟» فقلت: «انتم تتقنون صناعة الملابس الرجالية. لكنكم لم تفكروا في انتاج البذلات. نحن نعتزم تطوير قسم للبذلات الرجالية، واحتمالات نجاحه كبيرة. لكننا لم نجد الا موردا واحدا في المملكة المتحدة. اذا قررتم ان تدخلوا مجال انتاج البذلات، فسوف تضطرون الى استيراد التكنولوجيا من اسكندينافيا او ايطاليا او اسرائيل. ويمكننا مساعدتكم في التصميمات (كان لدينا وقتذاك مستشار ايطالي في مجموعة الملابس الرجالية).

وقرر «ساندي» وزملاؤه البدء في العمل، فاستدعوا اخصائيا من السويد وفتحوا اول مصنع في «سيدرلاند» في ١٩٧٣. وكان مصنعا من الطراز الأول يستخدم الماكينات الحديثة، وتتوافر فيه ظروف عمل ممتازة. وفي ١٩٨٠ افتتح «ديوهيرست» مصنعه الثاني لتزويدنا بالبذلات، وفي ١٩٨٥ تم افتتاح مصنع ثالث. وتقوم هذه المصانع بتشغيل الف شخص، في الوقت الذي بلغت فيه نسبة البطالة بالبلاد ٢٠ بالمائة.

استمر مصنع «اكتيفون» في التطور في الوقت ذاته. وكان الطلب قد تزايد لدرجة ان المصنع يستخدم ٦٠٠ او ٧٠٠ شخص في «لاناركشاير»، رغم ادخال احدث وسائل الانتاج بالحاسبات الالكترونية. وعلاوة على ذلك، فهناك ٣٠٠ شخص يعملون في بريطانيا في انتاج الأقمشه اللازمة للبذلات. واصبح لدينا اليوم قسم ضخم للبذلات الرجالية، يستمد ٦٠ بالمائة من احتياجاته من الانتاج المحلي و٤٠ في المائة من الخارج. ولو لم نكن نتبنى سياسة السعي نحو الانتاج المحلي، لاستمر اعتمادنا على الخارج في ٩٠ بالمائة من احتياجاتنا، الامر الذي كان ليعني ٢٠٠٠ شخص عاطلا آخرين.

تشكل الأحذية النسائية نموذجا آخر لتنمية الانتاج المحلي. كنا قد أنشانا قسم الأحذية النسائية منذ فترة، وظل قطاع كبير منه يقتصر على القباقيب (الشباشب) لسنوات

طويلة. ورغم ان التجارة كانت تنمو بصفة عامة ، فان قسم الأحذية لم يكن يحرز تقدما في أواخر السبعينات، بل انه كان يتدهور. تستورد المملكة المتحدة اليوم اكثر من ٥٠ بالمائة من الأحذية النسائية، ويقل الانتاج المحلي عن ٥٠ بالمائة. وتأتي الواردات اساسا من الشرق الأقصى واسبانيا وامريكا الجنوبية. وفي ١٩٨٠ اصبح «ادواردراين» مدير «راين للأحذية» مستشارا لنا في مجال الأحذية. وكان يعمل ايضا مديرا لمجموعة «ديبنهام» ومسئولا عن شركة «لوتس» التي تنتج الأحذية للمجموعة. وكانت هذه الشركة تعاني المشاكل، فقد انخفضت المبيعات واغلق احد المصانع، وتم تسريح عدد كبير من العمل. وسألت «بوب ثورنتون» رئيس مجلس ادارة «ديبنهام» وكبير مدرائها التنفيذين و«ايدي راين» اذا كانا يودان ان يعملا معنا، فوافقا.

في ١٩٨٠، دعوت رؤساء اكبر اربعة موردين بريطانيين الى الغداء. وطلبت اليهم الحضور في الحادية عشرة والنصف لنبحث امرا ما قبل الغداء. ولم اخبر ايا منهم بقدوم الآخرين، حتى فوجئوا بوجودهم في نفس الغرفة مع «ديريك راينر» والمدراء التنفيذين والمسئولين عن انتقاء الأحذية في مؤسستنا. وقلت لهم: ارجوكم ان تفهموني ما الذي حل بصناعة الأحذية عندنا؟» وساد صمت تام قطعته بقولي: لقد دعوتكم الى الغداء. لكنكم لن تروا الطعام قبل ان تطلعوني على موضع الخطأ. ان المعدل الذي نسير به حاليا ينبيء بأن قسم الأحذية سينقرض تماما خلال خمسة اعوام».

وبدأ «مونتي سمراي» مدير «فيونا للأحذية» النقاش بايضاح اننا نقوم بتسويق احذية انيقة اكثر من اللازم وغالية الثمن. وتلا ذلك مناقشة قيمة جعلت المشتركين فيها أهلا لتناول الغداء. وكانت تلك بداية لتحول في قسم الأحذية، الذي تضاعفت مبيعاته ثلاث مرات في السنوات الخمس الأخيرة، وحقق ارباحا لنا وللموردين على السواء.

زاد تعاملنا مع «لوتس» ١٦ ضعفا خلال تلك الفترة. ورغم ادخالهم للمعدات الحديثة فقد زاد عدد مستخدميهم من ٢٠٠ الى ٦٠٠، وتحولت الشركة من الخسارة الى الربح الهائل. وانفقت «فيونا للأحذية» خمسة ملايين في انشاء مصنع جديد تم افتتاحه في «ساوث ويلز» في ١٩٨٦. ورغم ادخال المعدات الجديدة لتوفير العمالة، اضطروا الى استخدام ١٥٠ شخصا آخرين لملاقاة الطلب المتزايد. ورغم اننا لانزال نستورد بعض الأحذية النسائية، فان حوالي ٨٠ في المائة من الانتاج يتم تصنيعه محليا.

من الأمثلة الأخرى على تنمينا للانتاج المحلي انتاج الخس. في السبعينات كان الانتاج المحلي من الخس طريا وذابلا بعض الشيء.

وكان عملاؤنا قد بدأوا يستطيبون نوعا من الخس نستورده من كاليفورنيا ونشحنه بالطائرات. ولكن سعره كان غاليا بالقياس الى الأنواع المحلية. وفكرنا ان من الممكن زراعة هذا النوع في بريطانيا، في فترة الصيف على الأقل. وقال الخبراء ان ذلك غير ممكن. لكننا لم نقتنع ، استنادا الى خبرتنا السابقة. وارسلنا احد الاخصائيين الى كاليفورنيا لدراسة التكنولوجيا وفنون الزراعة. وبدأت التجارب في ١٩٧٧، وحققنا نجاحا على امتداد عامين ونصف ، حتى بدأ الانتاج التجاري في ١٩٧٩.

ويمثل هذا النوع من الخس الآن ٢٥ بالمائة من انتاج الخس في المملكة المتحدة. وتصل مبيعاتنا الى ملايين الجنيهات، هذا الى جانب خلق المزيد من فرص العمل. ونظرا لعدم امكانية زراعة هذا النوع في الشتاء، فنحن نكمل ما نحصل عليه من كاليفورنيا من خلال تشجيع زراعة هذا النوع من الخس في اسبانيا واسرائيل.

في خلال السنوات العشر الأخيرة، طورنا قسم متحضرات التجميل الى حد كبير. كانت نسبة كبيرة من هذه المواد تستورد من الخارج ، لكننا اليوم نستمد ٩٥ بالمائة من احتياجاتنا من المصادر المحلية. ومن موردينا الذين تتنامى تجارتهم بسرعة كبيرة، مؤسسة «بيتر بلاك» التي أسسها لاجيء ألماني عام ١٩٤٧. وهي تستخدم الفي شخص.

ان تنمية المصانع الكبيرة والمتوسطة التي اشرت اليها ليست الوسيلة الوحيدة لخلق فرص العمل. فالمشروعات الصغيرة التي تستخدم عددا قليلا من الناس يمكن ان تلقى المساعدة لتنمو بسرعة، اذا ما أنتجت السلع التي يريدها العميل. ومن الأمثلة على ذلك «ورشة النجارين» في «بارنستيبل» ، التي انشأها عام ١٩٧٩ مستر «بيدويل» والأخوان «مارتن». وشجعته على ذلك زوجته التي رأت ان المصنوعات الخشبية الجيدة قليلة في المملكة المتحدة . وبدأ العمل بأربعة عمال مهرة. وأبدوا رغبتهم في التعامل معنا، فطلبنا عددا قليلا من مشاجب المناشف للتجربة ، وكانت جيدة الصنعة. وهكذا تعاونا معهم لانتاج تشكيلة من المنتجات الخشبية المنزلية. قمت بزيارة الورشة في بداية ١٩٨٥، ووجدت ان عدد المستخدمين زاد خلال خمسة اعوام من سبعة الى ٨٥. وهم الآن بصدد اعداد مصنع آخر بغية التوسع في المستقبل.

نحن نستورد ١٠ بالمائة من معروضاتنا بصفة عامة. وبمجرد ان يعد الموردون الأجانب انفسهم للتعامل معنا ويراعوا معايير الجودة والقيمة والتجديد، نحس تجاههم بنفس الالتزام المعنوي الذي نحسه تجاه الموردين البريطانيين. ولكننا نشجعهم على انشاء مصانع التعبئة والتشطيب داخل المملكة المتحدة، كلما رأينا ان ذلك يعود بالفائدة على الطرفين.

هناك مؤسستان اسرائيليتان رائدتان في مجال الملابس والمنسوجات، تنتجان لنا سلعا عالية الجودة ، احداهما «بولجات» في «كيريات جات» شمالي النقب. وهي تنتج لنا تشكيلة واسعة من الملابس التي كانت تصنع في اسرائيل وتشحن الى المملكة المتحدة. اما اليـوم فان معظم منتجاتهم من الملابس يتم شحنها الى «سكلمرسديل» في «لانكشاير»، حيث يعمل ٣٠٠ شخص في تشطيب الملابس وكيها وتركيب الأزرار، ثم ارسالها الى متاجرنا.

والواقع ان تاريخ «بولجات» شيق للغاية. عرفت منطقة «كيريات جات» لأول مرة عام ١٩٤٨، اثنـاء حرب الاستقـلال الاسرائيلية، وكانت عبارة عن صحراء رملية لايقطنها مخلوق. وبعد بضعة اعوام نشأت بها قرية صغيرة. ونحو نهاية الستينات، أنشأ «اسرائيل بولاك» مصنع منسوجات صغيرا. و«بولاك» هذا رجل عظيم هاجر الى اسرائيل من «بولندا» عبـر «تشيلي». وقد نما ذلك المصنع الصغير الآن واصبح مصنعا ضخما ينتج تشكيلة مختلفة من المنسوجات، تبدأ من خيوط الصوف والقطن وتنتهي بالملابس الجاهزة. وهم يستخدمون الآن ٦٠٠٠ شخص تحت ظروف ممتازة، بينهم يهود من اربعين دولة وعدد كبير من العرب. وقد بلغ تعداد «كيريات جات» الآن ثلاثين الف نسمة.

أمـا المـؤسسـة الاسرائيليـة الثـانية فهي «دلتا»، التي تنتج الملابس الداخلية والقمصـان الصيفيـة. وقـد أنشأت هذه المؤسسة مصنعا في «اسكتلنده» منذ عامين، يرسلون اليـه الأقمشـة القطنية الفاخرة المصنوعة في اسرائيل. وهم يستخدمون ١٦٠ شخصـا ، ويصـدرون منتجـاتهم من «استكتلنـده» الى اوربـا. وقـد بدأت «دلتا» في السبعينات، وهي تستخدم حوالي ٢٠٠٠ شخص في مصانعها المختلفة في اسرائيل. وتعد مصانعها من احدث المصانع العالمية التي تستخدم اليهود والعرب تحت نفس الظروف، دون ان يحدث اي احتكاك بينهم.

يملك موردونـا اجمـالا احدعشر مصنعا في المملكة المتحدة ، توفر فرص العمالة لحوالي ٣٧٠٠ شخص. ويمتدح رؤساء هذه المصانع عمالهم البريطانيين لحسن ادائهم وارتفاع انتاجيتهم . واظن الفضل في ذلك يرجع الى حد ما الى ظروف العمل الجيدة في المصانع والمعاملة الانسانية التي يلقاها العمال من الادارة:

حين توليت الرئـاسـة ، وقبل ان اتولاها ، كنت وعدد آخر منا نؤمن ان بامكانية التوسع في المملكة المتحدة محدودة وان علينا ان ندرس امكانية التوسع في الخارج. ولكن

افتراضاتنا لم تكن في محلها، لأن القدر الأكبر من التوسع الذي تم خلال الخمس عشرة عاما الأخيرة كان ولايزال داخل المملكة المتحدة، وسوف يظل كذلك في المستقبل المنظور. ولكننا بدأنا في اوائل الستينات في انشاء متاجر في كندا واوربا. ففي ١٩٧٢ بدأنا العمل في كندا من خلال محلات «سان مايكل»، وهي شركة نشترك في ملكيتها مع «هيئة المتاجر الشعبيـة الكبرى». كنا نملك ٥٠ بالمائة من الأسهم. وفكرنا عام ١٩٧٤ في السعي الى الحصول على نصيب «هيئة المتاجر الشعبية». لكن القوانين الحكومية لم تكن تسمح بذلك وقتها.

كنا نحسب اننا نعرف كل شيء عن تجارة التجزئة، واعتقدنا ان مبادىء «ماركس اند سبنسر» والأساليب التي تطبقها في انجلترا ستأتي بنفس النتيجة في كندا. ونجحت المبادىء فعلا، رغم ان ارساء بعضها استغرقنا وقتا. لكن الأساليب كانت مختلفة تماما، وقد تكلفنا الكثير حتى ادركنا ذلك.

كان هدفنا في البداية هو ان نجعل من متاجرنا في كندا صورة مصغرة من «ماركس اند سبنسر» في انجلترا. وكانت مجموعاتنا الثلاث في كندا تتألف من قسم «ماركس اند سبنسر» (متاجر ووكرز سابقا)، و «داليردز» و «بيبول».

كانت «داليردز» عبارة عن سلسلة من المتاجر المتخصصة في ملابس السيدات من سن الخامسة والثلاثين فما فوق. وكان قسم «بيبول» يعرض تشكيلة واسعة من السلع تختلف عما اعتدنا عليه، وتقل كثيرا في الجودة. اما مجموعة «ماركس اند سبنسر» فكانت في حالة فوضى. كنت أنا و«ديريك راينر» اعضاء في مجلسة الادارة الكندي الذي كنت أرأسه. وكانت أغلبية المديرين من المواطنين الكنديين.

لحسن الحظ ان مجموعتي «داليردز» و«بيبول» كانتا تحققان ربحا، لكنه لم يكن يكفي لتبرير رأس المال الذي دفعناه في المجموعة. وكان سوء الأداء في «ماركس اند سبنسر» الكندية راجعا الى عدة اسباب. اولها ان البشر لا يحبون ان يلبسوا زيا موحدا، حتى ولو كان البشر جميعا اخوة. فقد وجدنا ان الكنديين يفضلون الثياب البسيطة الخفيفة اكثر منا ، ولايميلون الى الثياب الرسمية. وكان هذا راجعا نوعا ما الى الطقس، والى اسلوب الحياة المختلف. ثانيا، وجدنا ان علينا ان نعرض السلع ونروج لها بطريقة مختلفة. ففي بريطانيا مثلا، اذا كان من الممكن ان نخفض سعر سلعة ما، فما كان علينا الا ان نكتب على بطاقة السلعة ان السعر انخفض، ان هذا لا يعني حدوث اي تغيير في النوعية. اما في كندا، فقد وجدنا ان مثل هذا الأسلوب لايؤثر على المبيعات. واكتشفنا اننا لو وضعنا بطاقة

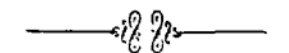
كبيرة على السلعة مكتوبا عليها السعر الأصلي بالخط العريض، ثم شطبنا هذا السعر بخط مائل وكتبنا تحته السعر الجديد المخفض ، فان هذا يؤدي الى ارتفاع المبيعات بشكل ملحوظ. اكتشفنا ايضا ان الديكور القاتم الذي يميز متاجرنا في انجلترا لايلائم الكنديين. وهذا درس تعلمناه من احد عملائنا المخلصين. وهكذا طلينا جدران المتاجر الداخلية بألوان زاهية، ووضعنا المرايا والأضواء على الجدران والأعمدة ، الأمر الذي اعطى جوا جذابا ودافئا، واعطى انطباعا بأننا وسعنا المتجر. اعتاد المستهلك الكندي ان يدفع اسعارا عالية في السلع مرتفعة الجودة، وبعض السلع غير الجيدة ايضا، في المتاجر الضخمة . وكان الكنديون ينظرون الى سلاسل المتاجر التي اعتبرونا من بينها، على انها تبيع سلعا رخيصة ورديئة . واستطعنا تدريجيا من خلال الدعاية والاعلان وتناقل الحديث عن جودة معروضاتنا ان نقنع عددا اكبر من العملاء ان متاجرنا مكان مناسب للتسوق. وبعد سنوات من النتائج المخيبة للآمال، استطعنا ان نحدث تحولا كاملا في «ماركس اند سبنسر» عام ١٩٨٥، فانتقلنا من حالة الخسارة الى الربح، وزادت ارباح المجموعات الثلاث الى حد كبير. كما زاد حجم تعاملنا في كندا بدرجة كبيرة، بعد ان فهمنا الدرس جيدا وبدأنا نتطور من قوة الى اخرى. وفي ١٩٨٦ تمنا من شراء الأسهم التي لم نكن نملكها.

لم تكن تجربتنا المبدئية في فرنسا تختلف عنها في كندا. فقد بدأنا في باريس عام ١٩٧٥ متجر متوسط الحجم في طريق «هوسمان» ، وهو من أهم الشوارع التجارية في العاصمة. وكان المتجر يقع قبالة «برينتامب» و«جاليري لافاييت»، وهما يعادلان «هارودز» و«سيلفريدجز» في لندن. كانت المبيعات رائجة في الأسبوع او الأسبوعين الأولين. ولكن تبين لنا ان غالبية العملاء هم البريطانيون المقيمون في باريس. فبعد ان اشتروا لوازمهم ، هبطت نسبة المبيعات بشكل حاد. ولكن هذا لم يردعنا، ففي سبتمبر ١٩٧٥، فتحنا متجرا آخر في الحي التجاري في «ليون». ولم ننجح فيه ايضا، حيث قلت المبيعات كثيرا عن توقعاتنا. وكافحنا عدة سنوات حتى نرسخ اقدامنا. ووجدنا ان الفرنسيين محافظون في عاداتهم الشرائية. لكننا استطعنا في آخر الأمر ان نحقق طفرة، وتم توسيع متجر باريس اربع مرات.وهو الآن من متاجرنا الوائدة الرابحة، رغم صغرحجمه. ومثلما حدث في كندا، ارتكبنا الأخطاء وتعلمنا منها. فاضطررنا مثلا الى بناء غرف للقياس لانحتاج اليها الا في بعض المحلات النائية في المملكة المتحدة. فالزبائن البريطانيون يعلمون جيدا انهم ان لم يجدوا المقاس مناسبا عند قياس الملابس في البيت، فما عليهم الا استبداله من اي من فروعنا، او رده واسترداد نقودهم. اما النساء الفرنسيات فلا يحبذن اخذ الثياب الى البيت. فهن يفضلن قياس كل شيء في المحل. ولما وجدنا انهن يفعلن ذلك في احد أركان المحل، اضطررنا الى تخصيص غرف للقياس.

اصبح لدينا الآن سبعة متاجر في فرنسا ، ومتجران في بلجيكا ، ومتجر في «دبلن».

وقد حققت مشروعاتنا الخارجية ولازالت تحقق تطورا مطردا في الأرباح. والامر المشجع هنا هو انه رغم محافظة الفرنسيين، فان قطاعا كبيرا من المنتجات التي نبيعها في اوروبا مصنوع محلياً، ويشكل حجما قيما من الصادرات.

كانت اخطاؤنا في الخارج بصفة عامة تكمن في عجزنا عن تعديل السياسات بما يتناسب مع الظروف المحلية. كنا نؤمن ان سياساتنا واساليبنا الانجليزية ستنجح بنفس القدر في الخارج. وكنا مخطئين، لكننا تعلمنا من اخطائنا. والواقع ان الدروس التي تعلمناها في كندا وفرنسا لهاصلة كبيرة بالتطورات التي احدثناها في المملكة المتحدة. والتي نطبقها بشكل ناجح حالياً.



الفصل الخامس عشر

استمرت زياراتي المنتظمة لاسرائيل لأبقي على الصلات بين «ماركس اند سبنسر» والموردين الاسرائيليين الذين كانوا يحرزون تقدما طيبا، ولكي ألم بما يحدث في «معهد وايـزمان»، وأقدم العون في المجالات الأخرى، وبقيت على اتصال بالزعماء السياسيين الاسرائيليين، لأكمل المهمة التي بدأتها منذ اكثر من عشرين عاما، وان بأسلوب مختلف. وكانت «ليلى» تصحبني في معظم تلك الزيارات، لا لأن لها اصدقاء عدة منذ ايام الدراسة في اسرائيل وحسب، وانما لأنها سارت على نهج والدتي، فانخرطت في المملكة المتحدة في المنظمة الصهيونية النسائية، التي كان مقرها الرئيسي في اسرائيل.

كنـا في اسرائيل في نوفمبر ١٩٧١، لحضور اجتماع مجلس المحافظين الدولي لـ «معهـد وايزمان»، ولافتتاح مستشفى «ريبيكا سيف»، الذي اقيم في «صفد» في شمال اسرائيـل تخليـدا لذكرى امي. وكانت «جولدا مائير» رئيسة الوزراء حينذاك هي التي ستفتتحه. كنت قد قابلت «جولدا» لأول مرة قبل انشاء الدولة، وكانت وزيرة للعمل في اول حكـومـة اسرائيليـة، وقـد شغلت مسئوليات عديدة جعلتها تتعامل مع افواج اللاجئين المتـدفقـة. وكـان من بين المشكـلات التي تواجهها. تدريب اللاجئين وتوطينهم وايجاد الوظائف لهم. وقد اثبتت خبرة «ماركس اند سبنسر» في التدريب فائدتها في هذا المجال. فقـد قضت «فلورا سولومـون» التي بذلت الكثـير لتـطويـر سيـاسة التعيين والدعاية الاجتماعية في «ماركس اند سبنسر»، قضت فترة كبيرة في اسرائيل في تلك الأيام المبكرة، وأسهمت اسهاما قيما في برامج «جولدا».

كانت علاقتي بـ «جولدا» قد توطدت على مر السنين منذ ذلك الحين. في يوم افتتاح المستشفى، حلقت مع «ليلى» و«جولدا» بالهليكوبتر من تل أبيب الى صفد. واثناء الرحلة سألت «جولدا»: ماذا ستقولين في خطابك؟ فأجابت: انا لا أعد خطاباتي مقدما، ما لم تكن

سياسية او متعلقة ببيان سياستي، لأن هذه مسائل تتطلب الدقة. اما فيما عدا ذلك فأنا أرتجل الكلام». قلت لها: وكيف ارد عليك؟ اجابت: ثق ان الأمور ستسير على ما يرام. اظن ان كلينا نستطيع في زمن قصير ان نعبر عن تقديرنا لوالدتك وانجازاتها.

اسعدني ان أسمع ان «جولدا» ستوجز حديثها. وقد هنأتها مرارا على هذا الايجاز الرائع في خطاباتها البرلمانية والعامة في اسرائيل. فالايجاز نعمة اذا ما قسناه بالاسهاب الذي كنا نلمسه في الخطابات المطولة في فترة ما قبل الدولة وفي سنواتها الأولى، حين كان ابرع الخطباء يشعرك بالضجر.

اندلعت حرب «يوم كيبور» في عام ١٩٧٣، واخذت اسرائيل على غرة، فعانت خسائر جمة في الأرواح والمعدات في الأيام القليلة الأولى. وبدا بعض الفترات ان اسرائيل ستنهزم وان دولتها ستنهار. لكن اسرائيل انتصرت في النهاية، لكن التكلفة كانت فادحة. تعرفت في تلك الفترة لأول مرة بذلك الرجل العظيم «هنري كيسنجر»، الذي كان وزيرا للخارجية الأمريكية. وقد لعب «كيسنجر» دورا بالغ الأهمية. فحين أفاقت اسرائيل من هزائمها الأولى، ودفعت المصريين والسوريين على التقهقر، بدأ «كيسنجر» جولاته المكوكية بين الأطراف المتحاربة، ولعب دورا كبيرا في الاتفاق على وقف اطلاق النار ثم الهدنة.

مما يؤسف له ان الحكومة البريطانية لم تسلك نهجا محمودا في تلك الفترة. فما ان بدأت العداوات، حتى فرضت بريطانيا حظرا على مبيعات الأسلحة للشرق الأوسط. وكان الاسرائيليون قد اشتروا عددا من دبابات «سنتوريون» البريطانية، كما اشتروا ودفعوا ثمن قطع غيارها وذخيرتها. كان سلاح الدبابات قد تلقى ضربة قوية في ايام الحرب الأولى. وكانت قطع الغيار والذخيرة قد شحنت بالفعل، حيث كانت الحاجة اليها ملحة. ورغم ان ثمنها كان مدفوعا، فقد أبت الحكومة البريطانية ان تسمح بابحار السفن. وذهبت لمقابلة مستر «هيث» رئيس الوزراء لأطلب منه السماح بارسال الشحنة، لكنه رفض.

كنت قد بدأت في تلك الفترة اجري مباحثات مع بعض الشخصيات العربية البارزة، التي كانت ترغب في التوصل الى تسوية مؤقتة يتم بعدها اقرار السلام بين اسرائيل وجيرانها العرب. وكان من المشكلات الرئيسية ان اسرائيل تسيطر على الضفة الغربية التي يقطنها مليون عربي، ولم يكن لدى الحكومة الاسرائيلية ادنى استعداد لرد الضفة، حتى يعترف جيرانها بحقها في الوجود ويتم ارساء السلام. وكان لابد لاسرائيل، حتى في تلك الفترة، ان تحصل على ضمانات أمنية معينة، لأن احتلال الضفة الغربية من قبل قوة معادية كان ليشكل تهديدا لوجودها. ورفضت الحكومات العربية المسالمة، فيما عدا مصر التي قبلته في النهاية. ورفضت اسرائيل بالتالي ان تعيد أيا من الأراضي التي احتلتها اثناء حرب الأيام الستة. كان الملك حسين يرغب منذ سنوات في التوصل الى تسوية مؤقتة، تصل

بمـوجبها الأردن واسرائيل الى أتفاق سلام. لكنه كان يحتاج الى دعم العرب في الضفة الغربية، والى دعم منظمة التحرير الفلسطينية التي خولها الزعماء العرب حق التصرف بالنيـابة عن الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية. ورفضت المنظمة، التي كانت قد أصبحت منظمة ثرية، ان تعترف باسرائيل، ودأبت على الحديث عن تدمير اسرائيل، وعلى شن الهجمات الارهابية داخل اسرائيل، وفي اماكن أخرى من العالم لها صلة باليهود، وقتلت عددا كبيرا من الناس. وأدى رفض العرب للتفاوض واستمرارهم في سياسة الارهاب الى خلق مجموعه متنامية من المتشددين في اسرائيل، رفضوا مجرد التفكير في اعادة الضفة الغربية التي كانوا يسمونها «يهودا والسامرا». وفي هذه الأثناء، كان حزب الماباي الذي تزعم حكومات ائتلافية عدة ذات سياسة يسارية معتدلة، قد بدأ يتطرق اليه التعب بعد خمسة وعشرين عاما في الحكم. وحدثت فضائح على مستوى عال. وبدأ الضعف يتطرق الى المثاليات التي كان لها اكبر الفضل في الحيلولة دون القضاء على الدولة في المهد وفي التنميـة الهائلة التي حدثت. وانهزم ائتلاف «ماباي» في الانتخابات العامة في ١٩٧٧. وتأسست حكومة يمينية من ائتلاف الليكود - حين تولى السلطة حزب «حيروت» بزعامة «مناحيم بيجن». كان الاختلاف كبيرا بين سياسة ائتلاف الليكود والحكومة السابقة. وكان «مناحيم بيجن» زعيما بأسلوبه الخاص. لكن النهج الذي سلكه للقيام بهذا الدور كان أصوليا واستبداديا وقوميا. لم يكن «بيجن» يكن احتراما كبيرا لتقاليد اوربا الغربية، حيث عانى الأمرين على ايدي البولنديين والروس في شبابه. وكان زعيما للحملة التي لاتتورع عن شيء، التي شنتهـا جمـاعة «ارجون» على الحكم البريطاني في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، والتي اشتملت على عدة عمليات تطرفية، اجتهد «بن جوريون» وزملاؤه لمنعها دون جدوى.

في البـدايـة، حسبت ان إلمامه بتاريخ العهد القديم وتجربته اثناء حرب الابادة تجعلانه مستعدا للمجازفة بفناء اسرائيل بدلا من التنازل عن شبر واحد من الأرض، او الاعتماد على من يسمون انفسهم اصدقاء. وكنت مخطئا في ظني. كان «بيجن» قد اكتسب دعم من أسماهم يهود الشرق المطحونين منذ ايام «ارجون». فقد وعدهم بالاغاثة والمساواة والعدل والوظائف. وكان حزب العمل قد حاول منذ ميلاد الدولة ان يخلق مجتمعا يقوم على التقاليد الغربية، مجتمعا متطورا وعلمانيا وتكنولوجيا تقوم الوظائف فيه على المهارات، وتتسـارع فيه الخطى نحو مستوى معيشي أفضل وحياة ارفع. كان العديد من اليهود الشرقيين (السفارديم) محرومين من المشاركة التامة في ذلك المستوى المعيشي المرتفع، بل انهم كانـوا موضع احتقار من فئة من اليهود الأوربيين المطبوعين على التقاليد الغربية (الاشكنازي). وكان السفارديم محافظين، ورغم ذلك فقد كانوا يسعون الى الحصول على

نصيب اكبر من الرخاء المتزايد، ومن المناصب في الحكومة الاسرائيلية . وبدأ «بيجن» ينقذهم من هذه المرتبة الاجتماعية والاقتصادية الدنيا. حين اصبح «جيمي كارتر» رئيسا للولايات المتحدة ، كان من بين أهدافه ان يعرف بأنه الرجل الذي أرسى السلام في الشرق الأوسط. ولتحقيق هذا الهدف، فرض «كارتر» ضغوطا على «اسحق رابين» رئيس وزراء اسرائيل. وسرعان ما توترت العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل، حين أبدى «رابين» مقاومة لكارتر. وأصابت الصدمة الحكومة الاسرائيلية وأصدقاء اسرائيل في كل مكان، حين أعلن «كارتر» ان على القوات الاسرائيلية ان تنسحب الى ما وراء خطوط حرب الأيام الستة. ونقل كارتر اسرائيل وقتها من أعلى قائمة حلفاء الولايات المتحدة في توريد الأسلحة والمعدات الى مكانة أدنى. وأدى ذلك الى انزعاج الاسرائيليين ، لاسيما وان الحزب الديمقراطي الأمريكي كان يعتبر حتى ذلك الحين أكبر حليف لاسرائيل في الولايات المتحدة. وكان كارتر يفتح فجوات في السياسات التي أرساها «نيكسون» و«فورد»، والتي ساعد على ارسائها وتنفيذها «هنري كيسنجر».

أدى ذلك كله الى تزايد الدعم لـ «بيجن». وحين اصبح رئيسا للوزراء، تلقى العون من خلال شريكه الجديد في الائتلاف الحكومي، حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير، الذي كان يتزعمه صديقي القديم «بيجال يادين». وبدأ «بيجن» حكمه باعلان سياسة خارجية متشددة. ولكنه قلل المخاوف مما قد يحدث حين طلب الى «موشي ديان» رجل السلام ان يشغل منصب وزير الخارجية.

بعد اعتلاء «بيجن» للحكم بستة اشهر، ألقى الرئيس المصري «انور السادات» خطابه الشهير الذي قال فيه: «ان اسرائيل سوف يصيبها الذهول ان تسمعني أقول لكم (لأعضاء البرلمان المصري) انني مستعد للذهاب اليهم في عقر دارهم، الى مبنى الكنيست نفسه، لأجادلهم، ولأحول دون تعرض جندي مصري واحد للاصابة....». ساورتني الشكوك حول هذا الكلام شأني شأن الكثيرين ، او معظم الناس داخل اسرائيل وخارجها. فقبل اربعة أعوام فقط كان السادات قد أعلن على الملأ انه مستعد ان يضحي بحياة مليون جندي مصري حتى يستعيد الأراضي التي احتلتها اسرائيل. ولكن تبين خلال بضعة ايام ان السادات كان جادا في قوله. واستجاب «بيجن» بسرعة جديرة بالاعجاب. ومثلما تستحق ادارة «رابين» سيئة الطالع الثناء على اسهامها في الخطوات التي حدت بالسادات الى اتخاذ تلك الخطوة، فان «بيجن» ايضا يستحق بعض الثناء. فلا بد ان اصراره الذي لايتزعزع على عدم الاستسلام ، وايثاره الموت على التنازل عن شبر من الأرض قد أقنع السادات ان هذا هو الملاذ الوحيد.

أبتهجت حين ذهب السادات الى القدس، شأني شأن كل الآخرين. ووصل

السادات يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، وبعد لقائه برئيس الوزراء والوزراء، قام بجولة في القدس القديمة، وألقى خطابه في الكنيست الاسرائيلي، داعيا «بيجن» الى زيارة مصر. ورغم ان احدا لم يقلل من الأهمية الكبرى لزيارة السادات الى القدس، والتي كانت تعتبر في حد ذاتها اعترافا بدولة اسرائيل، الأمر الذي كان قد أقسم على ألا يعطيه، فقد لوحظ ان السادات اكد على كل المطالب العربية باعادة الأراضي المحتلة، دون ان يعرض اية تنازلات في المقابل. وساد احساس بخيبة الأمل. وفي عيد الميلاد ذهب «بيجن» الى مصر، والتقى بالسادات في الاسماعيلية، دون ان يسفر لقاؤهما عن شيء. وساد احساس بالهبوط المفاجيء. وتلا ذلك ثمانية اشهر من المفاوضات بوحي من الأمريكيين، الذين لم يتحملوا فكرة عودة الأحوال في الشرق الأوسط الى ما كانت عليه بعد حرب «يوم كيبور». ووجد الأمريكيون في «بيجن» رجلا صعب المراس عنيدا لايتمتع بالمرونة. لكن «ديان» الذي كانوا يعرفونه منذ زمن كان ديبلوماسيا واقعيا يتمتع بالخبرة والمهارة. وكان موقفه حول مستقبل الضفة الغربية ليبراليا لأنه ، على عكس «بيجن»، لم يطالب بتوطين الاسرائيليين هناك، وكان مستعدا للتفاوض. وفي رأيي ان الاتفاق على الشروط في كامب ديفيد بين كارتر والسادات وبيجن في ١٩٧٨، وعدم فشل اشهر المحادثات الثمانية كانا يرجعان الى مهارة «ديان» وصبره، اكثر مما يرجعان الى اي انسان آخر. واعتقد انها كانت افضل ساعاته من عدة نواح. ولكن ينبغي ارجاع بعض الفضل الى «بيجن». بمقتضى اتفاقية كامب ديفيد، وفي مقابل السلام ، أعاد «بيجن» الى مصر سيناء كلها. وهو اكثر مما كان المصريون يتوقعونه على حد ظني.

سألت نفسي ما الذي يمكن ان أقدمه. وبعد بحث الأمر مع اصدقائي في المملكة المتحدة واسرائيل، القيت خطابا امام الجمعية الانجليزية الاسرائيلية في لندن في ديسمبر ١٩٧٨. وقلت في الخطاب انه من المستحيل ان اتصور ان تتنازل اسرائيل عن الضفة الغربية لتصبح دولة مستقلة تحت زعامة منظمة التحرير الفلسطينية. وذكرت زملائي بأن المؤتمر الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية لايزال يطالب بالقضاء على دولة اسرائيل. لم يكن من الممكن ان يتحقق الأمن لاسرائيل اذا وجدت نفسها محصورة داخل شريط من الأرض عرضه تسعة اميال، يحده البحر من احد الجانبين، والجيوش المعادية من الآخر. وقلت انه لو تم توقيع اتفاقية السلام ، فان «ماركس اند سبنسر» ستكون على استعداد لمساعدة المصريين في تنمية صناعات المنسوجات والأغذية، استنادا الى خبرتنا في اسرائيل على مدى العشرين عاما الماضية. واعربت عن الأمل في ان يؤدي اجتماع كامب ديفيد الى توقيع معاهدة سلام من شأنها ان تشكل نقطة تحول في الشرق الأوسط. وشرحت كيف يمكن للدروس التي تعلمتها اسرائيل وطبقتها في المجالين الزراعي والصناعي ان تكون

مفيدة للمصريين. قلت «لقد تمكنت اسرائيل من نقل فنون صناعاتها الى البلدان النامية في انحاء شتى من العالم، وخاصة في افريقيا، حيث قبلت زامبيا وساحل العاج وكينيا مشورتها وحققت من ورائها ارباحا. وآمل ان يتم تقديم نفس العون واحداث نفس التطويرات في مصر، وذلك لخلق المزيد من فرص العمل، والمساعدة على رفع مستويات المعيشة، وخلق قاعدة للتصدير». والواقع ان استعداد رجل صهيوني بارز لمساعدة مصر بمجرد توقيع معاهدة سلام قد نال شعبية كبيرة.

ثم توقيع معاهدة السلام في مارس ١٩٧٩. وكان كارتر قد بذل جهدا مضنيا للتأثير على «السادات» و«بيجن». ولابد انه تنفس الصعداء حين تم التوقيع في البيت الأبيض. كانت كامب ديفيد ، كمعاهدة، بعيدة عن المثالية. لكن المعجزة كمنت في توقيعها. وبعد اتمامه للمهمة العظيمة، وادراكه لاختلافه مع «بيجن» في تفسير شروط المعاهدة، استقال «ديان» في اكتوبر التالي، وتلاه «عزرا وايزمان» الذي وجد انه لايستطيع مساندة الكثير من سياسات الليكود.

في خريف ١٩٧٩، حين كنت اقيم في هيلتون تل أبيب، زارني امريكي يدعى «فيل»، من كبار موردي الحبوب الى مصر. كان قد سمع بعروض المساعدة التي أبديت استعدادا لتقديمها اذا ما تم توقيع معاهدة سلام. وسألني: ألا تزال هذه العروض قائمة؟ فقلت: اجل. وبناء على محادثاتي مع «فيل»، سافر اثنان من كبار مسئولي «ماركس اند سبنسر» الى مصر في اوائل العام التالي، وهما «ناثان جولدبرج» الذي يعمل كبير مستشارين لقسم الأغذية منذ عشرين عاما، و«مارتن مندوزا» احد اداريي قسم المنسوجات. وقضى الاثنان عدة اسابيع هناك ولقيا استقبالا حسنا.

وفي فترة متأخرة من عام ١٩٨٠ زارني رجل مصري يدعى «سيد سالم»، وسألني ان كنت اقبل دعوة لزيارة مصر ضيفا على حكومتها. وذهبت و«ليلى» الى مصر في نوفمبر، ورافقنا «جولدنبرج» و«مندوزا»، الى جانب «ديفيد فروست» الذي اصبح رئيسا لـ «معهد وايزمان»، حيث كنا نعتزم التوجه من مصر الى اجتماع لمجلس المحافظين في اسرائيل. ونزلت و«ليلى» في جناح الرؤساء في هيلتون القاهرة، تحت حراسة ثلاثة من رجال الأمن لا يفارقون بابنا ليل نهار. وبدأ برنامج الزيارة بجولة في بعض مصانع الملابس والمنسوجات. وصحبني في الجولة عدد من الوزراء المصريين. ورأيت مصانع ممتازة، كان احدهما في المحلة بمنطقة الدلتا، حيث يعمل عشرون الف شخص في مجمع صناعي واحد. واشتمل المجمع على حدائق رائعة وملاعب رياضية ومستشفى الى جانب وحدات سكنية تضم حوالي خمسة آلاف عامل. كانت المعدات حديثة، معظمها ضمن المعونة الأمريكية. اما ما كان المصريون يريدونه منا فهو اقتراح افضل الطرق لاستخدام هذه الماكينات في التصنيع

للأسواق المحلية والعالمية. والتقيت في مدن الدلتا الأخرى بعدة وزراء، وتباحثنا مع وزير الزراعة وكبار المسئولين. وكان اسبوعا مشحونا بالنشاط.

وفيما كنت انا ارهق نفسي بالعمل في القاهرة والدلتا والاسكندرية، ذهبت «ليلى» و«ديفيد» في رحلة نهرية الى الأقصر لزيارة مقابر الفراعنة ومعبد الكرنك الرائع. وفي صباح السبت ذهبنا الى منزل السادات على النيل، على مسافة بضعة اميال خارج القاهرة. وكان ذلك اول لقاء لي معه. ودارت بيننا مناقشة طويلة وودية، حدثني خلالها عن طموحه الى السلام والتعاون الأوثق مع اسرائيل. كان قياديا فذا يتمتع بالدفء والفتنة، ولم يكن بالرجل المعقد. وقد ابهرني فهمه للمشكلات الاسرائيلية وواقعيته واصراره الواضح فوق كل شيء على ارساء السلام ودعمه بالتعاون. وكان متفائلا، رغم وقف عضوية مصر في العديد من المنظمات العربية بعد توقيع معاهدة السلام في ١٩٧٩. واطرى السادات الرئيس الاسرائيلي «نافون»، الذي زار مصر قبل بضعة اسابيع. وقال السادات» اعرف ان الرئيس الاسرائيلي لايملك سلطة سياسية تذكر. ولكنكم لن تجدوا افضل من «نافون» كسفير لاسرائيل في مصر. ليس لأنه يجيد العربية، ويستطيع ان يحدث المصريين بلغتهم الخاصة وحسب، وانما لأن موقفه من مشكلاتنا سليم».

قبل عودتي من مصر، رتب لي الرئيس السادات لقاء مع نائبه «حسني مبارك» الذي اصبح رئيسا الآن. ودار حديث «مبارك» معي اساسا حول مشكلة التزايد السكاني في مصر، قائلا ان مستقبل مصر سيكون مظلما اذا استمر المعدل الحالي في الزيادة السكانية. وقال انهم يبذلون ما في وسعهم للتحكم في الزيادة، لكن المهمة كانت صعبة. وحتى اذا وجد المصريون الوسيلة للتحكم في معدل الانجاب ، فان عدد السكان سوف يرتفع من اربعين مليونا في ١٩٨٠ الى ستين مليونا في عام ٢٠٠٠. وحتى لو تمكنوا من الحفاظ على ذلك المعدل، فسوف يكون من الصعب تحقيق مستوى معيشي معقول. واذا ارتفع المعدل ، فليكن الله في عونهم . وفي الفترة التي كتبت فيها هذا الكتاب، كان معدل زيادة السكان يعني زيادة تصل الى اكثر من ٦٠ مليونا في عام الفين. والنتيجة الوحيدة لذلك هي مواجهة مشكلات اقتصادية واجتماعية رئيسية.

تمكنت «ماركس اند سبنسر» من تقديم بعض المشورة المفيدة لمصر، تركز كثير منها على ما تعلمناه في اسرائيل. لكن المشكلة كانت تكمن في تطبيق هذه المشورة. والواقع ان العديد من المشكلات كان مشابها لتلك التي واجهتها اسرائيل وتغلبت عليها. لكن التقدم هناك كان قائما الى حد كبير على التطورات العلمية والتكنولوجية، وعلى القوى العاملة التي كان تدريبها يتطور بشكل مطرد. كانت المشكلة المصرية تكمن في انه رغم توافر الماء والأيدي العاملة ـ وهما اكثر العناصر حيوية لتطوير الزراعة بشكل مرضي ـ فان البلاد

كانت تفتقر الى التقدم التكنولوجي والأيدي العاملة المدربة. التقيت بالرئيس السادات في مناسبات عدة، قال لي في احداها بعد زيارة قريبة لاسرائيل: «حين اعبر الحدود المصرية الاسرائيلية بالطائرة، اعرف على الفور انني انتقلت من بلد الى آخر ـ حين انظر الى اسفل وأرى الرقعة الممتدة من الرمال الصحراوية القاحلة تنتهي فجأة لتبدأ المروج الخضراء». (الواقع انه كان قد تم احراز تقدم متواضع في الزراعة في دلتا النيل بمساعدة الخبراء الاسرائيليين الذين ذهبوا لتقديم العون للمصريين. وكان وزير الزراعة متعاونا للغاية في هذا المجال بالذات).

عانت مصر الأمرين من التعقيدات البيروقراطية المبالغ فيها، الى جانب معاناتها من نقص الأيدي العاملة المدربة والتكنولوجيا. وقد عوقت تلك البيروقراطية الجهود التي كنا نبذلها في محاولات مساعدة البلاد، الى درجة انني ارسلت مذكرة حول الموضوع الى الوزارات المعنية. وسمعت فيما بعد ان الرئيس السادات يعتزم المرور على لندن في طريقه الى واشنطن، فاتصلت بالسفير المصري واطلعته على رغبتي في مقابلة الرئيس. فأبلغني ان الرئيس لن يمضي الا ٢٤ ساعة في لندن، وانه لن يستطيع عقد لقاءات خاصة. ولكن بعد يومين، وقبل وصول الرئيس بيومين، تلقيت رسالة تعرب عن ترحيبه بلقائي. وحين وصلت الى السفارة، شكر لي باسهاب العون الذي كنا نقدمه لمصر. فقلت له: كان بمقدورنا تقديم عون اكبر، لولا ان هناك مشكلات». فقال: «انك لتكون مخطئا لو حسبت انني لم أطلع على المذكرة التي تحدثت فيها عن بيروقراطيتنا. لكننا امضينا مائة عام او اكثر في بناء هذه البيروقراطية. ولا استطيع لا انا ولا انت، ولو عملنا سويا و ان نقضي عليها في عام او عامين. لكننا لو ضممنا جهودنا فسوف نستطيع ان نحرز تقدما على الأقل». وسافر السادات بعدها الى واشنطن ، ثم اغتيل بعد ثلاثة اشهر، في اكتوبر ١٩٨١.

اعتقد ان اغتيال السادات كان مأساة لم يقدرها الناس حق قدرها، وانه لوكان كتب له البقاء لكان الشرق الأوسط الآن اكثر تقدما بكثير. تقاعد «مناحم بيجن» في اغسطس ١٩٨٣، وقد توطدت معرفتي به اكثر اثناء رئاسته للوزارة. لكننا لم نكن نتمتع بنفس الألفة التي كانت تجمعني برؤساء الوزارة الاسرائيلية السابقين. ثم ان علاقتي بمعظم اعضاء حكومته كانت محدودة. ولكن «اريل شارون» كان من بين الأشخاص الذين عرفتهم اكثر، رغم تعارض آرائنا. كنت اقدر حاجة اسرائيل الى منطقة امنية في جنوب لبنان، للحيلولة دون قيام الارهابيين بشن هجماتهم على شمال اسرائيل او اطلاق صواريخهم عبر الحدود، وفهمت لماذا قررت اسرائيل ان تحصل على هذه المنطقة من خلال الحرب. ورغم ذلك فقد كنت أعارض مد الحرب الى الجزء الرئيسي من لبنان. وقد عبرت عن ذلك بالكلمات والأقلام، الأمر الذي لم يجعلني محبوبا. وانقلبت الحرب في نهاية الأمر وبالا على اسرائيل، رغم

تقدمها في البداية. فقد تم قصف بيروت لمساندة حلفاء اسرائيل من المسيحيين اللبنانيين. لكن اللوم وقع على اسرائيل بعد احتلال بيروت، حين وقعت مذبحة الفلسطينيين في «صبرا» و«شاتيلا» على ايدي الكتائب اللبنانية المسيحية. وأثار ذلك احتجاجا عالميا. وكانت اسرائيل قد انسحبت في النهاية من لبنان تحت زعامة «شيمون بيريز»، بعد ان كسبت من حملتها النذر القليل مما كان باستطاعتها تحقيقه في تقدمها المبدئي لمسافة اربعين كيلومترا. ويتعرض حلفاء اسرائيل المسيحيون السابقون في تشرذمهم الراهن الى هجوم مستمر .وبغض النظر عن الغزو الاسرائيلي فقد مرت على لبنان عشر سنوات من الحرب الأهلية، التي يروح ضحيتها عشرات الآلاف من الأرواح. ولاتزال هذه الحرب دائرة حتى اللحظة التي اكتب فيها.

كانت السياسة الاقتصادية لحكومة الليكود فاشلة. ويسجل لنا التاريخ قبل سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، ان زعماء هذه الامبراطورية انتهجوا سياسة «الخبز والأسراك»، بمعنى توفير الطعام والترفيه للقطاع الأكبر من الجماهير حتى يلزموا الصمت. ونتيجة لذلك ضعفت المعنويات وتدهورت الأحوال ، حتى انهارت الامبراطورية الرومانية في نهاية المطاف. ورغم المشكلات الاقتصادية الاسرائيلية ، ادخلت حكومة الليكود ما يشبه سياسة «الخبز والأسراك» في صورة سيارات واجهزة تليفزيون وفيديو يتم استيرادها باعداد هائلة، الأمر الذي احدث ضررا كبيرا وتدهورا في ميزان المدفوعات الاسرائيلي. وتم رفع الأجور بمعدلات ضخمة لمواجهة التضخم، الأمر الذي أدى بدوره الى استفحال التضخم. وعانى الانتاج الصناعي ركودا، فهبطت الصادرات وارتفعت الواردات. وزادت الديون الخارجية الاسرائيلية بدرجة هائلة، حتى وقعت البلاد في قبضة أزمة اقتصادية في ١٩٨٣. ولو كانت هذه السياسة استمرت مدة اطول، لاضطرت اسرائيل الى اعلان افلاسها لو كان ذلك ممكنا.

اذكر رحلة قمت بها مع «ليلى» وعضو البرلمان «هيو فريزر» الى ايلات لمدة ثلاثة او اربعة ايام في نوفمبر ١٩٨٣. ونزلنا في فندق في منطقة «طابا» المتنازع عليها حاليا. وفي طريقنا من المطار الى الفندق ، شاهدنا آلاف السيارات اليابانية الواقفة على ارصفة الميناء، بعد انزالها من السفن في مرفأ «ايلات». ورجعنا الى اسرائيل مرة ثانية في مايو ١٩٨٤. وليلة وصولنا ، طلب الي ان اتحدث أمام غرفة التجارة الاسرائيلية البريطانية. ولما علمت انه اجتماع خاص ، قررت ان أفرغ كل ما في جعبتي. في البداية، ركزت حديثي على أزمة الخبز والأسراك الرومانية، وتنبأت بأنه ان لم يتم التحكم في واردات السيارات وأجهزة التليفزيون والفيديو، واذا لم يربط الاسرائيليون الأحزمة على بطونهم، فان ذلك سوف يعني

اضرارا اجتماعية واقتصادية جمة في اسرائيل. ثم تطرقت الى وصف واطراء المنجزات الاسرائيلية، واقتراح الجوانب التي يمكن تحقيق تقدم اكبر بها.

في اليوم التالي، ذهبنا لتناول الغداء مع الرئيس «حاييم هيرتزوج» وزوجته «اورا». وكنت احسب انه سيكون غداء عائليا خاصا. ولكن لدى وصولنا وجدت «ايلي هورويتز» رئيس جمعية المصنعين وزوجته. وقال لي «كان خطابا جيدا ذلك الذي ألقيته ليلة أمس». ولما سألته كيف عرف وهو لم يكن حاضرا قال: «انه يحتل الفصحات الأولى من صحف الصباح».

الحق يقال انني لو كنت أعرف ان كلماتي ستنشر، لما قلت ما قلته. ولما التفت ورائي وجدت «اسحق شامير»، الذي اصبح رئيسا للوزراء بعد استقالة «بيجن»، والذي انتقدت حكومته في خطابي.

لم تسفر الانتخابات الاسرائيلية في عام ١٩٨٤ عن فوز اي من الأحزاب بأصوات الأغلبية. وكانت الطريقة الوحيدة الممكنة لتشكيل اي حكومة فعالة هي الائتلاف بين الليكود والعمل. وتم الاتفاق على ان يتولى «شيمون بيريز» رئاسة الوزارة لمدة عامين، يشغل خلالها «اسحق شامير» منصب رئيس الوزراء، ثم يتبادل الاثنان المناصب في منتصف فترة الدورة البرلمانية. حدثني «شيمون» في حوارنا السابق حول الموقف الاقتصادي عن نواياه، وبدت لي هذه النوايا معقولة الى حد كبير. ولكني لم أر الا دلائل قليلة على تنفيذ هذه النوايا خلال الأشهر الستة الأولى من رئاسته للوزارة. وحين كنت اتحدث الى سائقي السيارات الأجرة والسقاه واصدقائي البعيدين عن الحكومة والسياسة، كانوا يجمعون على القول بأنهم كانوا يتوقعون ان يطلب اليهم شد الأحزمة على البطون، وكان لديهم الاستعداد لذلك. لكن هذه الدعوة لم تعلن. واستمر التضخم في التزايد. وتوقعت مزيدا من التدهور الاقتصادي والاجتماعي، لكنني كنت مخطئاً.

كان من حسن حظ اسرائيل ان تزعم «شيمون بيريز» الحكومة آنذاك. وقد عرفته منذ اكثر من سبع وثلاثين سنة، وعملنا سويا في فترات مختلفة طوال تلك السنوات. ان اسهامه كشاب في خلق دولة اسرائيل، ثم في تنميتها كان عظيما بحق. وقد ترأس واحدة من اشد الحكومات الديمقراطية انقساما، وكان الانقسام راجعا الى التباين الشديد في آراء الحزبين الرئيسيين في التكتل. ورغم ذلك، فقد نجح «بيريز» كرئيس للوزراء خلال السبعة عشر شهرا الماضية (عند كتابة هذا الكتاب) باصراره ومقدرته في معالجة اكبر مشكلتين في اسرائيل، وهما السلام والاستقرار الاقتصادي. على الجبهة الاقتصادية، كان «بيريز» بارعا في اعداد خططه، بالتعاون مع بعض الوزراء النابغين من الليكود، وخاصة «موداعي» وزير المالية. وقد ابتكر سياسة حققت قدرا كبيرا من النجاح لعدة اشهر. كان معدل

التضخم في ١٩٨٥ قد وصل الى اكثر من ٥٠٠ بالمائة سنويا، هبط بعد ستة اشهر الى ٢٠ في المائة. وربطت الأغلبية السكانية الأحزمة على البطون اخيرا، متقبلة الخفض الكبير في مستويات معيشتهم، وتعاونت مع الحكومة. وخلال اقل من عام، طرأ تحسن هائل على الموقف الاقتصادي الاسرائيلي، واكتشف الكثيرون من الاسرائيليين من جديد احساسهم بالتفاني. رغم المعارضة التي لقيها «شيمون بيريز» من زملائه في تكتل الليكود، فقد اوضح انه مستعد لاعطاء تنازلات كبيرة لتحقيق السلام مع جيرانه. ولكن المأساة تكمن حتى الآن في ان الملك حسين، رغم استعداده للتوصل الى اتفاق، يحس انه لايستطيع الاستغناء عن موافقة منظمة التحرير وعن دعم بعض البلدان العربية المجاورة. واسرائيل من جانبها ترفض اشراك منظمة التحرير في اي مفاوضات، طالما انها لاتلتزم بقراري الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يعترفان باسرائيل، وطالما ان الفلسطينيين يأبون ادانة الارهاب كسلاح، ويرفضون العمل بشكل جدي من اجل السلام.

ارجو ان يتمكن «شيمون بيريز»، عند تسليمه رئاسة الوزارة الى «شامير» وشغله لمنصب وزير الخارجية في اكتوبر ١٩٨٦، من ان يستمر في سياسة السعي الى تحقيق سلام بناء بين اسرائيل وجيرانها العرب في النهاية. وارجو من «شامير»، حين يصبح رئيسا للوزراء، ان يستمر في السياسة الاقتصادية الحالية التي تبعث الحياة في الاقتصاد الاسرائيلي. وفي الوقت الذي اكتب فيه هذا الكتاب، ارى «كرة» السلام في الملعب العربي. ولكن الأمر الذي يؤسف له هو ان الدلائل قليلة على استعداد العرب لاستغلال هذه الفرصة.

كنت استعين بين الحين والآخر بمشورة رؤساء الوزارة ووزراء الخارجية البريطانيين، بسبب نشاطاتي في اسرائيل في الفترة التي تحدثت عنها في هذا الفصل. سبق ان اشرت الى لقاءاتي مع «ادوارد هيث». وكانت لي مناقشات مع «هارولد ويلسون» و«جيمس كالاهان»، وكان كلاهما بناء ومتعاونا، رغم تركيزهما الدائم بالطبع على المصالح البريطانية. كانا ينظران الى المشكلات نظرة موضوعية قدر المستطاع، ويتخذان الاجراء الذي يريانه سليما. وقد قدما لي مشورة طيبة.

وجدت على مر السنين ان بعض كبار المسئولين بالخارجية البريطانية كانوا اقل موضوعية، فكانوا يدعمون الآراء العربية بصفة عامة، دون اخذ موقف اسرائيل في الاعتبار. وكان انحياز وزارة الخارجية بشكل عام تجاه البلدان العربية له مبرراته المعقولة، فقد كان لنا عشرون سفيرا في البلدان العربية في مقابل سفير واحد في دولة اسرائيل الصغيرة. وقد رقى عدد كبير من هؤلاء السفراء الى مناصب مسئولة في وزارة الخارجية، في مرحلة اواخرى من حياتهم العملية. وكانوا قد تعرضوا للتأثيرات العربية

وألموا بمشكلات تلك البلدان. والحق ان بعضهم لم يزر اسرائيل على الاطلاق. ويسعدني ان اقول ان كبار مسئولي وزارة الخارجية اليوم يبدون ميلا الى تبني آراء اكثر توازنا حول الموقف في الشرق الأوسط.

جمعتني عدة مناقشات باللورد «كارنجتون» قبل زيارته للشرق الأوسط عام ١٩٨٢. وكان يرغب في تحسين علاقاتنا باسرائيل. وسارت زيارته للمنطقة على ما يرام، لكن حرب جزر «الفولكلند» اندلعت اثناء وجوده في اسرائيل. واستقال «كارنجتون» نظرا لتغيبه عن بريطانيا في الوقت الذي شنت فيه الأرجنتين هجومها على «الفولكلند»، وبسبب تمسكه بمبادئه. وقد خسرنا وزير خارجية عظيما وزعيما سياسيا هاما وبناء.

في ١٩٧٤، حين كان «جيمس كالاهـان» وزيـرا للخارجية، طلب الي ان أزوره في الوزارة. ولما وصلت قال اريد ان أسألك سؤالا، على الا تجيب قبل يومين». فقلت له: تفضل.

قال: «اريدك ان تكون سفيرا لحكومة جلالة الملكة في اسرائيل».

«ولم اصدق ما سمعته اذناي فقلت: هل ما اسمعه صحيح؟

فقال: اجل.

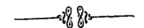
قلت: اخجلت تواضعي. لكن الكل يعرفون بعلاقتي الطويلة والوثيقة باسرائيل. ولن يصدق احد لو ذهبت الى هناك كسفير انني سأضع مصلحة بريطانيا اولا، حتى ولو فعلت ذلك. سيعتقدون انني متحيز».

قال كالاهان: انت مخطىء. ليس هذا رأينا.

قلت: هذا امر غير وارد مطلقا.

قال: «سألتك الا تتسرع في الرد. فكر في الأمر واعطني ردك بعد يومين». وشكرته، لكن ردي ظل كما هو بعد يومين.

حين سألته مؤخرا اذا كان يمانع لو رويت هذه الحكاية، قال مازحا: «طالما ان هذه كانت من افكاري النيرة، فلا مانع عندي مطلقا ان تشير اليها في كتابك».



الفصل السادس عشر

هذا هو الفصل الأخير من كتابي، وأريد ان اعطي فيه كشف حساب بالأنشطة والاهتمامات المختلفة التي شغلتني حتى هذه اللحظة، واستعرض القضايا التي عملت من اجلها، واحكي عن الأسرة التي احببتها ولازلت احبها. ولذا فقد يلاحظ القارىء ان كلامي مفكك بعض الشيء. ولكن معذرة، فما من سبيل امامي لتجنب هذا.

تقاعدت كرئيس لمجلس ادارة «ماركس اند سبنسر» وكبير للمدراء في يوليو ١٩٨٤. لكنني ظللت رئيسا وعضوا بالمجلس حتى اكتوبر ١٩٨٥، حين اعتزلت منصب الادارة وأصبحت رئيسا شرفيا للمؤسسة.

في الليلة السابقة على اجتماعنا السنوي العام في ١٩٨٤، قبل اعتزالي رئاسة المجلس مباشرة، استجاب مجلس «ماركس اند سبنسر» لدعوة على العشاء أقامها مديرو «ديوهيرست» للاحتفال باليوبيل المئوي لعلاقاتنا التجارية. وتحدث «أليستير ديوهيرست» رئيس مجلس ادارة الشركة عن مائة عام من الصداقة والتعاون ربطت بيننا، واهداني ساعة أثرية رائعة. رددت على كلماته الدافئة بما تيسر لي ، وأهديته عملة ذهبية من فئة الخمسة جنيهات ضربت في ١٨٨٧، لأننا لم نجد واحدة ترجع الى ١٨٨٤. وكانت هذه القطعة سدادا للجنيهات الخمسة التي أقرضها جده الى جدي قبل مائة عام. وفي الاجتماع السنوي العام في السنة التالية، وهو آخر اجتماع رأسته، استطعت ان أقول للمساهمين الحاضرين ان «ماركس اند سبنسر» قد تمكنت اخيرا من سداد ديونها بعد مائة عام.

حين تقاعدت من مجلس «ماركس اند سبنسر»، كانت سبعة وخمسون عاما قد انصرمت منذ التحقت بالعمل لأول مرة عام ١٩٢٨ في متجر «بريور ستريت». وكلي ثقة بأن القارىء سوف يدرك ان الأسابيع التالية على تقاعدي كانت مشحونة بالمشاعر لكن التغير

الذي طرأ على حياتي قد هون منه خليفتي وزملائي. احتفظت بمكتبي في «مايكل هاوس» مركزنا الرئيسي، وتشجعت على الاستمرار في اتصالاتي في المركز وفي المتاجر. ولا زلت انظر واسمع واتعلم، وحين الحظ شيئا جديرا بالاهتمام ابلغه الى «ديريك راينر» او احد كبار اعضاء المجلس. ورغم انني ابدي بعض الاقتراحات، فأنا احرص دائما على تجنب اي شيء يمكن ان يفسر على انه تدخل في الادارة. وحتى اذا اردت التدخل فلن يسمحوا لي. كان التصرف السليم ان تقاعدت لأفسح مكانا للشباب لتولي القيادة. لكني لازلت اذهب الى المكتب في معظم الأيام، ولاتزال علاقتي بزملاء العمر يطبعها الود.

كنت اتطلع الى التقاعد باعتباره مرحلة في الحياة استطيع فيها ان اخلد الى الراحة والاسترخاء، واقضي وقتا اطول في القراءة والصيد وزيارة المرزعة، وآخذ الأمور ببساطة وعلى مهل. لكن هذا الهدف لم يتحقق حتى الآن، فلا زالت بعض الأمور تطرأ ويطلب مني ان أفعل شيئا. في ٤ اكتوبر ١٩٨٤، ذهبت لتناول العشاء مع «هارولد ليفر». كان وزوجته «ديان» صديقين حميمين لـ «ليلى» ولي. وكانت احاديثنا دائما ما تغطي مجموعة متنوعة من الاهتمامات المشتركة. لكن هذا الغداء كان قاصرا على الرجال، فكان هناك ثلاثة ضيوف آخرين من كبار مدراء ثلاث مؤسسات كبرى. وقبيل انتهاء الغداء، اخذنا الحديث الى البطالة، وقلت ان سياسة «ماركس اند سبنسر» الرامية الى ايجاد المصادر في المملكة المتحدة كان لها الفضل في خلق أكثر من ٦٠,٠٠٠ فرصة عمل في مجالي الصناعة والزراعة. ورد احد الضيوف، الذي كانت منظمته اكبر من «ماركس اند سبنسر» بكثير، قائلا: ولكن ماذا تفعل ٦٠,٠٠٠ فرصة امام ثلاثة ملايين عاطل؟ فقلت: «لن تفعل الكثير. ولكن ماذا لو اتبعت مائة من المؤسسات الكبرى سياسة مماثلة، وخلقت كل واحدة منها ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ فرصة عمل؟ بهذه الطريقة ستهبط نسبة البطالة بدلا من ارتفاعها. وانا واثق ان عددا كبيرا من القائمين على الادارة العليا لا يدركون كميات السلع المستوردة التي يمكن انتاج ما يضاهيها على المستوى المحلي».

قررت لدى عودتي الى المكتب انه طالما انني اورطت نفسي في الأمر، فيجب ان افعل شيئا ازاءه. ودعوت على مدى الأسابيع التالية كبار مدراء ١٦ شركة من اكبر الشركات في المجال الصناعي ومجال التجزئة، كلا على حدة. سألت كل واحد فيهم: ما هي سياستك ازاء ايجاد المصادر المحلية؟ وقال اغلبيتهم: هذه هي سياستنا.

فقلت كيف تطبقونها؟

وقالوا، ماذا تقصد؟ انها سياستنا.

ثم سألت: متى كانت آخر مرة التقيتم فيها بكبار المسئولين في ادارات المشتريات واكدتم من جديد على هذه السياسة، او اطمأننتم على سيرها وسألتم عن المشكلات التي

تعوقها، والنجاح الذي تحقق في احلال المنتجات المحلية محل المستوردة او في خلق الصادرات؟

وكان رد معظمهم انهم لايتبعون هذا الأسلوب بالتحديد، ولكنها سياستهم. الواقع ان غالبيتهم لم ينفذوا تلك السياسة بشكل جدي فعال. بل ان بعضهم لم ينفذها على الاطلاق. كان ثلاثة ممن تحدثت معهم ينفذون تلك السياسة بنشاط وهم: «هكتور لينج» من «يونيتد بسكويتس» و«ايدي نيكسون» من آي بي ام (فرع بريطانيا) و«ديفيد أليانس» من «كوتس فييلا». والحق ان تنفيذ آي بي ام لهذه السياسة يجعل فضلها اكبر، لأنهم يمثلون فرعا من مؤسسة امريكية الأصل.

من بين المديرين الستة عشر الذين تحدثت معهم، قال ثلاثة بكل صراحة ان فكرة البحث عن المصادر المحلية لم تخطر لهم مطلقا، رغم تأكيدهم جميعا انهم ليسوا ضد المنتجات البريطانية.

بعد ثلاثة او اربعة اشهر، عاد الي اثنان من المديرين الستة عشر ليبلغاني انهما بدءا سياسة ايجاد المصادر المحلية وحققا نجاحا مبدئيا. واخبرني كبير منفذي شركة كبرى للأطعمة انهم بعد ان كانوا يشترون علب الحفظ من البلدان الاسكندينافية، قرروا دراسة امكانات تصنيعها محليا. وقد بدأوا بمحاولة ناجحة خلقت ٢٠٠ فرصة جديدة. كما اخبرني ان مؤسسته كانت تستورد السكر المكرر حتى تلك اللحظة، وانهم بدأوا في تجربة استيراد السكر الخام وتكريره في بريطانيا. وبعد نجاح التجربة، تم خلق مائة فرصة عمل جديدة. وجاءتني اخبار سارة ايضا من كبير مدراء مجموعة كبرى لتجارة التجزئة. فقد اخبرني انهم كانوا يستوردون ٣٠ بالمائة من معروضاتهم، وانهم قرروا تجربة ثلاثة منتجات محلية كانت تستورد من الخارج في السابق. ونجحت التجربة في خلق ٦٠٠ فرصة عمل جديدة في مراحلها الأولى.

كنت في نشاطاتي في هذا المجال أتلقى الدعم الكامل من رئيسة الوزراء، التي تهتم فعلا بتخفيض نسبة البطالة. وكلما لجأت الى السيدة «تاتشر» لاستشارتها في المجالات المتصلة برخاء الشعب، كانت تبدي تعاطفا وتعاونا فعالا باستمرار. ورغم اننا لانتفق في الرأي دائما، فقد كانت نصائحها متعقلة وبناءة وفي صلب الموضوع. والحق انها امرأة ذات افق واسع، سوف تعود بالخير الكثير على البلاد بحماسها واصرارها، وان كانت لاتلقى حقها من التقدير دائما. لازلت في تقاعدي المزعوم أنادي بالعلاقات الانسانية الطيبة. ولهذا الغرض اتحدث امام مؤتمرات رجال الأعمال والاجتماعات السياسية والحلقات الدراسية والأكاديمية. غير ان تنمية انتاج السلع محليا لتقليل الواردات وزيادة فرص العمل لاتزال في اولوية اهتماماتي. حين قام الرئيس الفرنسي «ميتران» بزيارته الرسمية الى

بريطانيا في اكتوبر ١٩٨٤، كنت و«ليلى» من المدعوين الى المأدبة التي أقيمت له، ثم الى مأدبة الغداء التي اقامتها رئيسة الوزراء له في اليوم التالي. وكنت انا و«ليلى» الشخصين الوحيدين اللذين لم اجد مبررا لوجودهما في كلتي المناسبتين. جلست «ليلى» الى جوار السفير الفرنسي «مسيو دي مارجري» وقالت له انها تتساءل عن سبب دعوة آل «سيف». واجاب السفير بأسلوب مهذب لايقنع. وبعد تفكير قالت لي «ليلى»، عرفت لماذا دعينا. كان نابليون يسمي بريطانيا «امة اصحاب المتاجر»، ونحن هنا نمثل الأمة.

غمرني السرور حين اصبح ابي من فئة النبلاء في ١٩٦٦. وسرني اكثر ان انضممت انا الآخر الى قائمة النبلاء في ١٩٨٠، اذ اننا كنا اول أب وابنه ينضمان الى هذه الفئة. ووقع اختيار ابي على لقب «لورد سيف من بريمبتون» في مقاطعة «بركشاير» الملكية. وحيث انني كنت اقيم في نفس المنطقة ، رأيت ان استخدم نفس لقب ابي. لكن المسئولين اخبروني انني لا استطيع ان افعل ذلك، لأنه قد يعني ارساء سابقة وراثية، وهذه مخالفة للمبادىء. ومن ثم اخترت لقب «لورد سيف من بريمبتون، بمنطقة بريمبتون» في مقاطعة بركشاير الملكية. وهكذا كان ابي يوقع باسم «سيف»، في حين كنت اوقع «سيف من بريمبتون». وهكذا وجدنا حلا مرضيا لمشكلة عويصة.

غمرتني السعادة ايضا حين انتخبتني كليتي «كوربوس كريستي» زميلا شرفيا منذ بضعة اعوام. ثم نلت درجة فخرية من كليات «سان اندرو» و«سترلنج» و«ريدنج» و«بابسون» في الولايات المتحدة و«كلية مانشستر التقنية». ثم وقع الاختيار علي للقب الزمالة الفخرية في كلية الجراحين الملكية التي قدمت «ماركس اند سبنسر» واسرتي دعما مستمرا لها. والحق انني لا أسأل نفسي ان كنت استحق هذا الشرف، ولكنني اكتفي باظهار العرفان لهم.

في السنوات الأخيرة، انخرطت، لدهشتي، في عدد من الأنشطة التي لم اكن اتوقعها على الاطلاق. كان احدها متمثلا في «مؤسسة الشرطة». ففي ١٩٧٩ سألني لورد «جودمان» ان اصحبه الى اجتماع في وزارة الداخلية، دون ان يطلعني على موضوع اللقاء. ولدى وصولي وجدت «لورد جودمان» و«سير روبرت ارمسترونج» الذي كان وكيلا لوزارة الداخلية، واللورد «هاريس» الذي كان وزيرا للدولة هناك، و«سير ديفيد ماكني: مفوض شرطة العاصمة. واوضحوا لي انهم يعتزمون انشاء مؤسسة الشرطة، وهي جهاز مستقل تماما عن الحكومة والشرطة والسلطات الأخرى. وكان هدفه دراسة طرائق اعمال الشرطة والتدريب وعلاقات الشرطة بالمجتمعات التي تعمل فيها، الى جانب موضوعات اخرى متصلة بالموضوع. وقال «ارونولد جودمان» ان اصحاب الفكرة يودون ان اكون اول رئيس للأمناء، وليس رئيسهم.

فقال «جودمان»: لايمكن لأي شخص له صلة بالسلك القانوني ان يكون رئيسا، وهـذا يستبعـدني. ولايمكن لشخص له صلة بالحكومة ان يكون رئيسا، وهذا يستبعد «جون هاريس» و«روبرت آرمسترونج». ولايمكن لشخص له صلة بالشرطة طبعا ان يصبح رئيسا. وهكذا لايبقى سواك».

وكـررت انني لا أستـطيع ان اقبل المنصب. لكنهم التمسوا ان استجيب لنداء الواجب، فوافقت ان اصبح رئيسا لمدة عام واحد. وامتد هذا العام الى خمسة اعوام. وفي ١٩٨٤ قلت انه من الضروري ان يخلفني شاب يصغرني. وسعدت ان وافق «جون هارفي جونز» مدير أي سي أي.

لا يزال ارتباطي في اسرائيل ومشكلات الشرق الأوسط مستمرا. استقلت كرئيس لمجلس الادارة الدولي لمعهد وايزمان العام الماضي، ولكنني سعدت بانتخابي مستشارا. وعملت بشكل وثيق مع «موري ليفنسون» الذي خلفني في رئاسة المجلس، وقدم كل دعم ممكن للمعهد من خلال رئاسته للجنة الأمريكية فيما سبق. كما ان «معهد وايزمان» قربني من «ديفيد جنيزبرج»، وهو واحد من ابرز محامي واشنطن ويتمتع بسجايا نادرة. وقد كانت نصائحه بالغة القيمة في عدة مناسبات.

اما في كندا فقد وطد المعهد صداقتي بـ «موراي كوفلر»، نائب رئيس المجلس الدولي للمحافظين، و«جيمي كاي» رئيس اللجنة الكندية. وقد قدم كلاهما اسهاما بارزا في اعمال المعهد.

في ١٩٧٢ خلفني «ديريك كليمان» في رئاسة مؤسسة «معهد وايزمان»، وهو الجناح المساعد في بريطانيا. وقد ابلى بلاء حسنا في اداء وظيفته طوال احدعشر عاما، ثم خلفه ابني ديفيد عام ١٩٨٣، وهو يؤدي جهدا طيبا. ويضم المعهد الآن حوالي مائة عالم زائر من كافة انحاء العالم، من يهود وغير يهود. وأعتقد انه اذا تحسنت العلاقات بين اسرائيل وجيرانها العرب، فان «معهد وايزمان» سوف يشكل واحدا من الجسور التي يسير السلام من خلالها.

في بداية ١٩٨٥، غمر السرور كلا من لهم صلة بمعهد وايزمان، حين وافقت رئيسة الوزراء «مارجريت تاتشر» على تأسيس قسم للكيمياء يحمل اسمها بالمعهد.

عملت مع رئيسة الوزراء في عدد من الميادين ووجدتها متعاونة الى اقصى الحدود، سواء فيما يتصل بمشاكل الصناعة والبطالة في انجلترا، او فيما يتصل بالعلاقات مع اسرائيل والشرق الأوسط. وقد ازداد اعجابي واحترامي لها رغم تعارض آرائنا في بعض المناسبات. وقد كانت زيارة «شمعون بيريز» الاخيرة لبريطانيا في يناير ١٩٨٦، كأول زيارة رسمية لرئيس وزراء اسرائيلي، ناجحة للغاية. ولم يكن هذا النجاح راجعا الى السياسات

البناءة والمتعلقة التي ينادي بها «بيرين» وحسب، وانما للتعاون والود الذي قوبل به من جانب رئيسة الوزراء وزملائها.

في مايو ١٩٨٦، قامت «مارجريت تاتشر» بدورها بأول زيارة رسمية لرئيس وزراء بريطاني الى اسرائيل. وقد كنت بصحبتها في عدة مناسبات، واسعدني ان اقيم مأدبة غداء لتكريمها في «معهد وايزمان». واعتقد من خلال ملاحظاتي ان هذه الزيارات المتبادلة بين رئيسي الوزراء قد عملت بالفعل على تحسين العلاقات بين البلدين.

سبق ان ذكرت ان «ليلى» وشقيقتي «جوديت» المقيمة في اسرائيل، عضوتان نشطتان في المنظمة الصهيونية النسائية الدولية. كما ان «ليلى» من الأعضاء الرواد في الاتحاد البريطاني للنساء الصهاينة، الذي يدعم في بريطانيا كل العمل الذي بدأته والدتي في اوائل العشرينات في فلسطين في فترة الانتداب البريطاني. توفيت والدتي في ١٩٦٦، ودفنت في «تل موند» على مقربة من بيتها. وقد كانت حياتها حافلة بالنشاط. ولاشك ان افضل عرفان بالنشاط الذي مارسته من خلال المنظمة النسائية في خدمة المسنين والعجزة والشباب والمرضى من العرب واليهود، قد تمثل في مئات الأشخاص الذين ساروا وراء نعشها في جنازتها، وكان بينهم مئات من العرب. ولم تكن امي امرأة من السهل ان نجد من يخلفها. ولكنه كان ليسعدها ان «رايا جاجلوم» الرئيسة الحالية للمنظمة الصهيونية امرأة ذات مقدرة فائقة ونشاط جم. وقد توسعت كثيرا في نشاط المنظمة.

من أحدث الأمور التي أثارت اهتمامي مؤخرا في اسرائيل، مستعمرة «نيف شالوم» (واحة السلام) الواقعة بالقرب من دير «اللطرون». أسسها الأب «برونو» الدومينيكاني ذو الطاقة الهائلة والرؤيا المستنيرة في ١٩٧٣. كان يريد او يوجد وسيلة ما يعمل من خلالها المسلمون والمسيحيون واليهود ويعيشون سويا للمساعدة على اقرار السلام. لم تحرز «نيف شالوم» نجاحا كبيرا في البداية. ومن ثم قرر الأب «برونو» ان يغير شخصيتها. وهكذا تزعمها «بنيشز (ويليزلي) آرون»، وهو ضابط سابق بالجيش الثامن، وطورها الى مستعمرة عربية يهودية مشتركة، يعيش ويعمل فيها حوالي ستين شخصا، نصفهم من العرب ونصفهم من اليهود الذين يتقنون العربية والعبرية. وتقدم «نيف شالوم» دورات مدتها اربعة ايام لشباب العرب واليهود القادمين من نفس المنطقة. وقد حضرت بعض هذه الدورات لأرى ما يحدث بين الشعبين اذا ما اجتمعا. ولاحظت في اليوم الأول ان كلا من العرب واليهود يبقون متباعدين في ريبة من نوايا بعضهم البعض. وبحلول اليوم الرابع تتكون بينهم الصداقات التي يستمر بعضها حتى بعد ترك المستعمرة، وذلك بفضل تواجدهم سويا وتلقيهم للتدريب في مكان واحد. وقد التحق بالمستعمرة حتى الآن حوالي ٧٠٠٠ شاب يهودي وعربي. وهذا رقم متواضع طبعا، لكنه مجهود جدير بالتقدير. قمت

بزيارة المستعمرة ست مرات خلال السنوات الخمس الماضية، ولمست فيها تقدما هائلا. وقد افتتحت مؤخرا دار حضانة للأطفال المولودين هناك، والذين يتقنون اللغتين منذ الصغر. وتعد المستعمرة مدرسة للسلام. وقد وصفها «سام لويس» سفير الولايات المتحدة في اسرائيل بانها «انصع امل للسلام في منطقة الشرق الأوسط التي يمزقها الصراع»، وهو على حق. ورغم انني ينبغي الا ابالغ في تفاؤلي بالسلام الذي تحققه «نيف شالوم»، فهي تمثل على الأقل بريقا من الأمل في السلام على الأفق، وبريقا هاما.

من امتع الأمسيات التي قضيتها في اسرائيل، تلك المأدبة التي حضرتها في ابريل ١٩٨٣، احتفالا بعيد ميلادي السبعين. تحدث عدد من الناس باطراء بالغ، لكنني تأثرت كثيرا بما قاله «أبا ايبان» رئيس الوزراء السابق، الذي ختم حديثه بقوله: «نحن لانترك ماركوس سيف الليلة مودعين او محررين، بالعكس. اما وقد انقضت سنوات تلمذته، فقد آن الأوان لكي يبدأ العمل الجاد».

ذكرت في فصول سابقة عددا من الناس الذين حاولوا مساعدة اسرائيل واقرار السلام الدائم والثابت في الشرق الأوسط. منذ بضعة اعوام، كنت و«ليلى» ضيوفا على صديقينا الأمريكيين «استر» و«والتر شوينفلد»، وسألاني ان كنا نود التعرف الى صديقيهم السيناتور «سكوب جاكسون» وزوجته «هيلين»، وحل الانسجام بيننا نحن الأربعة. كان «سكوب» عضوا في بعض اللجان الهامة في مجلس الشيوخ التي تغطي مجالات واسعة، وكان له نفوذ واسع. كان مهتما دائما بأمن اسرائيل والسلام في الشرق الأوسط، كما كان مهتما بنفس القدر بتنفيذ معاهدة هلسنكي لحقوق الانسان. وقد سعى من خلال المعاهدة الى الافراج عن اولئك الروس، وبينهم يهود، الذين لديهم الرغبة في الهجرة ولايسمح لهم بذلك. وكان الاصرار الذي يسعى به الى تحقيق اهدافه غير عادي، فقد كان دافعه الاقتناع وليس الكسب السياسي. كان نائبا عن ولاية واشنطن التي يقل فيها عدد اليهود. وحين تحدثت معه في الفترة التي كان يسعى فيها الى الحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي للرئاسة، قلت له ان فرصته يمكن ان تكون افضل لو خفف قليلا من تركيزه على اليهود، واليهود الروس واسرائيل والشرق الأوسط. وكان رده: ماركوس، انا لا أستطيع ، وليس لدي استعداد ان اكيف معتقداتي من اجل اي مكسب سياسي». وللأسف انه مات في ١٩٨٣. لقد كان صديقا افتقدناه جميعا، ولاتزال زوجته تواصل بعض النشاط الذي بدأه.

يعد البروفيسور «جويدو جولدمان» بجامعة هارفارد خبيرا في الشئون الأوربية، والألمانية بصفة خاصة. وهو امريكي وجدت في نصائحه السياسية قيمة لاتقدر بثمن. ونشترك انا وهو في تذوق افخم انواع النبيذ التي يقتني منها مجموعة ممتازة، واستمتع انا بتذوق عيناتها. انتخبت في ١٩٨٤ رئيسا للجمعية الزراعية الملكية في لندن. لم أكن

اعتقـد انني الشخص المناسب للمنصب. لكن «فرنسيس بيمبرتون» صديقي من ايام «كيمبريدج» و«تشارلي سميث رايلند» رفيق الاجازات اقنعاني بان اقبل الرئاسة لمدة عام. وبذلت ما في وسعي، وسنحت لي الفرصة في المعرض الملكي عام ١٩٨٥ ان اعيد التركيز في خطاب الافتتاح على اهمية انتاج ما يريده المستهلك وعلى النوعية والقيمة، وخاصة في هذه الأيام التي تمر فيها الزراعة في السوق المشتركة بأزمة اقتصادية، بسبب أكداس الحبوب واللحوم المتراكمة وبحيرات النبيذ التي ننتجها. ولكنني كمزارع ادرك ان الكلام اسهل من العمل.

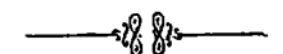
كان من الأحداث الأليمة في ١٩٨٦ وفاة «مايكل ساكر» ابن عمتي وصديقي. كان زميلا لي في العمل اكثر من اربعين عاما، وقد قدم اسهاما كبيرا في تنمية المؤسسة في عدة نواح، وخاصة مسألة ارتفاع الجودة. ورغم اننا لم نتفق في الرأي بشكل دائم، فان ذلك لم يؤثـر مطلقا على الصداقة الدافئة التي ربطتنا . وقد كنت اقدر آراءه كثيرا، وسوف افتقده بشدة.

ان أيا من الأحداث التي سردتها لم تكن لتحمل اي معنى لولا وجود زوجتي «ليلى» التي احتملتني طوال اربع وعشرين سنة. انها لم تكن نعم العون وربة البيت المضيافة وحسب، ولكنها اكتسبت ايضا على مدى السنوات العشر الماضية معرفة كبيرة بالفنون الراقية، واسست لنفسها تجارة ناجحة في مجال الفن. وقد ملأني الزهو والفرح حين اثنت اكبر الصحف القومية على معرضها السنوي الأخير. لقد كانت «ليلى» ولا تزال أعتى ناقد مثابر وبناء بالنسبة لي، وارجو ان تظل كذلك.

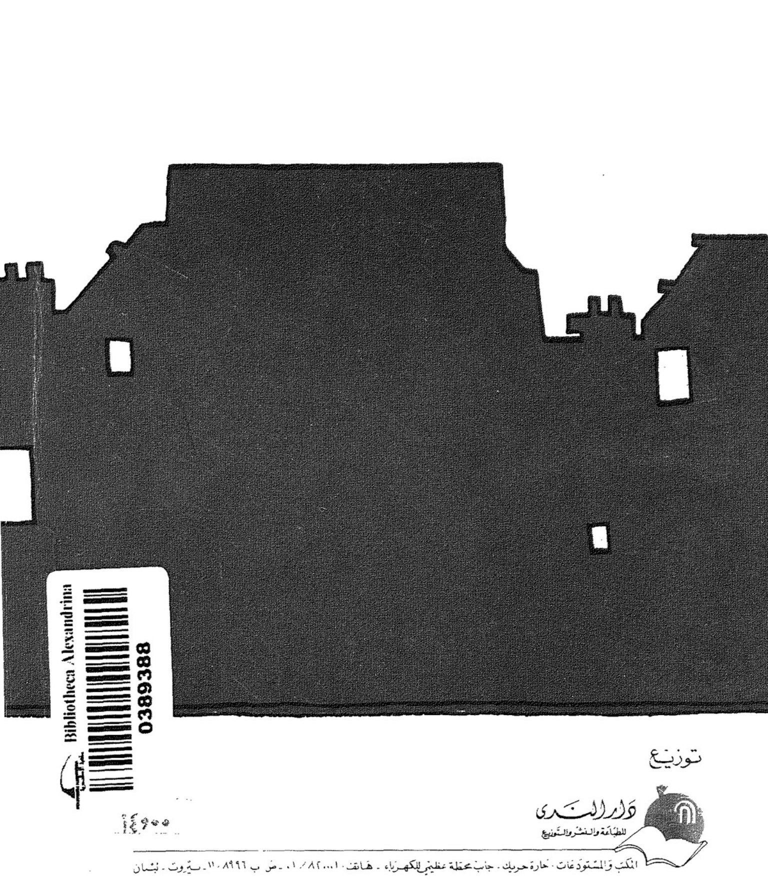
على ما ورد في تراث الأجداد «ليس من واجبك ان تكمل العمل، ولكن ليس مسموحا لك ان تكف عن العمـل». والآن، وانـا في خريف العمر، بقيت لي ثلاثة اشياء استمر في النضال من أجلها.

أولها هو تحقيق التقدم في حل مشكلاتنا الاجتماعية / الاقتصادية من خلال خلق فرص عمل اكثر في المملكة المتحدة.

وثـانيهـا هو تحسـين العلاقات الانسانية الطيبة في مكان العمل. وثالثها، وربما اهمها، هو تقديم ولو اسهام متواضع نحو استقرار اكبر وسلام في الشرق الأوسط .



فهرست المحتويات



توزيع

دار الندى
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب والمستودعات - حارة حريك - جانب محطة عظيمي للكهرباء - هاتف ٠١/٨٢٠٠٠١ - ص ب ٨٩٩٦-١١ - بيروت - لبنان